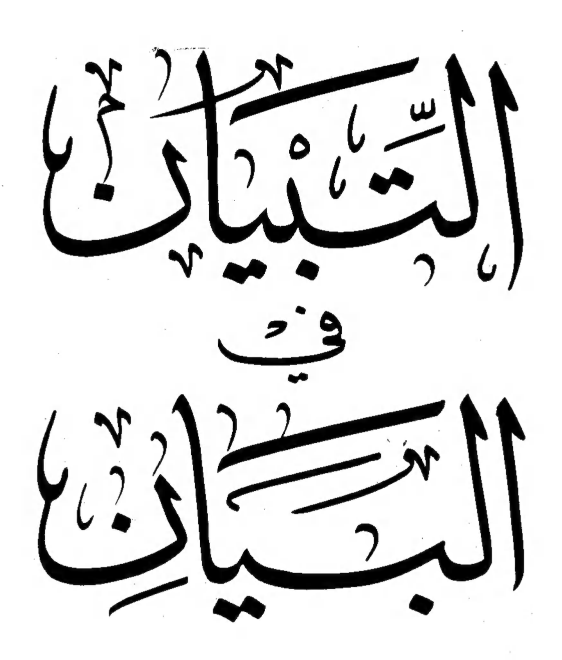


تأليف

شرف الدين الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي

المتوفى ٧٤٣ هـ

قرأه وعلق عليه

الدكتور يحيى مراد

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٤ م - ١٤٢٥ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-4493-6
90000>
9782745144935

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المؤلف

هو شرف الدين الحسين بن محمد بن عبد الله الطِيبـــي نسبة إلى الطيبة، وهي قرية بالشام بين تدمر وحلب.

يقول ابن حجر عن الطيبـــي: "الإمام المشهور، صاحب المشكاة وغيره": قرأت بخط بعض الفضلاء أنه كان ذا ثروة من الإرث والتجارة، فلم يزل ينفق ذلك في وجوه الخيرات إلى أن نفد ماله في أُخريات حياته، وصار فقيرًا. كما كان مقبلاً على نشر العلم، فقد كان يجمع الطلبة ويعينهم ويعير الكتب النفيسة لأهل بلده وغيرهم من أهل البلدان، سواء كان يعرفهم. أو لا شديد الحب لله ورسوله، جمّ الحياء، والتواضع، وكان ملازمًا للجماعة[(١)]".

مؤلفاته:

١- شرح له علي الكشاف بعنوان: "فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب" أشار إليه ابن حجر[(٢)]، وقد أجاب فيه الطيبـــي عمّا خالف الزمخشري به مذهب أهل السنّة أحسن جواب، وأن من يطالع هذا الشرح يعرف فضل مؤلفه، وهو كتاب في تفسير القرآن الكريم.

٢- شرح "المشكاة" وهو شرح لمختصر في علم البلاغة أشار إليه ابن حجر[(٣)]، وكان غالبًا ما يلقب الطيبـــي بـــ "الإمام المشهور صاحب شرح المشكاة وغيره".

٣- الخلاصة في أصول معرفة الحديث، وقد ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون.

٤- "الكاشف عن حقائق السنن".

٥- "التبيان في البيان".

---

(١) الدرر الكامنة جـــ٢، ص١٥٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.



مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي أشرقت بسنا محامده في سماء المعاني، من شموس البيان، أنجم وبدور، وتلألأ بنعوت كماله في بحر البديع، من قلائد التبيان، منظوم ومنثور، وتنمقت في رياض الفصاحة من ربيع محاسن نكاته أزاهير البلاغة، وتنشقت من نفائح نسائم مستودعاته عرانين الخطابـــة، أبرز من سجاف المعاني، ببيان التمثيل، مخدرات الأفكار، وأطلع بمكنون الكنايات، في مظان الاستعارات، مشارق الأنوار، فالتفّت خرائد النظام، فتجردت متبرجات، ثم أومت بنشر التلافيف خجلة، متوشحات، فصل ثم وصل، وحصَّل حين فصَّل، وأوجز وقصّر، قدَّم ثم أخّر، فأفحم وأحصر.

فسبحان مَن ارتدى بالعز والكبريـــاء، وتنـــزه عن التشبيه والتمثيل، واتَّزرَ بالعظمة والعلاء، وتكرم بالتكميل، وتعزّز عن التذييل.

والصلاة والسلام على أفضل مبعوث من أكرم جرثومة، وأكمل منعوت بأعرق أرومة، الذي رفع رايات البلاغة في صنعة الإيجاز، وحاز قصب السبق في حلبة الإعجاز، أبي القاسم محمد بن عبد الله، ذي الخلائق العظيمة والطرائق القويمة، والمسالك التقية والصحائف النقية، ما نَجَمَ طَلْعٌ في الروضة الغنّاء، وطَلَع نجمٌ في القُبَّة الخضراء، أما بعد..

فإن أول ما أعلمت فيه القرائح وعلقت به الأفكار اللواقح، وصرفت إليه الهمم العالية، وصدقت فيه العزائم الماضية، الفحص عن أسرار التنـــزيل، والكشف عن أستار التأويل؛ إذ به تتشعب الطرائق إلى إدراك الحقائق، وبه تقوم المعالم، وتَثْبُت الدعائم،ويتقدم المنازل، وتتخير الأماثل، والعلوم المعْزُوَّةُ إليه كثيرة، وعوائدُ كلٍّ منها غزيرة.

لكن لا يغوص على حقائقه، ولا يفوز بشيء من دقائقه إلا رجل بحث عن فوائد المعاني، ونظر في اختلاف دلالات تلك المباني، واجتلى من سماء محاسن البديع أنجماً زُهراً، واجتنى من أفانين البلاغة ثمراً وزهراً، تِلْكم هي التي تُوفّي كلام ربّ العزّة في هيئة التفسير حقه، وتصون له في مظان التأويل ماءَه ورَوْنَقَه، فالويلُ كلُّ الويل لمن يتعاطاهما وهو فيها راجل، وعن دون مغزاها راحل.

هذا وإن كتابي؛ إذا تركت المراء، واتبعت الهدى قلت: هو بديع في إغرابه، وإذا رمقت بعين الرضا، وجانبت الهوى خلته فرداً في بابه، لما ضمنته من مباحث المفتاح ما

كان أصولها، ومن مناقب الكشاف ما آض محصولها ورشحته بما في المصباح والإيضاح من النوادر، ووشحته بزبدة النهاية والمثل السائر، وعلّقت ما شذّ على بعضهم من الأوابد، فاقتيد للأزمة تلك القواعد الشوارد ونظمتُ فيه من عيون فرائد النثر ودرره، ومختار قلائد النظم ومحبره، ولم آلُ جهداً في الترصيف والتنقيح، والتوفير من المباحث مع التوضيح، وأدرجت في تضاعيف ذلك مما هداني الله إليه من لطائف لم تكن مبتدعة، ومنحني منها ما لم تجد فيه مودعة، ومع هذا لا آمن فيما أوردته من سلق اللسان وسبقه، وطغيان اليراع وخَرَقِه، وأن الفاضلِ من تُعَدُّ سقطاتُه وتحصى غلطاتُه مع أني بالقصور في الصناعة معترف، ومن مِزْجَاة البضاعةِ مقترف، فجاء يحمد الله نُوراً لحدقة التبيان ونوْراً لحديقة البيان فوسمته التبيان في البيان.

والله أسأل الإرشاد، إلى المراد، والعصمةَ من الخلل في الإصدار والإيراد، إنه وليُّ التوفيق، وبيده أزمة التحقيق.

والكلام فيه مرتب على فنين: فن البلاغة، وفن الفصاحة.

الفَن الأول

البلاَغَة

وهي توفية خواص التراكيب في إفادتها، وإيراد معنى واحد في طرق مختلفة، بدلالتها، وتحسينها من جهة المعنى.

ونعني بها التراكيب من حيث هي، لا الصادرة عن البليغ لإيفاد المعنى، ولها طرفان: الإعجاز وحاكمه الذوق، وما خرج عن النعيق، وبينهما مراتب لا تكاد تنحصر، ومرجعها إلى الاحتراز عن الخطأ في خواص التراكيب، وفي طرق دلالتها، وفي التحسين.

وما يحترز به عن الأول علم المعاني، وعن الثاني علم البيان، وعن الثالث علم البديع.

علم المعاني

هو تتبع خواص التراكيب في الإفادة تفادياً عن الخطأ في التطبيق، وأعني بالتراكيب ما صدر عن البليغ لنـــزول غيره منـــزلة النعيق، وبالخواص ما يسبق منه إلى الفهم، كنفي الشك أو رَدِّ الإنكار أو مجرد الإخبار أو غيرها، وبالإفادة تفهيم المخاطب إما الحكم: كزيد قائم أو لازمه وهو علمُه علمَك به كحفظتَ القرآن لمن حفظه، وبالفهم فهم البليغ، وإلا فلا اعتداد، كما سئل علي ﷺ مَن المتوفِي بالكسر، وقراءته عليه قال: الله تعالى؛ لأن السائل لم يكن بليغاً، وبالتطبيق إيراد الكلام على ما يقتضيه المقام.

فالخاصيةُ إما جاريةٌ مجرى اللازم بالنظر إلى البليغ، أو لازمة بالنظر إلى نفس التراكيب.

والموضوع التراكيب من حيث الخاصية لأنا نبحث عن خواصها التي هي عوارضها الذاتية، وهي خبرية وطلبية.

أما الخبر فقد قيل:إنه مستغنٍ عن التحديد لمعرفة كلٍّ بالصادق والكاذب واحتمالهما لازمه، ومرجعه إلى حكم الحاكم بمفهوم على مثله نفياً أو إثباتاً لا إلى حكم مفعول يشير إليه بالذي هو لزيد، فإن الصلة حقها أن تكون معلومة عند المخاطب وبأنه زيد؛ لأنه منقول من الحكمية إلى كونه أحد طرفيه يُحْكم له في حق بأنه زيد أو به في الذي أَدَّعيه أنه زيد، وسبب الاحتمال إمكانُ تحقيق الحكم مع الصدق أو الكذب من حيث إنه حكم.

والخبر الصادق ما يطابق الواقع، وما قيل هو ما يطابق اعتقاد المخبر وإن خالفه

لتبرّيه به لا معول عليه، لكون تكذيبنا اليهود في الإسلام باطل، وتصديقنا حق يقلعه، قالوا: نشهد إنك لرسول الله، وتكذيب الله إياهم مؤذن به، وأُجيب بأن التكذيب راجع إلى دعوى كون الشهادة عن صميم القلب.

باب في الإسناد

وهو بالنظر إلى المخاطب ثلاثة:

أ – **ابتدائي**: وهو ما خوطب به خالي الذهن نحو زيد قائم فلا يؤكد بنحو إن واللام، فإنه كما أُلقي إليه انتقش في ذهنه قال[1]:

أَتَانِي هَوَاها قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الهَوَى فَصَادَفَ قَلْبِي خَالِياً فَتمكَّنَا

وقد يخرج الكلام لا على مقتضى الظاهر، نحو: سيدك قائم، والعبد عارف غير ملتفت إليه، وإليه ينظر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ [سورة البقرة آية:١٠٢] إلى قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

أكد العلم، ثم نفاه لعدم جريهم على موجبه.

ب– **طلبي**: وهو ما نفي به شك العالم بالطرفين، نحو: إن زيداً قائم فيؤكد، وقد ينـــزل غير الطلبي منـــزلتَه إذا قُدِّم له ما يتنبهُ به، قال بشار[2]:

بَكِّرا صَاحِبَيَّ قَبْلَ الهَجِيرِ إنَّ ذاكَ النجاحَ في التَّبْكِيرِ

فإنه لما أَلْقى إليهما بَكِّرا تصور أنهما تحيَّرا في أن التبكير هل يثمر النجاح أم لا، فأزاله بقولـــه: إنَّ ذاك، وفي التنـــزيل: ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ [سورة هود آية: ٣٧].

ج– **إنكاري**: وهو ما ردّ به حكم المخالف بنحو إنّ، نحو: إني صادق لمن ينكر ذلك، ثم إني لصادق لمن يبالغ على هذا، وعليه قول الرسول: ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ [سورة يس آية: ١٤] ثم: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [سورة يس آية: ١٦].

وقد ينـــزل غير المنكر منـــزلته إذا فعل ما يلابس الإنكار، قال[3]:

---

(١) قائله مجنون بن عامر، البيان والتبيين ٢: ٥٩.

(٢) انظر دلائل الإعجاز ٢٠٧.

(٣) ورد البيت في دلائل الإعجاز ٣١٢، والبيان والتبيين ٤: ٤٤، وقائله حجل بن نضلة، وبعد:

هل أحدث الدهر لنا نكبة أم هل رقّت أُم شقيق سلاح

أبو برّة الأعرابي قال: يريد أن شقيقاً أغار عليه فذهب بإبله، وكان قتل بني الربات، فقال: هل رقّت أُم سلاحي حين يصيب هذا ولا يجرح ولا يصاب؟

=

جاءَ شَقِيقٌ عارِضاً رُمْحَه إن بَني عَمِّكَ فِيهِمْ رِمَاحُ

وقد يعكس إذا كان بحيث إذا تأمل ارتدع، قال تعالى: ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ [سورة البقرة آية: ٢] وكم من مرتاب.

ومن الاعتبارين قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾[سورة المؤمنون آية: ١٥، ١٦] أكد إثبات الموت باعتبارات، وإن كان مما لا يُنْكر لتنزيل المخاطبين منزلة مَن يبالغ في الإنكار لتماديهم في الغفلة، والبعث باعتبار، وإن كانوا ينكرون جداً لظهور أدلته، أي أنه جدير بأن لا ينكر إذ ليس فيه مجال للإنكار، فنزلهم منزلة المترددين.

هذا والذي يقتضيه النظم الأنيق وتكرير كلمة التراخي في الرتبة المستدعية للترقي في الأطوار من لدن قوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [سورة المؤمنون آية: ١٤- ١٦] بأن تحمل «إن» على مجرد التوكيد بَسَطًا فِعْلَ المؤمن في جُؤَاره ربنا إننا آمنّا، ولما كان الموت هو الوسيلة إلى الوصول إلى نهاية المطالب، وكان مستدعياً لتفكيك ذلك الترتيب العجيب الذي من حقه أن يصان منه، لقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أكد ذلك التوكيد وضم مع كلمة التراخي لفظة بعد ذلك.

وبنحوه رمز جار الله في قول المنافقين: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [سورة البقرة آية: ١٤]، ويعلم من هذا ومن باب الفصل والوصل الفرق بين قولك: اعبد ربك إن العبادة حقٌّ له، وفالعبادة، والعبادة، فصل الأولى للطلبية ثم الثانية للسببية، وعكس لتحويل الرتب إلى الذهن في الثالث وتصريح التعليل في الثانية.

=

قال فردّ عليه شقيق:

إن يعرضوها فهُمُ أهلها هم صرفوكم للمياه الملاح

باب في المسند إليه

وفيه أبحاث:

الأول: في كونه متروكا وهو إما لضيق المقامْ قال[١]:

قال لي: كيف أنت؟ قلت: عليل   سهر دائم وحزن طويل

أو لصون العبث كقول المبتهل: الهلال، أو للتعويل على أقوى الدليلين من العقل والنقل، قال تعالى: ﴿**وما أدراك ما هيه * نار حامية**﴾ [سورة القارعة آية: ١١، ١٢] أو لتطهير اللسان عنه، قال الحماسي[٢]:

قوم إذا أكلوا أخفوا كلامهم   واستوثقوا من رتاج الباب والدار

وفي معناه قول القائل:

وإذا ذكرتكم غسلت فمي   ولقد علمت بأنه نجس

أو لتطهيره عن اللسان قال[٣]:

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم   دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

نجوم سماء كلما انفض كوكب   بدا كوكب تأوي إليه كواكبه

وفي معناه قول يزيد[٤]:

وإياك واسم العامرية إنني   أغار عليه من فم المتكلم

أو، لأن الخبر لا يصلح إلا له: إما حقيقة نحو "خالق لما يشاء" أو ادعاء قال[٥]:

---

(١) ورد في دلائل الإعجاز بدون عزو ٢٤٢.

(٢) الحماسي هو: أبو عيينة محمد بن يمنة المهلبي، وقد جاء في آمالي ابن الشجري ١: ٣١٨ ديوان الحماسة لأبي تمام ٢: ٢٣١، كما ورد في الكامل ٢: ١١٨ بدون عزو.

(٣) ينسبان إلى أبي الطحان القيني، واسمه حنظلة بن الشرقي الموشح ٣٨١، وأبي لقيط بن زرارة الحماسة لأبي تمام ٢: ٢٧٢.

(٤) أي في عدم ذكر الاسم صونا له، وقائله يزيد بن معاوية، تزيين الأسواق بأخبار العشاق: داود الأنطاكي ٤٠٧.

(٥) ينسبان إلى أبي الأسود الدؤلي في عمرو بن سعيد بن العاص، وإلى عبد الله بن الزبير الأسدي في عمرو بن أبان بن عثمان بن عفان، وإلى إبراهيم بن العباس الصولي، وإلى محمد ابن سعيد الكاتب، انظر شروح التلخيص ١: ٢٧٨، ديوان المتنبي بشرح البرقوقي

سَأشكر عمراً إن تـراخت مَنِيَّتي أيـادي لم تُمنن وإن هـي جَلّـت
فتىً غيرُ مَحجوب الغنى عن صديقه ولا مُظهر الشكوى إذا النعل زُلَّتِ

أو لأن في عدم التصريح احتياطاً ليس فيه، نحو: يفجر ويفسق.

أو لتكثير الفائدة، نحو قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[سورة يوسف الآية: ١٨]: أي آمرك أو امتثل، وقوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾[سورة النور الآية: ٥٣] أي: الذي يطلب منكم طاعة معروفة فعلاً، أو أمركم طاعة معروفة قولاً، بحسب تفسير المعروفة.

أو لأن الاستعمال وارد على تركه نحو: رميةٌ من غير رام؛ لئلا يفوت غرض الاستعارة.

أو لمجرد الاختصار نحو: نِعمَ الرجل زيد، على رأي، أو للمدح نحو: الحمد لله الحميدُ، أي: هو الحميد.

البحث الثاني: في إثباته:

وهو إما، لأن الخبر صالح لأن ينسب إلى كل أحد لانتفاء القرينة، والمراد تخصيصه بواحد، نحو: جاء زيد، قال:

اللهُ أَنجحُ مـــا طَلبتَ بـــه والبرُّ خير حقيبة الرَّجـــلِ

أو؛ لأن في ذكره تعظيماً، قال مروان بن أبي حفصة(١):

بَنُـو مَطَرٍ يـومَ اللقاءِ كَأَنَّهـم أُسودٌ لها في غِيـلِ خَفَّـانَ أَشبُلُ
هُمُ المانعـونَ الجـارَ حتى كَأَنَّمَا لجَـارِهِمُ فوق السِّماكَين مَنـزِلُ
هُمُ القومُ، إن قَالوا أَصابُوا وإن دُعُوا أَجَابوا، وإِن أَعطَوا أَصابوا، وأَجزَلُوا

أو استلذاذاً، قال قيس بن الملوح(٢):

بِالله يا ظَبيَاتِ القاعِ قُلنَ لنا لَيْلاَيَ مِنكُنَّ أم ليلى من البَشَرِ

وفي معناه قول أبي الطيب(٣):

=

١: ٣٤٤، الإيضاح ١١٠.

(١) شعر مروان بن أبي حفصة، جمع حسين عطوان ٨٨ دار المعارف ١٩٧٣.

(٢) نسبه صاحب الإيضاح إلى الحسين بن عبد الله ٢: ٥٣١.

(٣) الديوان ٤: ٢٧٤ من قصيدة يمدح فيها عضد الدولة.

أَسَامِياً لم تزده مَعْرِفةً وإنَّما لَذَّةً ذَكَرْنَاها

أو تنبيهاً على غباوة السامع، نحو قولك لعابد الصنم: الصَّنَمُ لا تَصَرُّفَ له.

أو لزيادة الإيضاح نحو قولك: زيد عندي، جواباً لمن قال أين زيد؟.

أو إهانة للمذكور نحو قولك: أنف الناقة عندنا، دلالة على ذم الملقب به.

أو بسط الكلام والمقام يقتضيه للاستصغاء نحو:﴿هِيَ عَصَايَ﴾[سورة طه الآية: ١٨].

البحث الثالث: في تعريفه وتخصيصه:

وذلك لأن يقصد الاعتداد بالفائدة، ولا شك أن الفائدة ولازمها حكم والتعريف يبعد الحكم عن الوقوع فإذا بعد عجَّب والمعجَّب مُعْتَدٌّ به، والبعد بحسب التخصيص، وزيادته لزيادته، فاعتبره في قولك: شيء ما موجود، وفلان بن فلان المسلم حافظ للتوراة والإنجيل وهو على وجوه:

أحدها: كونه مضمراً: إما حكاية، قال عمرو بن كلثوم[(١)]:

وَنَحنُ التَّارِكُونَ لِمَا سَخطنا ونَحنُ الآخذُونَ لِمَا رَضِينَا

وكُنَّا الأَيْمَنِينَ إذَا الْتَقَيْنَا وكَانَ الأَيْسَرِين بَنُو أَبِينَا

وإما خطاباً قال[(٢)]:

يا ابن الأكَارِمِ منْ عَدْنانَ قد عَلِمُوا وتَالِدُ المجد بين العم والخالِ

أنت الذي تُنزلُ الأيامَ مَنزِلَها وتُمسك الأرض من خَسْفٍ وزِلزَالِ

وإما غيبة والمسند إليه مذكور، قال أبو تمام[(٣)]:

بِيُمْنِ أبِي إسحاقَ طالت يدُ العُلى وقامت قناةُ الدينِ واشْتَدَّ كاهِلُهْ

هو البَحْرُ من أَيِّ النَّواحي أَتَيْتَه فلُجَّتُه المعروفُ والجودُ ساحِلُهْ

تَعوَّد بَسْطَ الكَفِّ حتى لَوَ انَّهُ ثَنَاهَا لقَبْضٍ لَمْ تُطعْهُ أَنَامِلُه

فَلَوْ لَمْ يَكُنْ في كَفِّه غيرُ روحِه لجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ اللهَ سائلُه

وقال الآخر[(٤)]:

(١) شرح القصائد السبع الطوال ٣٥٣.

(٢) نسبها أبو هلال إلى علي بن جبلة في مدح أبي دلف، انظر ديوان المعاني ١: ٢٨.

(٣) الديوان ٣: ٢٩.

(٤) ابن الرومي الديوان ١: ٣٠٧، ديوان المعاني ١: ١٣١.

أَرَى الصَّبْرَ مَحْمُوداً وفيه مَذَاهِبٌ فَكَيْفَ إذَا ما لم يكُنْ عَنْهُ مَذْهَبُ
هو المهربُ المُنجي لمن أحْدَقَتْ به مَكَارِهُ دَهْـرٍ لَيْسَ عَنْهُنَّ مَهْرَبُ

أو في حكم المذكور؛ لأن الذهن لا يلتفت إلى الغير، قال السيد الرضي:

هُمُ خَلَّفوا دَمْعِي طَلِيقاً وَغَادَرُوا فُؤَادِي عَلَى دَاءِ الْغَرَامِ حَبِيسَا

تكميل:

وقد يوضع المضمر موضع المظهر نحو: زيد عالم، وهي هند مليحة مكان الشأن والقصة ليتمكن في الذهن إجمالاً وتفصيلاً، وعليه قـوله تعالى:﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾[سورة الإخلاص الآية:١]، و﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ﴾[سورة الحج الآية:١٦] ونِعمَ رجلاً زيد.

وعكسه إما لزيادة التمكّن قال(١):

إنْ تَسْألوا الحقَّ نُعْطِ الْحَقَّ سَائلَهْ

وقال تعالى: ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾[سورة الإخلاص الآية:٢].

أو لإدخال الروعة في ذهن السامع فِعْلُ الخلفاءِ: أمير المؤمنين يرسم بكذا، أو لتقوية داعي المأمور قال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾[سورة النمل الآية: ٧٩]: ويفصح بعد الإضمار: إما للاستعطاف قال(٢):

إلهي عَبْدُكَ الْعَاصِي أَتَاكَ . مُقِرّاً بالذُّنُوب وَقَدْ دَعَاكَ

أو للتوصل إلى الوصف، قال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ﴾[سورة الأعراف الآية: ١٥٨]: بعد قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللهِ﴾[سورة الأعراف الآية: ١٥٨] استدراجاً.

أو لتعظيم شأن الأمر، قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾[سورة العنكبوت الآيتان: ١٩، ٢٠].

---

(١) قائله عبد الله بن عنمة، وتمامه:

والدرع محقبة والسيف مقروب

الإيضاح: ١٥٨.

(٢) القائل إبراهيم بن أدهم: عقود الجمان ١: ١٥٥.

ألا ترى كيف صرّح باسم الله في قوله: "على الله" ثم لما ثنّى بذكر الإبداء أضمره، فلما أعاد الإعادة أعاده مصرِّحاً وما ذلك إلا لأن أمر الإعادة عظيم عندهم.

أو للتنبيه على العلّية، قال تعالى: ﴿**فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾[سورة البقرة الآية: ٥٩] لأن نزول العذاب كان بسبب جراَتهم على الله وتمردهم، ويحتمل أن يكون لتعظيم ما اجترؤوا عليه من تبديل القول، قال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾[سورة التوبة الآيتان: ٢٥، ٢٦]: صرّح بذكر المؤمنين بعد الإضمار إعلاماً بأن صفة الإيمان مستأهلة النُّصرةَ، أو لأن الأمر عظيم وهو الانتصار بعد الفرار، وكذا جاء قوله: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ**﴾ [سورة النساء الآية: ٦٤]. للإيذان بأن شفاعة من اسمه الرسول من الله بمكان.

وربما يوضع المظهر موضع المضمر من غير لفظه السابق قال(١):

إذا ما دَعَوا كَيْسَان كانت كُهُولُهُم ... إلَى العَدْوِ أدنى من شَبَابهم المُرْد

وعليه قوله تعالى: ﴿**مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ**﴾[سورة البقرة الآية: ١٠٥] قال من ربكم، لأن إنزال الخير مناسب للربوبية، ثم أعاده بلفظ الله، لأن تخصيص بعض الناس بالخير دون بعض ملائم للألوهية، وقال (من خير) فعمّ ثم خصّه برحمته، ليعلم أن الخير كله في رحمته وإن أُريد بالخير الوحي، علم أن الوحي رحمة من الله على خلقه، ومنه من وجه قوله تعالى: ﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللهِ**﴾[سورة البقرة الآية: ٦٠] وضع الرزق موضع الماء كيلا يجتمع إرادة الحقيقة والمجاز معاً؛ لأن المراد منه المأكول والمشروب والقدر المشترك يجمعهما، وتحتمل الجمع بعد التقسيم على آخر.

تتميم: وقد وضعوا مكان ضمير الواحد ضمير الجمع: إما رفعاً لمكانة المخاطب وإظهاراً لأُبَّهته قال(٢):

---

(١) لم نقف على قائله.

(٢) لم نعثر على قائله.

بِأَيِّ نَوَاحِي الأَرض أبغي وِصَالَكُمُ . وَأَنتم مُلوكٌ ما لمقصدكُم نَحْوُ

وعليه مخاطبات الملوك، قال سليمان عليه السلام: ﴿**عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ**﴾[سورة النمل آية: ١٦].

أو تفخيماً لما أُوتي من النعم قال الله تعالى: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾[سورة الكوثر الآية: ١]: أو استرضاء لما حكم به قال تعالى: ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ**﴾[سورة الزخرف الآية: ٣٢]: أو تنـزيهاً عمّا لا يليق بالمتكلم قال: ﴿**إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً**﴾[سورة الكهف الآية: ٣٠] وقال الحماسي[١]:

إِنَّا بَني نَهْشَلٍ لا ندَّعِي لأَبٍ

وانظر إلى اختلاف الضمائر في قول الخضر -عليه السلام-: أردت وأردنا وأراد ربك، فإنه لما ذكر العيب أضافه إلى نفسه، والرحمة إلى الله تعالى، وعند القتل عظم نفسه تنبيهاً به على أنه من العظماء في علوم الحكمة.قاله الإمام – رحمه الله[٢].

ومن الأسلوب وَصْفُ الواحد بالجمع، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا**﴾[سورة النمل الآية:١٢٠] أي: كان وحده أمة من الأمم في جميع صفات الكمال، وقوله تعالى: ﴿**شِهَابًا رَّصَدًا**﴾[سورة الجن الآية: ٩] نـزل الواحد وهو الموصوف منـزلة الجمع لوصفه به إظهاراً لكمال حفظه وقول الشاعر:

وَمِعاً جياعا

جعل كل مكان من أمكنة المِعا بمنـزلة مِعاً واحدٍ، مبالغةً في الجوع، ومن الباب الالتفات.

الثاني: كونه علماً: وهو إما لإحضاره ابتداء بما يخصّه قال:

الله يعلم ما تركت قتالهم . حتى عَلَوْا فرسي بأشقر مزبد

وقوله تعالى: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ**﴾[سورة المسد الآية: ١].

---

(١) قائله أبو مخزوم من بني نهشل بن دارم وهو بشامة بن حزن النهشلي، وتمامه:

عنه ولا هو بالأبناء يشرينا

الكامل ١: ٦٦.

(٢) الإمام هو الفخر الرازي.

أو لما فيه من تعظيمه كالأسامي المحمودة قال الصابي[١]:

إِنْ كُنْتُ خُنْتُكَ فِي المَودَّةِ سَاعَةً … فَذَمَمْتُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْمَحْمُودَا

وقال أبو القاسم المستوفي في السلطان يمين الدولة:

ما الذي غرّكم بمحمودِ المحمود اتجاؤه بكل لسانِ

بأبي القاسم المعظم ظلِّ الله في الأرض صفوة المنّانِ

أو إهانته كقوله تعالى: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ**﴾ أي: جهنمي، أو استلذاذه وافتخاره قال[٢]:

وما سَاءَنِي ذِكْرَاكَ لِي بِمَسَبَّةٍ … بَلى سَرَّنِي أَنِّي خَطَرْتُ بِبَالِكِ

والثالث: كونه موصولاً: وهو أن يَحْضُر بسبب جملة معلومة الانتساب، إما لأن لا تعلمَ أنت غيرَ ذلك فتقول: الذي كان معك أمس لا أعرفه، أو مخاطبك، فتقول: الذي كان معنا أمس رجل عالم، أو لا تعرفانه، فتقول: الذين في بلاد الشرق لا نَعرفهم، أو لزيادة التقرير قال تعالى: ﴿**وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا**﴾ [سورة يوسف الآية: ٢٣] عدل عن اسم زليخا زيادة لتقرير المراودة، وقال الفرزدق يخاطب هشاماً[٣]:

أَتَحْبِسُنِي بَيْنَ المَدِينَةِ والتي … إِلَيْهَا رِقَابُ النَّاسِ يَهْوِي مُنِيبُها

أي مكة، وإنما عدل زيادة للإنكار مشيرا إلى أن هذا المكان لا يصحّ إلا للإنابة والخضوع لا التَّجبُّرِ والعدوان، ومنه قوله تعالى:﴿**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾[سورة البقرة الآية: ٢] الآية، عدل عن المؤمنين إليه للعلة.

أو لاستهجان ذكره، وله صفة كمال كقولك فيمن اسمه فقير الذي يعلم الفقه رجل نبيه، وإليه يلمح قوله تعالى:﴿**وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ**﴾[سورة النساء الآية: ١٥٧] حكى الله قول اليهود، فوضع الذكر الحسن مكان

---

(١) إبراهيم بن هلال الصابي وبعده:

وزعمت أن له شريكاً في العلا … وجحدته في فضله التوحيدا!

قسماً لو أني حالف بغموسها … لغـريم ديـن ما أراد مزيدا

اليتيمة ١: ٣٥، والإيضاح ٢: ٤٩٦.

(٢) القائل بديع الزمان الهمذاني، زهر الآداب ٣٠٩.

(٣) الديوان ٢١، المستشرق جيمي دساير، الديوان صادر جـ١ ص ٤٧.

ذكرهم القبيح؛ رفعاً لمنــزلته، ونعياً عليهم سوء صنيعهم، يعني انظروا إلى هؤلاء الحمقى كيف نسبوا القتل والسب إلى مَنْ هو عند الله بمكانة من الرسالة والنباهة.

أو للتفخيم قال تعالى:﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[سورة طه الآية: ٥٨] وقال:

وكانَ مَا كان مِمَّا لستُ أَذْكُرُه فَظُنَّ خَيْراً ولاَ تسألْ عن الخبرِ

أو أن تومئ إلى وجه بناء الخبر الذي تبنيه عليه، وذلك بأن يؤتى بالصلة على وجه يعرف منه وجه بناء الخير على سبيل الإرصاد كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[ســورة غافر الآية: ٦٠] ثم يتفرع عليه اعتبارات، ربما جعل ذريعة إلى التعريض بالتعظيم نحو الذي يوافقك يستحق الإجلال والرفع، أو بالإهانة نحو الذي يرافقك يستحق الإذلال والصفع، أو إلى تحقيق الخبر قال[1]:

إِنَّ التي ضَرَبَتْ بيتاً مُهَاجِرةً بكوفَةَ الجند غَالَت وُدَّها غولُ

أو إلى تعظيمه قال[2]:

إِنَّ الذي سَمَكَ السماءَ بَنَى لنا بَيتــاً دَعــائِمُه أَعَــزُّ وَأَطْولُ

أو إلى التنبيه على الخطأ، قال الشاعر[3]:

إِنَّ الَّذين تَرَوْنَهم إِخْوَانَكُم يَشْفِي غَلِيلَ صُدُورِهم أن تُصْرَعُوا

أو إلى التسلية قال أبو العلاء[4]:

إِنَّ الذي الوَحْشَةُ في دَارِهِ تُؤْنِسُهُ الرَّحْمَةُ في لَحْدِهِ

أو التشويق إلى الخبر قال أيضاً[5]:

والَّذِي حارت البَرِيَّةُ فِيهِ حَيَوانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِن جَمَادِ

والاستشهاد به هنا أوقع منه في باب تقديم المسند إليه لما أن التشويق المستحسن

(١) البيت لعبدة بن الطبيب ذكر صاحب الإيضاح ١١٧.

(٢) الديوان ١٥٥.

(٣) البيت لعبدة بن الطبيب -الإيضاح ١١٦.

(٤) سقط الزند تصحيح أحمد الزين.

(٥) سقط الزند ١٢ من قصيدته المشهورة

غير مجد في ملّتي واعتقادي نوح باكٍ ولا ترنم شاد

إحدى خواص الإخبار بالذي؛ لما فيه من الإبهام الذي هو سبب للتشويق، وتطويله بالصلة هو سبب استحسانه على أنه مستلزم للتقديم، والبيت مشتمل على ما ذكرنا مع ما يترقى به ذلك الحسن إلى أعلى درجاته من الإيماء إلى أن الخبر أمر قد عمّ التعجب في شأنه؛ ولأن ثَمَّة لمجرد التقديـــم، وذلك ليس بكافٍ في تشويق الخبر كما إذا قلت: زيد صدوق.

والرابع: كونه اسم إشارة وذلك لبيان حال المشار إليه المحسوس في قربه وبعده وتوسطه، ثم يتفرع عليه اعتبارات، مثل: أن يقصد به أكمل تمييز، قال الفرزدق في زين العابدين رضي الله عنه[1]:

هَذَا الَّذي تَعْرِفُ البَطْحاءُ وَطْأَتَه والبيتُ يَعْرِفُه والحلُّ والحَـرَمُ

هـــذا ابنُ خيرِ عبادِ اللهِ كُلِّهـــمُ هذا التقيُّ النَّقيُّ الطَّاهِرُ العَلَـــمُ

أو أن ينبّه به على غباوة السامع وأنه لا يميز الشيء إلا بالحس، قال الفرزدق يخاطب جريراً[2]:

أُولَئك آبائي فَجِئني بمِثْلِهم إذا جَمَعَتنا يا جريرُ المجامـــــعُ

أو على كمال فطانته وبعد غور إدراكه بأن غير المحسوس بالتَّبصُّر عنده كالمحسوس عند غيره، قال أبو العلاء:

سَطَوْتَ فَفِي وَظِيفِ الصَّعْبِ قيدٌ بِذَاكَ وَفِي وَتِيرِيْه عِـــــــرَانُ[3]

إن الإشارة بذاك إلى صنيع العرب من الاستعصاء والتمرد، وقيل: إلى السطو، والأول أوجه، وأن قولي به إلى أنه ظاهر جليّ لا يخفى على كل ذي بصر وبصيرة، وقال بعض العارفين:

لِلَّه تحتَ قِبَاب العزِّ طائفَـــةٌ أَخفَاهُـــمُ في رِدَاءِ الفَقْرِ إجْلالا

هُمُ السَّلاطِينُ في أَطْمارِ مَسْكَنَة اسْتُعْبِدوا مِنْ مُلُوكِ الأَرْضِ إِقْبَالا

غُبرٌ ملابسُهم شُمُّ مَعَاطِسُهـــمْ جَرُّوا عَلَى فَلَكِ الْخَضْرَاءِ أَذْيَالا

---

(١) الديوان ٢٠٥.

(٢) الديوان ١٣٨.

(٣) سقط الزند ٢٤، الوظيف: مستدق الذراع والساق، الصعب: نقيض الذلول، الوتيرة: الغرة في وجه الفرس، العرن: ما في اللجم فوق الأنف.

هَذِي الْمَنَاقِبُ لا قَعْبانُ[١] من لَبَن شيبَـا بمَـاء فَعَادَا بَعْدُ أبْوالا
هذي المكارمُ لا ثَوْبَانِ مـن عَدَنٍ خيطَـا قَميصاً فَعَـادَا بـعْدُ أثْمَالا

أو بقصد ادّعاء أنه ظهر ظهور المحسوس بالبصر قال[٢]:

تعَالَلْت كَيْ أشجَى وَمَا بك علَّةٌ تُرِيدين قَتْلي قَدْ ظَفرت بذَلك

أو اختصّ بحكم، برفع الشأن فلا يغيب عن الخاطر فكأنه نصب عينه، قال ابن الراوندي:

كَمْ عاقلٍ عاقل أَعْيَتْ مذاهبُـهُ وجاهـلٍ جاهـلٍ تلْقَاهُ مَرْزُوقـا
هَذَا الَّذي تَرَكَ الأَوْهَـامَ حَائـرَةً وصَيَّر العالَمَ النِّحْرِير زِنْديقـا

أذهب الله عمى قلبه فهلاّ قال كقوله:

كَمْ مِنْ أديبٍ فَهِمٍ قَلْبُهُ مُسْتَكْمِلِ العقلِ مُقِلٌّ عديمْ
ومِـنْ جَهُـولٍ مُكْثِرٍ مَالُهُ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيـمْ

أو يقصد بقربه إلى تحقيره كما قالت عائشة- رضي الله عنها: يا عجباً لابن عمرو هذا[٣]. وكما يحكيه تعالى عن الكفار:﴿مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾[سورة البقرة الآية:٢٦] ومنه ﴿وَمَا هَذه الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾[سورة العنكبوت الآية:٦٤] وكما يحكيه القائل عن امرأته:

تَقُولُ ودقَّتْ نَحْرَها بِيَمينهَـا أَبَعْلِيَ هَذَا بالرَّحَى الْمُتَقَاعسُ[٤]؟

أو ببعده إلى تعظيمه، قال تعالى: ﴿الم * ذَلكَ الْكتَابُ﴾[سورة البقرة الآيتان:١، ٢] والمشار إليه اسم السورة ذهاباً إلى بُعْده درجةً، وقال تعالى:﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكتَابَ الَّذينَ اصْطَفَيْنَا منْ عبَادنَا فَمنْهُمْ ظَالمٌ لِّنَفْسه وَمنْهُم مُّقْتَصدٌ وَمنْهُمْ سَابقٌ بالْخَيْرَات بإذْن الله ذَلكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبيرُ﴾[سورة فاطر الآية:٣٢] ليس المشار إليه بقوله ذلك السبق

---

(١) القعبان: مثنى قعب: وهو الإناء الغليظ، شيبا: خلطا.
(٢) البيت لعبد الله بن الدمينة الشاعر الغزلي، والدمينة أمه، واسم أبيه عبد الله بن عبيد الله أحد بني عامر بن تيم ويكنّى أبا السري، أخباره في الأغاني ١٨ والشعر والشعراء، والعقد الفريد وغيرها والبيت مذكور في الإيضاح ١٥٥.
(٣) تقصد بالإشارة عمرو بن العاص.
(٤) البيت للهذلول العنبري ويخلع الاحتراس بالجملة الاعتراضية في البيت (وصكت صدرها) جمالاً من خلال الحركة التخيلية، الحماسة ١: ٢٨٩ بشرح التبريزي، والإيضاح: ١٢٠.

بالخيرات، كما ذهب إليه جار الله لئلا يختصّ الفضل والثواب به، بل معنى الإيراث والاصطفاء لَيَعُمَّا بهم فيسلم النظم عن الانفكاك.

أو إلى طرده كما تقول: إبليس ذلك اللعين، وقوله تعالى:﴿**فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ**﴾[سورة الماعون الآيــة: ٢].

أو يقصد به التهكم، كقولك للأعمى: هذا زيد، وللإشعار بأن ما قبله جديرٌ بما بعده لما عَدَّدْتَ من خصال، قال حاتم(١):

ولله صعلوكٌ يُساوِرُ هَمَّهُ ويَمْضي عَلَى الأَحْدَاثِ والدهرِ مُقْدِمَا

فعدّد له خصالاً فاضلة ثم عقبها بقوله:

فَذَلِك إنْ يَهْلِكْ فَحَنْيُ ثَنائه وَإنْ عاشَ لم يَقْعُد ضَعيفاً مُذَمَّمَا

وعليه قوله تعالى:﴿**أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[سورة البقرة الآية: ٥] بعد قوله:﴿**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ**﴾ الآية.

الخامس: كونه معرّفاً باللام: وذلك إما للإشارة إلى نفس الحقيقة من حيث هي هي، نحو: الرجل خير من المرأة، وقوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾[سورة الأنبياء الآية: ٣٠] وقول المعري(٢):

والخِلُّ كَالْمَاءِ يُبْدِي لِي ضَمَائِرَهُ مَعَ الصَّفَاءِ ويُخْفيها مع الكَدَرِ

ومن حيث شمولها لجميع أفرادها كقوله تعالى:﴿**إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ* إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا..**﴾[سورة العصر الآيتان: ٢، ٣].

وهو إما حقيقي، نحو: ﴿**عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**﴾[سورة المؤمنون الآية: ٩٢] أي: كل غيب وشهادة، أو عُرْفِيٌّ نحو: جمع الأمير الصاغة، أي صاغة بلده، ولاحتمال الاستغراق العرفي آكد في قوله تعالى: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾[سورة البقرة الآية: ٣١] وفي المفرد أشمل نحو: ﴿**إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي**﴾[سوزة مريم الآية: ٤] دون العظام لجواز بقاء البعض؛ لأن الجنسية في المفرد قائمةٌ في وجدانه، فلا يخرج منه شيء، وفي الجمع فيما فيه الجنسية من الجموع، فيخرج منه عظم أو عظمان على الخلاف.

---

(١) البيت الأول بالديوان ٨٣ شرح إبراهيم الخريني بيروت ١٩٦٧.

(٢) سقط الزند ٥٨.

ومن ثم قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن دلالة قراءة كتابه في قوله تعالى: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾[سورة النساء الآية: ١٣٦] أكثر من كتبه، وقال الشيخ: قولك:لا رجال في الدار يصدق، إذا كان فيها رجل أو رجلان، بخلاف قولك:لا رجل فيها.

أو من حيث حصولها في بعض فمعهود ذهني إن كان غير معين نحو قولك ابتداءً: دخلت السوق في بلد كذا، وهي قرية من النكرات، قال(١):

ولقد أمر على اللئيم يسبني ....

وعليه قوله تعالى في وجه:﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[سورة الفاتحة آية: ٧].

وخارجي إن كان معيناً، وهو إما تحقيقي، كقوله تعالى:﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾[سورة المؤمنون الآيتـان: ١٣، ١٤] أو تقديري، كقوله تعالى:﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى﴾[سورة آل عمران الآية: ٣٦]بعد قوله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾[سورة آل عمران الآية: ٣٥] لاستلزام المحرر الذكر، ومنه قولك لمن قال: شَتَمَكَ فلانٌ: أو قد فعل السفيه؟ لدلالة الشتم عليه.

وقد تكون الصفة مقدّرة في شخص، فكلما ذكر بَادرَتْ إلى الذهن كقوله تعالى:﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾[سورة البقرة الآية: ١٣] فإن المؤمنين عندهم على السفاهة، وقد يجيء من غير جَرْيِ ذِكْر، نحو قولك: أَغْلِق البابَ أيّها الرجلُ للحاضر المشاهد للباب، واعلم أن المعرّف باللام إذا أُعيد كان إياه، كما في قوله- تعالى-: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا* إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[سورة الانشراح الآيتان: ٥، ٦] لأن التعريف فيه إما للعهد وهو العسر الذي كانوا فيه فهو هو، أو للجنس الذي يعلمه كل أحد العسر ما هو فهو هو، وأما اليسر المنكر فمتناول لبعض

---

(١) تمام البيت:

فمضيت ثمت قلت لا يعنيني

ويذكره صاحب الكامل برواية أخرى و لم ينسبه لقائل:

ولقـد أمـر على اللئيم يسـبني فـأجـوز ثـم أقـول لا يعنيني

انظر الكامل في اللغة والأدب جـ٢ ص ٧١ وقائل البيت عميرة بن جابر الحفصي، الإيضاح ص ١٢٣.

الجنس، فإذا أُريد استئناف الكلام دون التكرير، تناول الثاني بعضاً غير الأول.

واعلم أن المختار عند الشيخ[١] أن اللام موضوعة لتعريف العهد، لا غير، وأن المراد بتعريف الحقيقة أحد قسميه، وهو تنـزيلها منـزلة المعهود بوجه خطابي وذلك إما؛ لأن الحاجة إليها ماسّة نحو: الدينار خير من الدرهم، أو أنها عظيم الخطر نحو: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾[سورة الأنعام الآية: ٨٩] أو جارٍ على الألسن نحو: نِعمَ الرجل، أو أن أسباباً في شأنها متآخذة قال[٢]:

يُذَكِّرْنيكَ الْجُودُ والْبُخلُ والنُّهى ... وقَوْلُ الْخنَا والْعلمُ والحلمُ والْجَهْلُ
فَأَلْقَــاكَ عَــن مَذْمُومِها مُتَنَــزِهاً ... وأَلْقَاك فِي مَحْمُودِهَا ولَكَ الفَضْلُ

ثم إنها من حيث هي هي صالحة للتوحد والتكثر؛ لاجتماعها مع كل واحد منهما، فإذا اجتمعت مع المفرد أو الجمع في المقام الخطابي؛ حملت على الاستغراق نحو: المؤمن غِرٌّ كَرِيمٌ والمنافق خِبٌّ لئيم، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا صَّالِحَاتِ﴾[سورة البقرة الآية: ٨٢] وفي الاستدلالي على أقل ما ينطلق وهو الواحد في المفرد والثلاثة في الجمع، وجار الله حمل التعريف في (الحمد لله) على العهد الذهني ليثبت بعض الحمد لله -تعالى- وهو وهم؛ لأن الصفات التالية جاريةٌ على العموم ومستدعيةٌ عمومَ الحكم المترتب عليها؛ والمعنَى: من كانَ رباً للعالمين من الملائكة والثقلين وغيرهما، مولياً للنعم كلها جلائلها ودقائقها، ظاهرها وباطنها، فكل الحمد لم يكن إلا له كما قال، وهذه الأوصاف التي أُجريت على الله -سبحانه وتعالى- دليل على أن من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحقّ منه بالحمد، ولله درّ القائل قولك: زيد حسن الوجه وصف لزيد وحمد لِبَارِيه إذْ كل حُسْن صنيعُ جمال فِطْرَتِه، وكل مُحسن رضيع لبان نعمته، وقيل:الفرق بين مدلول لام الحقيقة، كقولك: حدث الضرب، وبين مدلول الاسم الموضوع لها، كقولك: ضربت ضرباً، هو أن الاسم لها لا لتعيينها، واللام لتعيينها.

---

(١) يقصد بالشيخ السكاكي - الإيضاح ص ٢٨.

(٢) البيتان لمسلم بن الوليد (صريع الغواني) وبعدهما:

وأحمد من أخلاقك البخل إنه ... بعرضك لا بالمال حاشا لك البخل

أمالي المرتضى، ص ٥٣٤، والديوان ٣٣٢ تحقيق سامي الدهان - دار المعارف بمصر.

السادس: كونه مضافاً: وهو إما؛ لأن الإضافة متعينة ولا طريق سواها، نحو: غلام زيد، أو لكونها، أخصَر قال(١):

هَوَايَ مع الرَّكْبِ اليَمَانيين مُصْعَدُ   جَنِيبٌ، وجُسْمَانِي بِمَكَّة مُوثَقُ

فإن هواي أخصَر من نحو قولك: الذي قلبي إليه مائل.

أو، لأن يستغنى بها عن التفصيل المتعذر، قال حسان(٢):

للَّـــه دَرُّ عِصَابَـــة نَادَمْتُهم   يَوْمًا بجلّقَ في الزَّمَـــان الأول

أولادُ جَفْنَةَ حَوْلَ قَبْرِ أبيهمُ   قبرِ ابنِ مارِيَةَ الكريم المُفَضـــلِ

أو أن يومئ بها إلى اعتبار مجازي قال:

إذَا كَوْكَبُ الخَرقاءِ لاحَ بِسُحْرة   سهيلٌ أذاعَتْ غزْلَهَا في القَرَائِب

أو إلى تشريف المضاف نحو: روح الله، وبيت الله، ومنه عبد الخليفة حضر، أو المضاف إليه، نحو: عبدي حضر، أو الثالث نحو عبد الخليفة جاءك، أو لأن تحرص بها على مطلوبك، نحو حبيبك بالباب، ومنه قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ**﴾[سورة الناس آية:١- ٣] أرشدهم سبيل الالتجاء إلى والى أمورهم من شر عدوهم على الترقي؛ لتقوية داعية المغيث، كما يستغيث بعض الموالي إذا اعتراه خطب إلى سيده.

السابع: كونه موصوفاً: والصفة إما كاشفة نحو: الجسم الطويل العريض العميق يحتاج إلى حيز، وقوله:﴿**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾[سورة البقرة الآيتان: ٢، ٣] فكشف عن المتقي بأنه الذي يفعل

---

(١) قائله جعفر بن علبة بن ربيعة الحارثي، ويكنى أبا عارم، وهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وهو شاعر مقل غزل، له ترجمة في الأغاني جـ ١٣ ص ٤٥٥٧ والبيت من مقطوعة قالها وهو محبوس قبل أن يقتل، ومنها:

عجبت لمسراها وأنى تخلصت   إليّ وباب السجن بالقفل مغلق

ألّمت فحيّت ثم قامت فودعت   فلما تولت كادت النفس تزهق

والبيت المذكور في الإيضاح ١٢٥.

(٢) الديوان ص ٣٦٤، ص٣٦٥. جلق: دمشق، أولاد جفنة: ملوك آل غسان، وهو جفنة بن عمرو.

الواجبات ويحترز عن المنهيّات، كأنه حَدُّه؛ لأن مِنْ شأن هذه الصفات استجرار سائر الطاعات، وحمل فاعلها على الاجتناب عن المحظورات: إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وإما مادحة، نحو: صفات الله الجارية عليه، وقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ في وجه آخر وهو أن يُراد بالمتقين الموصوفون بالتقوى وتخصيص المذكورات لإنافتها على سائر الحسنات.

أو مخصصة، نحو: زيد التاجر عندك وقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الآية، في وجه ثالث، ويراد بالصفة الدلالة على الطاعات ليس إلا، وبالمتقين المجتنبون عن الشرك لا غير.

أو مؤكدة، نحو: أمس الدابر لا يعود، وقوله: ﴿نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [سورة الحاقة الآية: ١٣] على رأي.

واعلم أن من حق الصفة أن تكون معلومة التحقيق للموصوف عندك وعند السامع؛ لأنها مميزة، ويمتنع أن يميز شيء بما لا يعرف، ومتحققة في نفسها؛ لأن تحققها للغير فرع تحققها في نفسها، والموصوف كذا؛ لأن ثبوت الشيء للشيء فرع ثبوته في نفسه، فإذن يمتنع مجيئها إنشائية، وأما نحو قوله تعالى:﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ﴾ [سورة الأنفال الآية: ٢٥] وقوله(١):

جاءوا بِمَذْقٍ هَلْ رَأَيْتَ الذِّئبَ قطّ ....

فقيل: تقدير مقول عنده ﴿لاَ تُصِيبَنَّ﴾ و"هل رأيت"، وقراءة ﴿مَن فِرْعَوْنَ﴾ على الاستفهام صفة للعذاب في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ مِن فِرْعَوْنَ﴾ [سورة الدخان الآية: ٣٠] لبيان شدّته، والخبر كالصفة؛ ولذلك نؤول قولنا: زيد اضربه أو لا تضربه، أما المصدر الذي وقع صفة أو خبراً فيجعل نفس الموصوف أو المخبر عنه مبالغة، قالت الخنساء(٢):

تَرتَعُ مَا رَتَعتْ حَتّى إِذَا ادّكَرَتْ فَإنَّمَا هِيَ إقْبَالٌ وإدْبَارُ

جعلت الناقة نفس الإقبال والإدبار لكثرة ترددها تأسفاً، وعليه قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ [سورة البقرة الآية: ١٨٩] في وجه.

---

(١) قائله العجاج بن رؤبة.

(٢) الديوان ص ٥٠ وفي البيت وما قبله تتحدث عن حزنها على أخيها.

الثامن: كونه مؤكداً: لئلا يظن بالحكم التجوّز نحو: عرفت أنا، أو ليقصد به الشمول نحو عرفني الرجال كلهم، ومنه كل إنسان حيوان؛ لأنه في المعنى الإنسان كله حيوان، قدم لينبّه على الشمول ابتداء، ومنه قول جار الله في قوله تعالى: ﴿**وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ**﴾ [سورة الزمر الآية: ٦٧] أتبع الجميع مؤكدة قبل مجيء الخبر ليعلم من أول الأمر أن الخبر الذي يرد لا يقع عن أرض واحدة، ولكن عن الأراضي كلهنّ، فآذن بكونه غير قارٍّ في مكانه؛ لشدة الاهتمام وإزالة الإبهام في بدء الكلام.

التاسع: في كونه مبيّناً: وهو للإيضاح، نحو: صديقك خالد قدم، ولفظة إلهين في قوله: ﴿**لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ**﴾ [سورة النحل الآية:٥١] تدل على الإلهية والعدد، فلو اكتفى بها لتوهم تناول النهي كليهما معاً، فبيَّن بقوله: "اثنين" أن النهي عن إثبات التعدّد لا للإلهية، ومنه من وجه قوله تعالى:﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ**﴾ [سورة الأنعام الآية: ٣٨] فإن قيدي في الأرض ويطير بجناحين لبيان إرادة المتعارف منهما دفعاً لتوهم غير المتعارف من قوله: ﴿**إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم**﴾ [سورة الأنعام الآية: ٣٨] فهو تأكيد على سبيل البيان فيوافق قول جار الله معنى ذلك، زيادة التعميم والإحاطة،وهو الذي نعنيه بقولنا من وجه.

العاشر: في كونه مبدلاً لإرادة تكرير الحكم: وذكر المسند إليه بعد توطئة ذكره لزيادة التقرير، وفائدته المبالغة، كما في قوله تعالى:﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾ أبدل؛ ليكون شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه؛ لأنه إذا طرق السمع أولاً مبهماً، ذهب بالسامع كل مذهب، وإذا عقب بالتفسير، تمكن عنده فضل تمكن، كأنه -تعالى- قال: مَن أراد طريقاً جامعاً لأنواع الخير فعليه بصراط المسلمين [فإنه العلم المشار إليه المتقون لذلك من غير مدافع ولا منازع.

الحادي عشر: كونه معطوفاً: وذلك لأن يستغنى به عن الإطناب، نحو: جاء زيد وعمرو أو فعمرو أو ثم عمرو، وقوله تعالى: ﴿**الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ**﴾[سورة الشعراء الآيات: ٧٩ - ٨١] نسق -أولاً- بالواو للجمع على طريقة كلوا واشربوا، وثانياً: بالفاء لكون الشفاء يعقب المرض بلا مهلة، وثالثاً: بثم لتراخي الإحياء عن الإمَاتة، وقد يخرج لا على مقتضى الظاهر، قال تعالى: ﴿**فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي**

مَسْغَبَة * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَة * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَة * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[سورة البلد الآيات: ١١-١٧] أُريد بثم تراخي رتبة (الإيمان وفضيلته) على (العتق والصدقة) لا تراخي الوقت؛ لأن الإيمان هو السابق، وقوله:﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [سورة الكهف الآية: ٥٧] عنى بها الاستبعاد، أي أن: الإعراض في مثل آيات الله العظمى في وضوحها وإرشادها بَعْد التَذكُّرِ بها مُستبعدٌ في العقول، كما تقول لصاحبك: وجدتَ مثل تلك الفرصة، ثم لم تنتهزها؟ وقال تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾[سورة المؤمنون الآية:١٤] عطف بحرف التعقيب؛ ليؤذن أن مثل هذه الأمور العجيبة التي من حقها أن لا تتأتى إلا في زمان أكثر مما هي واقعة فيه كالمتعاقبة، وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[سورة الصافّات الآية: ١٤٧] إشارة إلى أنهم بلغوا في الكثرة حيث تُشكِّك رائيها، وأما قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [سورة النساء الآية: ٣] فعلى ظاهره؛ لأن الخطاب مع سائر الأمة بأن يأخذ كلٌّ من الناكحين على طريق الجمع اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة، فلو جيء بأو لرجع إلى أن ليس لهم أن ينكحوا إلا على أحد أنواع هذه القسمة.

الثاني عشر: في اقتضائه ضمير فصل: وهو إذا كان المراد تخصيص المسند بالمسند إليه أو عكسه، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[سورة لقمان الآية: ٥] إن أُريد باللام العهد، كان المعنى المتقون هم الناس الذين بلغك فلاحهم دون غيرهم، وإن أُريد الجنس، كان المعنى المتقون هم الذين إن تصورت صفة المفلحين وتحققوا ما هم، فهم هم الذين لا يَعْدُون تلك الحقيقة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾[سورة الأنعام الآية: ١١٩] في الأول، أي: هذا العلم مخصوص به، وقوله تعالى(١): ﴿أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾[سورة التوبة الآية: ١٠٤] معناه من شأنه قبول توبة التائبين.

البحث الرابع: في كونه منكرا وذلك إما لقصد الإفراد: شَخْصاً قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ﴾[سورة يس الآية: ٢٠]، أو نَوْعاً قال تعالى: ﴿وَعَلَى

---

(١) والآية: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[سورة البقرة الآية: ٧] وهي التعامي عن الآيات، وأما قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ**﴾[سورة النور: الآية ٤٥] فيحتمل النوعين، أي: كل فرد معين من ماء معين، وهو النطفة المعينة، أو كل نوع منها من نوع من المياه؛ أو لأن نفس الحقيقة غير معلوم إلا ذلك القدر، وهو أنه رجل؛ وذلك إما لأنه كذلك، أو للتجاهل: نحو قولهم: ﴿**هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ**﴾[سورة سبأ الآية: ٧] كأنهم لم يكونوا يعرفون منه إلا أنه رجل ما، أو لتقليل مقداره نحو قولك عنده شمَّةٌ من العلم تحقيراً، وعليه قوله تعالى: ﴿**وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا**﴾[سورة الأنبياء الآية: ٤٦] فإن مقام المبالغة يقتضي الاستقصاء فيما أمكن من إرادة التحقير، في نفس الكلمة والبناء والتنكير، ومن ثم ضمّ إليها المسّ، وقوله تعالى: ﴿**وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ**﴾[سورة النور الآية: ٧٢] أي: قدر يسير منه خير من الجنان تعظيماً، أو لتعظيم شأن الأمر قال تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾[سورة البقرة الآية: ١٧٩] أي: لكم في هذا الجنس من الحكم حياة عظيمة بأن لا يقتل جماعة بواحد، أو ليكثر مقداره، نحو قولك: إن له لإبلاً وإن له لغنما، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ لَنَا لأَجْرًا**﴾[سورة الأعراف الآية: ١١٣].

ومثال التعظيم والتحقير قول القائل(١):

لَهُ حَاجِبٌ عَنْ كُلِّ أَمْرٍ يَشِينُه وَلَيْسَ لَهُ عَنْ طَالِبِ العُرْفِ حاجِبُ

وإنما لم يذهب إلى نفي الجنس؛ لأمرين: لمراعاة التطابق بين التعظيم والتحقير؛ ولأن نفي الشيء مع الصفة في مقام نفيه أبلغ من نفيه وحده، كما ستقف عليه في قوله:﴿**وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ**﴾[سورة غافر الآية: ١٨] وعليه قول نوح عليه السلام جواباً لقولهم: ﴿**إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ**﴾ [سورة الأعراف الآية: ٤]﴿**لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ**﴾ أي: ضلالة نــزيرة، قال جار الله كما لو قيل ألك تمر؟ قلت ما لي تمرة. ومثال التعظيم والتكثير معاً قوله تعالى: ﴿**فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ**﴾[سورة فاطر الآية: ٤] أي: رسل ذوو عدد كثير وآيات عظام وأعمار طويلة.

---

(١) قائله ابن أبي السميط وهو من أبيات الإيضاح جـ ١ ص ١٢٧. ونسب إلى أبي السميط نفسه وإلى أبي الطمحان.

البحث الخامس: في كونه مقدماً، إما: لأنه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه؛ ولأنه متضمن للاستفهام أو لإظهار التشويق إلى الخبر، نحو صديقك الفاعل الصانع صدوق، ونحو: الذي هو سرّني خبر مقدمك بدل خبر مقدمك سرّني وهو إحدى خواص تراكيب الإخبار بالذي، ومنه ضمير الشأن والقصة، أو لإرادة تقوّي الحكم، أو للتفاؤل نحو سعيد بن سعد في داري، وعكسه سَفَّاك بن الجراح في داره؛ أو لأن الكلام فيه كما إذا كان المطلوب اتصافه بالخبر، نحو: الزاهد يشرب ويطرب لا نفس الخبر أي لا وقوعه مطلقاً وإن كان أحدهما مستتبعاً للآخر، ويعضده ما قال الإمام، وقد يتصور في الفعل أن يكون المراد وقوعه من الفاعل، وأن يكون مجرد اتصافه به، وعليه قوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[سورة يس الآيتان: ٣، ٤] قال جار الله: ليس الغرض بذكر "**على صراط مستقيم**" التمييز، وإنما الغرض الوصف، أو لزيادة التخصيص قال[1]:

متى تَهْزُزْ بني قَطَنٍ تَجدْهم سيوفا في عَوانقهمْ سُيُوفُ
جـلُوسٌ في مَجَالسهـم رِزَانٌ وإنْ ضَيْفٌ أَلَم فَهُم خُفُـوفُ

أو ليوهم أنه لا يزول عن الخاطر نحو: ليلى يُسَرُّ القلبُ بذكرها، أو للتعظيم نحو: ﴿**اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [سورة النور الآية: ٣٥].

أو للدلالة على العموم قال صلوات الله عليه في حديث ذي اليدين[2] "**كل ذلك لم يكن**" بعدما قال: "**أقصرت الصلاة أم نسيتها؟**"، ولم يقل: (ولم يكن كل ذلك)؛ لئلا يتوهم أنه كان أحدهما، والفرق بينهما يعلم مِنْ مَسْأَلة (أنت لا تكذب)، وقال[3]:

قَد أَصبَحت أُمُّ الخيار تَدَّعِي عَلَيَّ ذنباً كُلُّهُ لَمْ أَصْنَعِ

إذا روي كله مرفوعاً، والنصب يخرجه إلى نَفْيِ العموم، ولا يتنافى إثباته للبعض، كما سيعلم من باب التقديـــم.

---

(١) جاء البيتان في ديوان المعاني دون نسبة، وقافية البيت الثاني "وقوف" ديوان المعاني جـ١ ص ٣٤.

(٢) سنن أبي داود - كتاب الصلاة ٣٦٦، ٣٦٧.

(٣) البيت لأبي النجم الفضل بن قدامة العجلي: أسرار البلاغة ٣٦٠ - الإيضاح ص ٩٩، ت. خفاجي.

باب في المسند

وفيه أبحاث:

الأول: في كونه متروكاً، وهو إما: لضيق المقام، قال أبو الطيب[١]:

قالت وَقَدْ رَأَت اصْفِرَارِيَ: مَنْ به؟ وتَنَهَّـدَتْ، فَأَجبْتُهَـا المُتَنهِّـدُ

أي: المتنهد هو المطالب.

أو: للتعويل على أقوى الدليلين، نحو: "والله ورسوله أحق أن يرضوه" أو يكون في ذكره عبث من حيث الظاهر، نحو: خرجت فإذا زيد، وقوله تعالى: ﴿**أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ**﴾ [سورة الحج الآية: ٧٢] أي: النار شرٌّ من ذلكم؛ أو لأن ذكره يخرج عن المقصود، نحو: قولك في المتصلة: أزيد عندك أم عمرو؟ ولو قلت أم عندك عمرو خرج إلى المنفصلة.

أو لتكثير الفائدة كما مرّ، وكما في كلمة التوحيد، على الحجازي[٢] فلا يقدر موجود؛ لئلا يتوهم الإمكان، وعلى التميمي توحيد حرف.

أو لأن الاستعمال وارد عليه، نحو: ضربي زيداً قائماً، وأخطب ما يكون الأمير قائماً إلى غير ذلك.

الثاني: في كونه مذكوراً، وهو لما سبق في المسند إليه.

أو لقصد التعجب من المسند إليه، بذكره، نحو: زيد يقاوم الأسد، مع دلالة قرائن الأحوال، أو لإفادة الثبات والدوام صريحاً؛ فيُجاء به اسماً، نحو: زيد عالم، وبعض الأسماء، وإن دلّ على التجدد، لكن بالغرض.

أو التجدد والحدوث، فيُجاء به فعلاً، فانظر إلى تفاوت الجملتين تجدداً وثبوتاً، في قول المنافقين: ﴿**آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾[سورة البقرة الآية: ٨] أي: أحدثنا الدخول في الإيمان، وقول الله ردّاً عليهم بأبلغ منه ﴿**وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ**﴾ [سورة البقرة: الآية ٨] حيث

---

(١) الديوان جـ٢ ص ٥٥.

(٢) المراد بكلمة التوحيد "لا إله إلا الله" وقول المؤلف: على الحجازي، يعني به أن الحجازيين يجيزون إثبات خبر لا النافية للجنس، وإن كان الحذف عندهم أكثر، لكن التميميين والطائيين يلتزمون حذفه إذا علم. مغني اللبيب جـ١ ص ٢٣٩.

جيء اسمية ومع الباء، وفي قول إبراهيم -عليه السلام-: (سلام)[1] جواباً عن (سلاماً) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾[سورة النساء الآية: ٨٦] أو لاحتمال الأمرين بحسب التقديرين، فيُجاء به ظرفاً، نحو: زيد في الدار، إذ التقدير: إما حاصل أو حصل، والثاني أقوى، لتمَام صلة الموصول به.

الثالث: في كونه فعلاً، وهو إذا أُريد تخصيصه بأحد الأزمنة، مع اختصار لإفادة التجدد، قال تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[سورة البقرة الآية: ٨٧] أي: فريقاً فرغتم من تكذيبهم، وفريقاً فرغتم من قتلهم، وها أنتم تبذلون جهدكم في قتل محمد، صلوات الله عليه، وقد يوضع المستقبل موضع الماضي، إما لاستحضار الصورة الماضية في مشاهدة السامع، كأنه ينظر إلى فاعلها حال وجود الفعل، فيتعجب لها، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ﴾ [سورة فاطر الآية: ٩] مكتنفاً قطراه بالماضي؛لحكاية الحال التي وقعت من إثارة الريح السحاب، وهي الصورة البديعة الدالّة على القدرة الباهرة، وقال تأبط شرّاً[2]:

بأنّي قد لقيتُ الغولَ تَهْوِي ... بِسَهْبٍ كالصَّحيفة صَحْصَحَان
فَأَضْرِبُها بِلا دَهَشٍ فَخرَّتْ ... صَرِيعاً لِلْيَدَيْنِ وللْجِرَانِ

قصد أن يصور لهم الحال التي تشجع فيها، كأنه يُبصِّرُهم إياها.

وإما؛ لإرادة استمرار وجود الفعل فيما مضى، وقتاً فوقتاً، نحو: لو يحسن إلى السكون، على نحو قَصْد الاستمرار فيما يجيء حالاً فحالاً، في قوله تعالى:﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[سورة البقرة الآية: ١٥] بعد قوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾[سورة البقرة الآية: ١٤] ليكون أبلغ من استهزائهم، وإفادته الاستمرار لاقتضاء المقام، فإنك إذا قلت في مقام مدح: فلان يقري الضيف، ويحمي الحريم، تعني به: أنه اعتاده واستمر عليه، لا أنك تخبر عنه بأنه سيفعله، ومنه ما رواه الشيخان "**إن الرجل ليصدق حتى يكتب صديقاً**"، وحتى للتدرج، وكذا أنه -تعالى- يخبر أن معاملته مع هؤلاء القوم إنما تقع على هذه الحالة:

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾[سورة الذاريات الآية: ٢٥].

(٢) قائل البيتين تأبط شرّا، أحد الصعاليك، انظر الأغاني جـ ٢٤ ص ٨٣٢٦ ط. الشعب.

﴿أَوَ لاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ [سورة التوبة الآية: ١٢٦].

وأما وضع الماضي موضع المستقبل؛ فهو لتوخّي إبراز غير الحاصل في معرض الحاصل، إما لقوة الأسباب المتظاهرة، كقول المشتري: اشتريت حال انعقاد أسبابه.

أو لأن المخبر صادق في وعده ووعيده، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[سورة الفتح الآية: ١]، ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾[سورة الأعراف الآية: ٤٤]، أو لأن ما للوقوع كالواقع، نحو قولك: من قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا للهِ﴾ [سورة إبراهيم الآية: ٢١].

تذييل: وقد يستعمل فعل أو ما في معناه مع مصدر فعل آخر نحو فَعَل الضَّربَ إيذاناً بأن الفاعل مستقل وأنه أوجده تحقيقاً، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [سورة المؤمنون الآية: ٤] مبالغة في وصفهم به، وقال الحماسي[1]:

وإنْ هِيَ أَعْطَتكَ اللّيانَ فإنَّها لغَيْرِك من خُلانِها ستَلينُ

أي: غرّتك باللين ومنحتك المحبة منحاً بالغاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [سورة نوح الآية: ١٧] قال الزجّاج أراد الله إنباتكم، فنبتم نباتاً، قيل: فائدته التنبيه على تحتّم القدرة وسرعة نفاذ حكمها، كأن إنبات الله نفس النبات.

وأقاموا المصدر مقام الفعل، نحو قوله تعالى: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾[سورة محمد الآية: ٤] أصله فاضربوا الرقاب ضرباً، حذف للاختصار مع إعطاء معنى التوكيد، وفي الأصل كان الفعل مطلوباً ويتبعه المصدر، وهنا العكس فيفيد طلب المسارعة في الامتثال.

الرابع: في كونه معرّفاً، وهو إذا كان معلوماً، قيل: فماذا يستفيد السامع حينئذ؟، وأجيب: يستفيد الحكم في نحو قولك: أخوك زيد أو زيد أخوك لمن له أخ وهو عارف به وبمُسَمَّى زيد، لكن لا يعرف أنه هو، أو لازمه في نحو قولك: الذي أثنى عليَّ بالغيب أنت، أو أنت الذي أثنى عليَّ بالغيب لمن فعله.

ولا تحسبن التقديـــم فيهما سدى، وإنما تقول: أخوك زيد، لمن يطلب الحكم على الأخ بتعيين أنه زيد، وزيد أخوك، لطالب الحكم على زيد بتعيين أنه أخوك، وإذا قلت: الذي أثنى عليَّ بالغيب أنت، قلت لمن يعلم أن ثناءه نقل إليك، فتتصوره كالمستخبر

(١) ديوان الحماسة، ولم ينسبه لقائل، جـ ٢ ص ١٠٧.

من حالك، هل يحكم على المُثْنِي عليك أنه هو أم لا؟، أي: علمت أن المُثْنِي أنت، وكذا إذا علم أن ثناءه نقل إليك مع ثناء غيره، فيتصوره كالطالب للحكم على المثني المعتدّ ثناؤه، أي: المثني المعتدّ به أنت، وإذا قدّمت الضمير قلت لمن نقل الثناء إليك لمحضره ومحضر غيره، فتتصوره كالطالب منك الحكم عليه أنه هو المثني أم غيره، لتوهمه أن الحاضرين مثله فيه، أي: أنت المثني لا غيرك.

تتميم: واعلم أن المبتدأ والخبر إذا عُرِّفا فالمقدم هو المبتدأ، فالمنطلق في المنطلق زيد بمعنى الشخص، وزيد بمعنى صاحب اسم زيد، ومن ثَمَّ علّق الظرف به في قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ**﴾ [سورة الأنعام الآية: ٣] أي: المعبود فيهما والمعروف بالإلهية فيها.

والتركيب حيث دار يفيد الانحصار، فتقول: زيد المنطلق لا عمرو ولا وعمرو، ثم الانحصار إما حقيقة، نحو: "الله خالق" أو مبالغة، نحو: حاتم الجواد، وقوله تعالى: ﴿**الم* ذَلِكَ الْكِتَابُ**﴾ [سورة البقرة الآيتان: ١، ٢] لتنزيل غيرها منزلة العدم، وأما نحو قول الشاعر:

.... **أنا أبو النجم وشعري شعري**(١)

فَلِتضَمُّن اسمه نَوْعَ وصفية الكمال تَضَمُّنَ اسم حاتم الجواد، أوقعه خبراً، وكذلك شعري، أي: أنا ذلك المشهور والموصوف بالكمال وشعري هو المعروف بالبلاغة، وقول زهير:

هُم الْقَوْمُ كُلُّ القَوْمِ للدِّين والتُّقى ... ونَاهِيكَ بالقَومِ الَّذينَ هُمُ هُمُ

الخامس: في كونه منكراً كما إذا حكيت عن رجل ما، قلت: الذي عندك رجل، أو قصد عدم الانحصار والعهد، نحو: زيد كاتب، أو ارتفاع شأنه نحو ﴿**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ [سورة البقرة آية: ٢] أي: هدى لا يُكْتَنَه كنهه، أو المسند إليه نكرة، نحو: رجل من قبيلة كذا حاضر، فإن كون المسند إليه نكرة، وهو معرفة، ليس في كلامهم، وأما نحو قوله:(٢)

---

(١) قائله أبو النجم وتمامه: لله صدري ما يجنّ صدري، الأغاني جـ ٢٠ ص ١٧ ت. الشنقيطي.

(٢) قائله حسان بن ثابت. وصدر البيت: كأن سبيئة من بيت رأي، ذكره صاحب الإيضاح

.... **يكونُ مزاجُها عسلٌ وماءٌ**

السادس: في كونه مقدماً وهو إما لكونه متضمناً للاستفهام، نحو: كيف زيد وأين عمرو، أو المراد تخصيص المسند إليه به، نحو: تميمي أنا، وقال تعالى: ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾ [سورة الكافرون الآية: ٦].

أو للتنبيه على أنه، خبر لا نعت،نحو قولها:

تحت رأسي سرج وعلى أبيه درع ....

أو لأن قلب السامع معقود به نحو: هلك خصمك، وعلى فلان من الرحمن ما يستحقه.

أو لتشويق المسند إليه قال[1]:

ثَلاثَةٌ تُشْرِقُ الدُّنْيا بِبهْجَتِهَا   شَمْسُ الضُّحَى وأَبو إِسْحَاقَ والقَمَرُ

وكلما طال الكلام المتقدم، كان أدخل في التشويق؛ أو لأن المطلوب إفادة التجدّد في الدرجة الأولى.

السابع: في كونه مفرداً وهو إذا كان فعلياً ولم يقصد به التَّقَوِّي، وأعني بالفعلي ما يكون مفهومه محكوماً به بالثبوت للمسند إليه أو بالانتفاء عنه، نحو: ضرب زيد وزيد ضارب، وأما مِثْلَ زيد ضارب أخوه، فملحق به لكون السبَبِيّ نحو: زيد، أخوه ضارب، والتقوي، نحو: زيد ضرب، يستدعيان كون المسند جملة.

وأما التخصيص فمفرد؛ لأن إيراده في صورة الجملة لا يخرجه عن حقيقته لعروضه، يعلم ذلك من قوله تعالى: ﴿**لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ**﴾[سورة الإسراء الآية: ١٠٠] في الكشاف، ولا تظننَّ أن نحو زيد ضارب أخوه مثل: زيد أخوه ضارب؛ لكون اسم الفاعل مع فاعله، مضمراً كان أو مظهراً ليس بجملة.

ويظهر من هذا أن القراءة في قوله تعالى: ﴿**كَشَجَرَة طَيِّبَة أَصْلُهَا ثَابِتٌ**﴾[سورة إبراهيم الآية: ٢٤] أقوى من ثابت أصلها، ومن الأمثلة: الكُرُّ[2] من البُرِّ بستينَ، إذا قدّر

=

ص ١٦٦.

(١) قائله محمد بن وهيب الحميري يمدح الخليفة العباسي محمد المعتصم بن هارون الرشيد وهو من أبيات الإيضاح ص ١٩٣.

(٢) الكُرُّ: مكيال لأهل العراق قديماً.

حاصل، لا البر الكر منه بستين لكونه سببياً، وفي الدار خالد على رأي الأخفش.

الثامن: في كونه جملة، وهو إما أن يكون سببياً، أي: يكون المسند الثاني مستنداً إلى متعلق المبتدأ، نحو: زيد أبوه انطلق أو منطلق، وعمرو ضرب أخوه.

أو أن يقصد به تقويِّ الحكم، نحو: زيد ضرب وهو عرف، والسبب تكرير الإسناد، وقولك: أنت لا تكذب أقوى؛ لنفي الكذب عن المخاطب، من: لا تكذب أنت؛ لأن أنت هاهنا لتأكيد المحكوم عليه بنفي الكذب عنه أنه هو لا غيره، لا لتأكيد الحكم، وذلك أن قولك: أنت لا تكذب، في قوة لا يكذب زيد لا يكذب زيد، وقولك: لا تكذب أنت، في قوة: لا يكذب زيد زيد، فإن الثاني لدفع توهم التجوّز في فاعلية زيد، وهذا معنى قولنا: إنه هو لا غيره، لكنه يبقي احتمال التجوّز في الكذب، والأول لا يحتملهما رأساً فتدبر.

ومن هذا يعلم الفرق بين قراءة مَن قرأ ﴿**كُلُّهُنَّ**﴾ في قوله تعالى: ﴿**وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ**﴾ [سورة الأحزاب الآية: ٥١] بالرفع ومن قرأ بالنصب، ومثل: أنا عرفت محتمل للتقوي، إذا لم يقدّر التقديـم، فيفيد قوله تعالى: ﴿**لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ**﴾[سورة النحل الآية: ٢٠] تحقيق كونهم مخلوقين، لا تخصيص خلقهم، وللتخصيص إذا قدر عرفت أنا مؤكداً ثم قدم فيفيد قوله تعالى: ﴿**وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**﴾ [سورة البقرة الآية: ١٦٧] التخصيص لا التحقيق عندنا، وقوله تعالى: ﴿**وبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**﴾ [سورة البقرة: الآية ٤] جامع للاعتبارين، فالتخصيص من تقديم بالآخرة، والتقوى من بناء يوقنون على هم، تعريضاً بأهل الكتاب، وأما نحو: أنا عارف فملحق بالباب.

ثم الضابط هو أن كل مبتدأ ليس يضمر بعده فعل أو شبهه فيه ضمير له، فهو للتقوى، نحو زيد عرف لتعيينه للابتدائية وكل منكر كذا غير مخصص، فهو التخصيص، نحو: رجل عرف، وما كان من ضمير بعده فعل كذا يصلح للتقوى، والتخصيص نحو: هو عرف، وأما نحو: زيداً عرفته، فيحتمل مجرد التأكيد إذا قدر المفسر قبله، والتخصيص معه إذا قدّر بعده، ولهذا كان قوله تعالى: ﴿**وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**﴾ [سورة البقرة الآية: ٤٠] أوكد في الاختصاص من قوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾.

تكميل: وإنما افترق الحكم بين الصور الثلاث، لما أن (هو) في "عَرَفَ هو" ليس

بفاعل بل هو تأكيد؛ لأن ضمير الفاعل لا ينفصل إلا في صور معينة، وإن لم يكن فاعلاً احتمل التقديـــم، فإذا قيل: هو عرف، احتمل ذلك مع احتمال الابتداء ابتداء، لكونه على شرطه، وهو تعرفه، وإنَّ عَرَفَ زيد لا يَحتمل التقديـــم لعلة النظائر ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [سورة الأنبياء الآية:٣] ولا تُسلك تلك الطريقةُ: إلا عند المنكر، نحو: رجل عرف لفوات الشرط، لا يقال: الفاعل، وتأكيده سواء في امتناع التقديـــم؛ إذن الفرق ظاهر؛ لأن تقديم الفاعل يوجب خلو الفعل عنه، وذلك ممتنع، وتقديم التأكيد يوجب خلو الكلام عنه وهو سَائغ.

تتميم: لا بدّ للجملة الواقعة خبراً من ضمير راجع، اللهمّ إلا أن يكون نفس المبتدأ، نحو: هو زيد قائم، أو ذكر فيها ما يتناوله، نحو: نِعْمَ الرجل زيد، على رأي مَن يقول: إن المخصوص مبتدأ لعموم لام الجنس، وكذا عموم مَنْ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾[سورة الكهف الآية:٣٠] أفاد أنهم دخلوا تحت هذا الحكم دخولاً أولياً وهو أبلغ من الضمير، لأنه -تعالى- إذا لم يُضِعْ أجر المحسنين، وهم مَن نعرفهم، فيلزم أن لا نضيع أجرهم على البتّ والقطع، ومن الأسلوب قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا من قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة الآية: ٨٩] واللام في الكافرين للجنس ويدخل اليهود فيه دخولاً أولياً.

التاسع: في كونه مقيداً بما يتصل به من نحو المفاعيل الخمسة، والشرط وهو قد قصد به تربية الفائدة فإن بالتقييدات يزداد الحكم بعداً، وأما خبر كان فليس بقيد، بل القيد نفس كان.

والجملة الشرطية جملة خبرية مقيدة بقيد مخصوص، ومن كلماتها (إنْ) وهي تختص بالمضارع المشكوك وقوعه، نحو: إن تكرمني أكرمك، وقد يستعمل في الجزم لا على مقتضى الظاهر، إما للاحتياط، نحو: قول الغلام جواباً عمّا سئل عن كون سيده في الدار: إن يكُ فيها أخبرتك وهو عالم به، أو لأن المخاطب غير جازم، كقولك لمن يكذّبُك: إن صدقتُ فماذا يكون، أو للتجاهل والتجهيل لعدم جري المخاطب على موجب العلم، نحو: قول الوالد لولد لا يراعي حقه: إن لم أكن لك أباً فكيف تراعي حقي؟، أو للتوبيخ، قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾[سورة الحج آية:٥] مع المرتابين لاشتمال

المقام على ما يقلع الريبة عن أصلها، فتعرض كما تعرض المحالات، وبَّخهم في ارتكاب الريب؛ لأنه من العاقل في هذا المقام، واجب الانتفاء.

أو لتقرير وقوع الجزاء وتحققه، نحو: قول السلطان لمن تحت قهره: إن كنتُ سلطاناً انتقمت منك، أي السلطنة مقتضية للانتقام.

وعليه ما ورد في الصحيح: إن يكُ هذا من عند الله يمضه، وكان الملك أخبره، وقد يستعمل في الماضي، إما لإظهار الحرص بوقوع الجزاء نحو قوله تعالى: ﴿**إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ**﴾ [سورة الممتحنة آية: ٢] ترك يودوا إلى الماضي المؤذن بالتحقيق نظراً إلى لفظه، لكون ودادهم كفر المسلمين أهم شيء عندهم من القتل والشتم وغيرها، لانسجام مادة العداوة برفع الإيمان، قيل: إن ودادهم أن يرتدوا كفاراً حاصلة وإن لم يظفروا بهم فلا يكون في تقييده بالشرط فائدة.

وأجيب بأن الجزاء مقدّر يدل عليه يكونوا لكم أعداء، أي: إن ظفروا يستوفوا منكم متمناهم، وهو مقتضى العداوة الذي هو بسط الأيدي والألسن والردّ إلى الكفر، وعطف يبسطوا وودّوا على قوله يكونوا لكم أعداء، على طريقة أعجبني زيد وكرمه فيكون كُلٌّ من بسط الأيدي والألسن والارتداد إلى الكفر متمناهم لا الارتداد فقط، ثم حذف الجزاء وأقيم يكونوا مقامه كما فعل في قوله تعالى: ﴿**فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾[سورة البقرة آية:٢٤] وتحريره أنه -تعالى- لما نهى المسلمين عن اتخاذهم أولياء وأراد أن يخبر عن مكنون ضمائرهم ومطوي سرائرهم من تمنيهم للمسلمين مضار الدنيا والآخرة، وانتهازهم الفرصة لتحقيق متمناهم قال إن ظفروا بكم يستوفوا منكم ما يتمنون من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض وردّكم كفاراً، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: ويردّوكم كفاراً، لكن لما كان ردّهم كفاراً أشد متمناهم وأهم شيء عندهم صرَّح تمنّيهم إياهم وعدل إلى لفظ الماضي لبيان الأولوية والأولية.

أو لتعريض غير المخاطب إما الموافق، نحو: ﴿**لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ**﴾[سورة البقرة الآية:١٢٠، ١٤٥] أو المخالف، نحو: ﴿**لَئِنْ أَشْرَكْتَ**﴾[سورة الرعد آية:٣٧] أو للتفاؤل نحو: إن ظفرت بحسن العاقبة فذاك، و(إذا) وهي للمضارع المقطوع حصوله، نحو: إذا تطلع الشمس يكون كذا، وقد يعدل إلى الماضي قال تعالى: ﴿**فَإِذَا جَاءَتْهُمُ**

الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾[سورة الأعراف آية:١٣١] مقارناً بها الحسنة المطلقة لا نوع منها رعايةً لحسن التناسب، مراعاة نظيرها في ﴿**وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ**﴾[سورة الروم آية: ٣٦] إذ الحسنة المطلقة مقطوع بها لكثرة وقوعها واتساعها، ولذلك عرفت ذهاباً إلى كونها معهودة بالاعتبار الذهني وهو أقضى لحق البلاغة من تعريف الجنس، لأن الجنس من حيث هو هو، إذا أطلق على الشيء أطلق على أن ذلك الشيء في نهاية من الكمال في بابه، قال ابن جني: من عادتهم أن يوقعوا على الشيء الذي يختصونه بالمدح اسم الجنس، ألا تراهم كيف سمّوا الكعبة بالبيت، وكتاب سيبويه بالكتاب.

فإذن يرجع الجنس إلى النوع المحترز منه، وإصابة السيئة نادرة؛ ولذا قيل: قد عددت أيام البلاء، فهل عددت أيام الرخاء، واستعارة المجيء لها أيضاً من التناسب، وأما قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ**﴾[سورة يونس آية:٢١] أي: يسيرة فلتناسب الإذاقة التي يستدعيها مقام النعي عليهم بالأشرّ.

ومن، ومتى، وحيثما وأخواتها، من المعمّمات المحترز بها عن تطويل، إما غيرُ وافٍ بالحصر أو مُملٌّ، فقولك: من يأتني أكرمه ناب عن قولك: إن يأتني زيد أكرمه وإن يأتني عمرو أكرمه وهلمّ جرّا، وقوله تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾[سورة النور آية: ٥٢] معناه: أي مكلف أتى بالمذكور كله فقد حاز الفوز.

وأما (لو) فهي تعليق ما امتنع لامتناع غيره على القطع، والتعليق يوجب كون الجملتين فعليتين، والقطع يوجب كونهما ماضيتين، نحو: لو جئتني لأكرمتك، وقد يؤتى بالمضارع، نحو قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ**﴾[سورة السجدة آية:١٢] لأن ما هو صادر عمّن لا خلاف في إخباره كأنه واقع.

أو لقصد الاستمرار، نحو: ﴿**لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ**﴾[سورة الحجرات آية: ٧] أي: يمتنع عنتكم باستمرار امتناعه عن طاعتكم.

أو لاستحضار تلك الحالة، نحو: قولــه تعالى: ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾[سورة سبأ آية: ٣١] ولما قلنا من كون (لو) تلي الفعل، لزم في مثل ﴿**لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ**﴾[سورة الإسراء آية:١٠٠] الحمل على لو تملكون تأكيداً، ومن كونها

لتعليق ما امتنع لامتناع غيره لزم في قول عمر ﷺ: (نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه)، الحمل على أنه إن فرض عدم الخوف لما كان العصيان، فكيف وعنده الخوف، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [سورة الأنفال آية: ٢٣] على وإن فرض الإسماع المستلزم للخير، لتولّوا، فكيف والإسماع معدوم.

ومن حق الجزاء كونه مسبباً عن الشرط، وقد يختص بمواضع لا يستقيم إلا بتقدير الإخبار: منها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾[سورة يونس آية: ١٠٤] ولابدّ لهذا الأسلوب من إنكار على المخاطب أو تنبيهه، فكونهم شاكّين في دين الله موجب للإخبار بإقامة الدعوة بإثبات التوحيد أو إسماعه إياهم على سبيل التقريع والتوبيخ.

وقولهم: إن أكرمتني الآن فقد أكرمتك أمس، ينكر أو ينبّه صاحب امتنانه إياه بما أولاه من النعمة، فلذلك قدّر الشيخ[1] إن تعتدّ بإكرامك إياي الآن فأعتد بإكرامي إياك أمس، فاعتداد الإكرام من المخاطب سبب لاعتداد الإكرام الواقع من المتكلم.

العاشر: في ترك الفعل وهو إما لامتناع الاستعمال نحو: إلاَّ حظيَّة فلا أَلِيَّة[2]، وفائدته ستعلم في البيان.

أو لأنه مفسر نحو: إن ذو لوثة لانا، وإذا السماء انشقت، أو لأن في إنجازه الدلالة عليه مطلقاً، فإذا أُريد تقييده فبحسب المقام، فتارة الشروع نحو: بسم الله، إذا أخذت في القراءة أيّ اقرأ، وعلى هذا في القيام والقعود وغيرهما، وتارة الاقتران نحو: بالرفاه والبنين لمن أعرس، وأخرى عموم الأحوال، نحو: في الدار رجل: أي: حصل واستقر أو لأن السؤال الواقع يدل عليه، كقولك: يكتب القرآن لي، فيقال من يكتب؟ فتقول زيد ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[سورة لقمان آية:٢٥] والمقدر نحو: يكتب لي القرآن زيد، وعليه قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ﴾ [سورة النور الآيتان: ٣٦، ٣٧] وميزها على الأولى لكونها أقصر، وللفوائد المتكاثرة بسبب المحامل في الإسناد أملاً.

(١) المقصود بالشيخ السكاكي. انظر المفتاح ١٠٦ ط. دار الكتب العربية.
(٢) المثل رقم ٤٤ في مجمع الأمثال للميداني: ت. محمد محيي الدين عبد الحميد.

أو ضيق المقام يدعو إليه نحو أهلك والليل، ﴿**نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا**﴾[سورة الشمس آية: ١٢] أو لكونه مسبباً عن المذكور نحو ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالاَ الْحَمْدُ للهِ**﴾[سورة النمل آية: ١٥] كما سيجيء؛ أو لأن سياق الكلام ينبئ عنه، نحو: ﴿**وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا**﴾[سورة الكهف آية: ٤٨] أو الفاء الفصيحة، نحو: ﴿**اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فانفجرت**﴾[سورة البقرة الآية: ٦٠] أو الجزاء نحو ﴿**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ**﴾[سورة الأنفال الآية: ١٧].

الحادي عشر: في ترك مفعوله وهو إما للقصد إلى نفس الفعل بجعله منـــزلة اللازم ذهاباً في نحو: فلان يعطي ويمنع إلى معنى: أنه يوجدهما ويفعل حقيقتهما إيهاماً للمبالغة: بأن القصد إلى فرد دون فرد مع تحقّق الحقيقة بحكم قوله تعالى: ﴿**فَلاَ تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[سورة البقرة آية: ٢٢] أي: وأنتم تعلمون من أهل العلم والمعرفة.

وقد يُعدَّى بالجارة كاللازم قال:

وإن تعتذر بالمحل عن ذي ضروعها إلى الضيف يجرح في عراقيبها نصلي

أي: يوجد الجرح في عراقيبها، وقال تعالى: ﴿**وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي**﴾[سورة الأنفال آية ١٥] أي: أوقع الصلاح فيهم، وقد يجعل كناية عن معتد به، قال البحتري:

شَجْوُ حُسَّادِهِ وَغَيْظُ عِدَاهُ أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ ويَسْمَع وَاعِ

أي: يكون ذو رؤية وذو سمع فعبر به عن قوله: أن يرى مبصر آثار محاسن الممدوح، ويسمع واعٍ صيت محامده، وقال تعالى: ﴿**أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾ والأصل: أنعمت عليهم بالإسلام بشهادة القرائن فأطلق ليشمل كل إنعام، ثم كنّى به عن المقيد؛ ليؤذن بأن نعمة الإسلام مشتملة على جميع النعم، كما يُجعل كناية عن أفعال شتى وكيفيات متعددة، كقوله تعالى: ﴿**فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُواْ**﴾[سورة البقرة آيات: ٢٣، ٢٤] أي: فإن لم تأتوا بسورة من مثله و لم تدعوا شهداءكم.

أو إلى تعميمه مع اختصار، فإنه إذا ذكر قصر عليه، وهو من السحر البياني حيث توصل بتقليل اللفظ إلى تكثير المعنى، نحو: فلان يعطي ويمنع ويراد به ما يصلح أن يعطى وما يصحّ أن يمنع، وقوله تعالى: ﴿**فَلاَ تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[سورة البقرة آية: ٢٢] منه إذا قدر أنه لا يماثل أو أنها لا تفعل كفعله أو كم التفاوت بينهما، ومنه قوله

تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[سورة يونس آية: ٢٥] لكون الدعوة عامة والهداية خاصة. أو إلى الاختصار قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي أنها ليست بأنداد، وأكثر فواصل القرآن من هذه الأساليب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾[سورة القصص آية: ٢٣]، وتذودان، ولا تسقي محذوف [المفعول: نسياً منسياً. والفرق بين هذا والأول أن القصد في الأول إطلاق الفعل؛ ليشيع في جنسه وهنا القصد نفس الفعل لا شيوعه]، ومنه أصغيت إليه أي أُذني، وأغضيت عليه، أي: بصري، أو لأن الفصاحة على أن لا يذكر وذلك في أفعال المشيئة والإرادة، قال تعالى: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ﴾[سورة الأنعام، آية:١٤٩] وقال:

لو شئت عدت بلاد نجد عودة فحللت بين عقيقه وزروده

وأما إذا تعلقت به غرابة، نحو قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى﴾ فيذكر. وقال:

ولو شئت أن أبكي دماً لبكيته عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

وأغرب منه قول الآخر:

فلم يبق مني الشوق غير تفكري فلو شئت أن أبكي بكيت تفكرا

إذ المراد أنه فني من أوصافه سوى التفكر، فلو أراد شيئاً يخالفه كان إياه، فلو ترك المفعول لما أدى مؤداه فليتفكر.

أو لأن الفاصلة تتم دونه، قال تعالى: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾[سورة الضحى: ١-٣] أو لأن الأدب على أن يترك، نحو قول عائشة رضي الله عنها: (ما رأيت منه ولا رأى مني) تعني العورة.

الثاني عشر: في إضمار فاعله، وهو لأن يكون على الحكاية أو الخطاب نحو عرفت وعرفت، أو مسبوق نحو جاءني رجل وطلب كذا، أو في حكم المسبوق، بأنه نصب عينيك، قال أبو العلاء:

زارت عليها للظَّلام رواق ومن النُّجوم قَلائدٌ ونِطَاقُ

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾[سورة الأعراف آية: ١٤٩] على بناء الفعل، وإنما جاز لكثرة استعمال قراءة العامة وإشهارها في معنى الندم حتى قال الزجاج سقط الندم في أيديهم أي: في قلوبهم، وقال جار الله: وقع البعض فيها أو السياق دال

عليه، نحو: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾[سورة القيامة آية: ٢٦] والآتي مشيراً إليه، قال أبو الطيب:

لَوْ كان يُمْكِنُني سَفَرْتُ عَنِ الصِّبا فالشَّيْبُ مِنْ قَبلِ الأَوانِ تَلَثُّم

ومن الاحتمالين قولهم: إذا كان غداً فاتني، فإذا تقدم أمرٌ أو حالٌ فهو المقدر، وإلا فالمقدر ما نحن عليه من السلامة.

ومن الأمثلة ما بني للمفعول، ولا يصار إليه إلا حيث يكون الفاعل رفيع القدر علي الشأن، ومثل ذلك الفعل لا ينبغي أن يصدر إلا عن مثله، نحو: المرسوم نافذ بكذا، وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾[سورة هود الآية: ٤٤]، أو أن الفعل مما يتنزه عنه، نحو: قطع اللص، وعليه قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ على أسلوب قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [سورة الشعراء آية: ٨٠] أو أن المفعول كذا، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾[سورة الأنعام آية: ٣٤] وفي شتم الأمير أو الأمر كذا نحو قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾[سورة الزمر آية: ٦٩].

وإما لإيثار غرض المخاطب احتياطاً، نحو: شُتم فلان، وخُلع على فلان، أو المقصود صدور الفعل لا عمّن صدر، نحو: قوله صلوات الله عليه: (من بلي بهذه القاذورات فليستتر) ومنه قُتِلَ الخارجي.

أو لتوافق حرف الروي قال لبيد:

وما المال والأهلون إلا وديعة ولا بد يوماً أن ترد الودائع

وما المرء إلا كالشهاب وضوؤه يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

ولو ذكر فاعل ترد لخرجت إلى الإقواء.

ومن التوافق قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ [سورة هود آية: ٤٤] لتقارب السجع، نحو قولهم: كثر النضال وقتل الرجال، والاختصار محتمل فيها.

باب في التقديـــم والتأخير

وفيه مقدمة وفصول:

المقدمة: وهي أن التقديـــم مفيد للتخصيص غالباً لتوافقهم على أن معنى مثل قوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ نخصك بالعبادة لا نعبد غيرك ونطلب منك الاستعانة لا من غيرك؛ ولأنه يستدعي سبق الخطأ من المخاطب في الفاعل أو المفعول أو غير ذلك، وإصابته في الفعل مثلاً وأنت تقصد رده إلى الصواب، فإذا قلت: أنا ضربت زيداً كان المدلول ضرب زيداً ولم يضربه غيري؛ لأنه إذا أثبت غير معتقده استدعى المقام نفي معتقده، وإذا قلت: ما زيداً ضربت، كان المفهوم ما ضربت زيداً وضربت غيره؛ لأنك إذا نفيت معتقده استدعى إثبات غيره، فيجتمع إثبات منفيه مع نفي مثبته فذلك هو معنى القصر، ثم هو إما للإفراد وهو قطع الشركة عن متعلق الحكم المتوهم شركته، أو للقلب وهو ردّ المتوهم إلى ما يخالفه فيلزم منه ثبوت الحكم عند المخاطب، ولكن الخطأ في متعلقه، وهو إما قصر الموصوف على الصفة أو عكسه.

فصل في تقديم الفاعل المعنوي

تقول أنا سعيت في حاجتك في قصر الإفراد، إذا توهم الشركة في السعي، والقلب إذا أسند إلى الغير، ويؤكد الأول بوحدي والثاني بلا غيري، وأما قولهم: أتعلمني بغيب أنا جرشته[1] فللإفراد وإنكار التعليم فصَحَّحه، أي: لا أحتاج إلى تعليمك ومعاونتك، ومنه قول قوم شعيب -عليه السلام- رادين زعمه في أن العزيز رهطه ونفسه ﴿**وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ**﴾[سورة هود آية: ٩١] أي: العزيز رهطك لا أنت فلذا طابقه ﴿**أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ**﴾[سورة هود آية: ٩٢] أي: من نبي الله، ولو قالوا ما عززت لم يصح، قيل: إن مثل أنا عارف لا يفيد الاختصاص لكونه غير فعل، والتمسك بالجواب ليس بشيء، لجواز أن يفهم عزهم من قوله: ﴿**وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ**﴾ ونفي العزّة من قوله: ﴿**وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ**﴾[سورة هود آية: ٩١] وأجيب بما مر: أنه ملحق بالفعل في التقوى والتخصيص على أن الذوق شاهد صدق فيما نحن بصدده بإفادته، وقد قال جار

---

(١) مَثَلٌ يُخَاطِبُ به العالم بالشيء من يريد تعليمه.

الله العلامة -رحمه الله- أن إيلاء الضمير حرف النفي يدل على أن الكلام في الفاعل لا في الفعل، وبما فهم السائل من كلام الشيخ عبد القاهر من أن إيلاءه يفيد الاختصاص من غير شرط.

وقيْدُ كونه فعلياً شرط، ولو سلم. فلم قلت إنه ليس بفعلي وبين الفعل والفعلي بون؟ قوله والتمسك بالجواب ليس بشيء، قلنا التمسك هنا بإفادة التخصص على مطابقة الجواب لا عكسه، بل الاعتراض ليس بشيء، لأن قوله: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾، تقرير للسابق على الطرق والعكس عناداً منهم فلابد من اعتبار دلالتي المنطوق والمفهوم في كل من اللفظين واستقلاله فيهما، وإنما قدّر أعزّ من نبيّ الله مع أنه موهم أن يكون له العزة وأنهم نفوها عنه رأساً؛ لأن المراد منه أن نسبة القرابة إلى القوم أعزّ عليكم من نسبتي إلى الله بالنبوة.

ومن القلب قوله:

وما أنا أسقمت جسمي به ... ولا أنا أضرمت في القلب ناراً

أي أن هذا السقم الموجود والضرم الثابت ما أنا جالب لهما فحسب، فالقصد إلى نفي كونه فاعلاً لهما وحده لا إلى نفيهما، ولذلك لا يجوز أن يقال: ما أنا سعيت في حاجتك ولا أحد سواي، ويجوز ما سعيت أنا في حاجتك ولا أحد غيري لأنه ليس فيه أكثر من الإخبار بنفي السعي لأنه لا تقديم فيه.

قال جار الله وإنما يقال مقدّم ومؤخر للمزال لا للقارّ في مكانه، ويحترز أن يقال: ما أنا ضربت إلا زيداً لما أن إيلاء النفي أنا نفي لأن يكون هو الفاعل، ونقض النفي بإلا يقتضي حصول الفعل منه، لا لما قيل إن ذلك يقتضي إنساناً غير المتكلم قد ضرب من عدا زيداً منهم؛ لأن ذلك مما يستهجن. كما استهجن ما أنا ضربت أحداً من الناس لاستلزامه ذلك والكلام في نفي الصحة، ولا يحترز ما ضربت أنا إلا زيداً.

فصل في تقديم المفعول

تقول زيداً عرفت إفراداً وقلباً، ويؤكد بلا غيره، ولا يقال ما زيداً ضربت ولا أحداً من الناس، ولا ما زيداً ضربت ولكن أكرمته، فتعقب المنفي بإثبات ضده؛ لأن؛ الكلام ليس في الفعل فيرد إلى آخر، وإنما هو في المفعول، وقوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾[سورة الزمر آية: ٦٦] يفيد قصر إفراد؛ لإضرابه عن الشركة في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ

عَمَلُكَ﴾ فإن قيل فهلا حملوا قول المجيب عن سؤال السائل ما تتمنى؟ وجه الحبيب أتمنى على الاختصاص دون الاهتمام، كما يشير إليه الحاتمي:

لي حبيب لــو قيل مــا تتمنى ... مــا تعدَّيته ولو بالمنونِ

أشتهي أن أحُلَّ في كُلِّ جسم ... فـــأراه بلحظ كلِّ العُيُون

قلت: لأن الهجر هنا والاشتياق إلى وجه الحبيب وشدة تزايده سَيَّرَتْهُ كأنه نصب عينيه فاقتضى المقام لذلك الاهتمام، وأن الشاعر ليس في ذلك المقام كأنه قدر السائل مخطئاً.

فصل في تقديم المجرور

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً﴾[سورة النساء آية: ٦٩] قدمه واللام للاستغراق مريداً به قصر قلب؛ رداً لزعم اليهود أن بعثته اختصت بالعرب، لكون الكل في مقابلة البعض فلا يحمل على العهد لئلا يختص بهم، ولا على الجنس لئلا يخرج الجن لتقابلهما.

فصل في التقديـــم الواقع بين المعمولات

وذلك للاهتمام دون التخصيص، كما إذا قيل لك: عرفت شركاء لله يقف شعرك، وتقول لله شركاء، أي: أعرفت من شركاء، وعليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لله شُرَكَاء﴾ [سورة الأنعام آية: ١٠٠] قيل في جعل هذا التقديـــم للاهتمام؛ نظراً لأن الآية مسوقة للإنكار العائد إلى نسبة أحدهما للآخر لا إلى أحدهما حتى يكون أهم من الآخر، وأجيب بأن الإنكار وإن كان عائداً إلى النسبة، لكن في تقديم أحد المتنسبين فائدة ليست في التأخير؛ لأن الكلام يقع بالأصالة فيه، ويكون الآخر تبعاً له.

قال سيبويه: إنهم يقدمون الذي بيانه أهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً مما يهمانهم، فعلى هذا لو قدم الله يكون المقصود بالذات استعظام ذاته -تعالى- من أن يكون له شركاء من غير نظر إلى حال الشركاء أو لا، وإن كان يلزمه بالغرض انتفاء نسبتها عنه، ولو قدم شركاء لم يكن كذلك، وتأخير المنصوب عن المرفوع تارة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا﴾[سورة المؤمنون آية: ٨٣] لكونه وصية وتقديمه عليه أخرى في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا﴾[سورة النمل آية: ٦٨] للاهتمام

إذ الإنكار ههنا أبلغ لأن الذي قبل هذه ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا﴾[سورة النمل الآية ٦٧] وقبل الأولى: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾[سورة النمل آية: ٨٢] فكونهم مع أسلافهم تراباً صرفاً أدخل في الإنكار من كونهم وحدهم تراباً وعظاماً.

وكذا تقديم المفعول على التابع في قوله: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾[سورة آل عمران آية: ١٨] لاهتمام شأن التوحيد ونفي الغير أو أنه تعالى أصل فيها، والغير كالتابع على نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾[سورة البقرة آية: ١٢٧].

وأما تأخير المتبوع في قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[سورة يوسف آية: ٤] فلبيان فضلهما واستبدادهما بالمزية على غيرها، فلو جيء بهما متبوعين كما في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾[سورة الأعراف آية: ٥٤] كان القصد إلى مجرد الإخبار وإن لزم ذلك، وفي التأخير القصد إلى إرادة الأفضلية وادعاء أنهما جنسان متغايران، ومن الأمثلة قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾[سورة الأنعام آية: ١٥١] قدمهم في الوعد بالرزق على أولادهم لكون الخطاب مع الفقراء بدليل قوله من إملاق فكان رزق أنفسهم أهم، بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم﴾[سورة الإسراء آية: ٣١] والمخاطبون أغنياء بدليل قوله خشية إملاق.

وربما يكون التقديم للاحتياط نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾[سورة غافر آية: ٢٨] فلو أخَّرَ (من آل) لأوهم أنه من صلة يكتم فلم يفهم أن الرجل من الآل.

ويكون لرعاية الفواصل، قال تعالى: ﴿طه * مَا أَنـزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[سورة طه آية: ١، ٢] إلى قوله: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾[سورة طه آية: ٧٠] أخره مع كونه متبوعاً.

ولمراعاة النظم قدّم قوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾[سورة يس آية: ٣٩] ليكون على نسق الآيتين السابقتين.

فصـــــل

وقد تعترض جملة بين جملة اهتماماً، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾[سورة المائدة آية: ٦٩]. إلى قوله: ﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فالصابئون رفع بالابتداء وخبره محذوف والنية التأخير، فكأنه قيل: إن الذين آمنوا حكمهم كذا، والصابئون كذلك، ثم قُدِّم لأنهم أشد من أولئك.

أو اختصاصاً، قال صلوات الله عليه: «**إنَّا معاشر الأنبياء لا نورث**» وقال الحماسي:

إنا بني نهشل لا ندعي لأب عنه ولا هو بالأبناء يشرينا

أي: أنا أذكر من لا يخفى شأنه لا نفعل كذا، فلو جعل بنو نهشل خبراً لزم إما خمول المتكلم أو الجهل بارتفاع شأن القوم.

ولاشتراط هذا الأسلوب يكون الممدوح مشهوراً، أو الصفة صالحة للتمدح بها، لم يجز زيد الكريم في الدار، وعند المخاطب زيود، ولا زيد الإسكافي فيها، وهو مشهور نعم لو أريد الذم، والسبب فيه أن المنصوب والمرفوع يستدعيان ما يتمّان به جملة وكونها متخللة مع أن حقها التأخير أو معدولة إليها من الإفراد يدل على الاهتمام والاختصاص.

وعن أبي علي الفارسي، إذا ذكرت صفات للمدح أو الذم فإذا خولف بعضها خولف للافتنان، وترد بين كلامين متصلين قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [سورة البقرة آية: ٣] إذا قدّر مرفوعاً أو منصوباً، وبعد كلام تام، نحو: الحمد لله الحميد، أو تزييناً كما سيجيء.

وقد يقع التقديـــم بين الجمل قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قدّم الوسيلة ليكون أنجح، وقال تعالى: ﴿وَأَنــزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾[سورة الفرقان آية: ٤٨، ٤٩] قدم حياة الأرض ثم إسقاء الأنعام؛ لأن تَعيُّشَ الحيوان مسبب عن حياتها، وهما سبب تَعَيُّش الأناسي.

ومنه تقديم الأكثر قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ﴾ [سورة فاطر آية: ٣٢] أو لئلا ييأس الظالم ويتكل السابق.

وإذ قد تحقق القصر في التقديـــم، فبالحري أن تلحق به ما يتم به الفرض، فنقول في طريق النفي والاستثناء: إن الاستثناء مستدع للمستثنى منه والعموم فيه، والمناسبة بينهما في

الجنس والوصف.

أعني كونه فاعلاً أو مفعولاً، أو ذا حال، أو حالاً أو غير ذلك، وهذه المستلزمات توجب أحكام القصر، فإذا قلت ما ضرب زيد إلا عمراً كان التقدير ما ضرب زيد أحداً إلا عمراً، واستلزم قصر الفاعل على المفعول، وما ضرب عمراً إلا زيد، كان التقدير: ما ضرب عمراً أحد إلا زيد، ويلزم قصر المفعول.

والفرق أن عمراً في الأول لا يمنع أن يكون مضروب غير زيد، ولكن ضاربية زيد مقصورة عليه، وأن زيداً في الثاني لا يمتنع أن يكون ضارباً غير عمرو، ولكن مضروبية عمرو مقصورة عليه.

وقلت في قصر أحد المفعولين ما كسوت زيداً إلا جبة، أي: ما كسوته ملبساً إلا جبة، وفي عكسه ما كسوت جبة إلا زيداً أي: ما كسوتها أحداً إلا زيداً. وفي الحال: ما جاء زيد إلا راكباً، أي: ما جاء زيد كائناً على حال من الأحوال إلا راكباً، وفي عكسه ما جاء راكباً إلا زيد، ولك أن تقول في الأول ما ضرب إلا عمراً زيد، وفي الثاني ما ضرب إلا زيد عمراً إلا أن هذا الوجه لما استلزم قصر الصفة قبل تمامها على الموصوف قل دوره؛ لأنه قصر الضرب المطلق في الأول لا الصادر عن زيد، وقصد الوقوع مطلقاً في الثاني لا على عمرو، فإذا قلت ما اخترت إلا رفيقاً منكم قدّرت الصفة عامة في المستثنى منه واستثنيت منها فقلت ما اخترت منكم أحدًا متصفا بأي وصف كان إلا رفيقًا وفي ما اخترت إلا منكم رفيقا قدّرت المجرور أعمّ العام، وقلت ما اخترت رفيقاً من طائفة من الطوائف إلا منكم وهذا أبلغ وعليه قول السيد الحميري:

لو خير المنبر فرسانه ... ما اختار إلا منكم فارسا

لإفادة انحصار استحقاق الخلافة فيهم، فلو قيل إلا فارساً منكم أفاد أنه لا يختار منهم إلا الموصوف بصفة الفروسية.

ويقول في قصر طريق: إنما أفاد القصر لتضمينه معنى ما وإلا، ولذلك صحّ انفصال الضمير معه، قال الفرزدق:

أنا الزائد الحامي الذمار وإنما ... يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي

ولأن إن لتأكيد المسند للمسند إليه، واتصلت بها ما المؤكدة فضاعف تأكيدها ولما قيل في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ**﴾[سورة البقرة آية: ١٧٣] منصوبة: ما حرم

عليكم إلا الميتة، والمرفوعة مطابقة لها لتعريف الخبر أي المحرّم عليكم، والحصر فيه مقدّر في نحو: إنما يضرب عمراً زيد، ما يضرب عمراً إلا زيد، والحصر فيه مقدّر في نحو: إنما يضرب عمراً زيد ما يضرب عمراً إلا زيد، ونحو: إنما يضرب زيد عمراً، ما يضرب زيد إلا عمراً، ومن هذا تعثر على الفرق بين قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[سورة فاطر آية: ٢٨] وقولك: إنما يخشى العلماء من عبادة الله لكون الأول يقتضي انحصار خشية الله على العلماء، والثاني انحصار خشية العلماء على الله تعالى.

تكميل: واعلم أن القصر كما يُجرى بين الفعل ومتعلقاته يُجرى بين المبتدأ والخبر، وله في هذا النوع طرق ست، وقد سبق طريقان: طريق توسيط الفعل، وطريق تعريف الخبر باللام، وبقي منها طرق أربع:

أحدها: طريق العطف، تقول في قصر الموصوف على الصفة إفراداً أو قلباً: ما زيد شاعر بل منجم، أو زيد شاعر لا منجم وعكسه زيد قائم لا عمرو أو لا غير، وما عمرو قائم بل زيد.

والفرق أن الموصوف في الأول لا يمتنع أن يشاركه عمرو ولا يمتنع في الثاني، وأن الوصف في الثاني يمتنع أن يكون لعمرو ولا يمتنع في الأول.

ثانيها: طريق النفي والاستثناء تقول في قصر الموصوف على الصفة إفراداً أو قلباً ليس زيد إلا شاعر، أو ما زيد إلا شاعر، ومن الإفراد في التنـــزيل ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ**﴾[سورة آل عمران آية: ١٤٤] أي: هو صلوات الله عليه مقصور على الرسالة لا يتجاوزها إلى عدم الهلاك، كأنهم أثبتوا له الرسالة والخلد استعظاماً له. فخصص على وصف الرسالة، والذي يقتضيه سداد النظم أن يكون قلباً لما أنه -تعالى- جعل المخاطبين بسبب نكوصهم على أعقابهم عند الإرجاف بالنبي ﷺ كأنهم اعتقدوا أن خلوّه سبب للانقلاب، وليس حكمه حكم سائر الرسل في وجوب اتباع دينهم بعد خلوّهم، فردّ عليهم ذلك، ومن ثم أدخل الهمزة على الفاء السببية؛ ليكون مزيداً لذلك الإنكار، يعني إذا علم أن أمره أمر الأنبياء السالفة فَلِمَ عكس الأمر بأن لم يجعل العلم سببا للثبات فأن لا يجعل سبباً للانقلاب أولى.

في الكشاف ومن القلة قوله تعالى: ﴿**مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ**﴾[سورة المائدة آية: ١١٧] أي: ما قلت لهم أن اعبدوني ولا تعبدوا الله، بل كان قولي مقصوراً على ما

أمرتني به أن اعبدوا الله، والاستفهام في أأنت للتقرير ليفيد التعريض كما في قولك: آذيتني فستعرف على إرادة المجاز في التعريض.

وتقول في قصر الصفة على الموصوف إفراداً أو قلباً ما شاعر إلا زيد.

واعلم أن تحقيق قصر الموصوف على الصفة هو أنك متى قلت: ليس زيد، توجه النفي إلى صفته لا ذاته؛ لأن أنفس الذوات لا تنفى، وحين لا نـــزاع في طوله وقصره وما شاكلهما، وإنما النـــزاع في كونه شاعراً أو كاتباً، فإذا قلت: إلا شاعر جاء القصر، ومتى قلت: ما شاعر وثبوت الشاعرية مسلم الحكم في نفس الأمر، وإنما النـــزاع في ثبوتها لهذا الموصوف أو غيره تناولهما، فإذا قلت: إلا زيد، أفاد القصر، وهذا الطريق لا يجامع الأول فلا يصحّ ما زيد إلا قائم لا قاعد، ولا ما يقوم إلا زيد لا عمرو، لدلالة ما على نفي جميع الصفات، فتكون لا نافية لما هو منفي بما، وشرط منفي لا أن لا يكون منفياً قبلها بغيرها من كلمات النفي، ويسلك هذا الطريق مع المخطئ المصرّ، كما قالوا للرسل ﴿**إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا**﴾[سورة إبراهيم آية: ١٠] لأن الرسالة عندهم منافية للبشرية.

وقد يجعل غير المصرّ مصرّاً نحو قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ**﴾[سورة فاطر آية: ٢٢، ٢٣] لشدة حرصه على إيمان القوم وإسماعهم الحق.

ثالثها: طريق إنما: تقول في قصر الموصوف على الصفة إفراداً أو قلباً: إنما زيد جاء، وعكسه إنما يجيء زيد، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾[سورة الأنبياء آية: ١٠٨] متضمن لكلا النوعين، أي: الوحي -صلوات الله عليه- مقصور على استئثار الله بالوحدانية، فيقال على قصر الصفة: ما يوحى إليّ إلا بالتوحيد، أي: الشرك ليس بالوحي، وعكسه ما إلهكم إلا إله واحد، أي: ليس له صفة التعدد، وهذا الطريق يجامع العطف فيقال: إنما أنا تميمي لا قيسي، وإنما يأتيني زيد لا عمرو، لكون معنى النفي فيها ضمناً لا صريحاً، ولذا يصحّ: امتنع عن المجيء زيد لا عمرو، نعم شرط فيه أن لا يكون الوصف بعد إنما مما له في نفسه اختصاص بالموصوف. فتقول في قوله: ﴿**إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَن يَّخْشَاهَا**﴾[سورة النازعات آية: ٤٥] لأن الإنذار إنما يؤثر إذا كان مع من يؤمن، ولا تقول: إنما يعجل من يخشى الفوت لا من يأمنه، لاختصاصه به، ويسلك مع غير المصرّ، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ**﴾[سورة الأنعام آية: ٣٦].

وقد يجعل المصر غير مصر، إذا كان معه ما إذا تأمله قبل نحو: ﴿**إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ**

وَاحِدٌ﴾[سورة النساء آية: ١٧١] هذا وأما من جهة المتكلم فيستعمل في حكم لا يعوزه تحقيقه: إما لأنه جَلِيٌّ حقيقة، قال -تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ وقال أبو الطيب مستعطفاً:

إنما أنت والد والأب القا طع أحنى من واصل الأولاد

وقولك للمشرك: ﴿إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

وادّعاء. قال:

إنَّما مُصعبٌ شهابٌ من الله تجلّت عن وجهه الظَّلْمَاءُ

وقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[سورة البقرة آية: ١١] أي: كونهم مصلحين أمر جليّ؛ ولذا أكد تعالى في تكذيبهم بقوله: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ حيث جيء باسميه، بتوسيط ضمير الفصل.

وأحسن مواقعها ما إذا روعي فيه التعريض، نحو: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾[سورة الزمر آية: ٩] عَرَضٌ به أن الكفار ليسوا من العقلاء، وقوله:

.... وإنما يعــذر العشــاق من عشــقا

عرض أن الواشي لو ابتلي ببلوة العاشق لعذره.

ورابعها: طريق التقديـــم تقول في قصر الموصوف على الصفة إفراداً أو قلباً: تميمي أنا، أو قائم هو، وعكسه: أنا كفيت مهمك، وفي التنـــزيل: ﴿لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنــزَفُونَ﴾[سورة الصافات آية: ٤٧] أي: ليس فيها ما في غيرها من الاغتيال، وأنهم المخصوصون بأن لا ينقطع شربهم عنها، وإنما أخّر في قوله: ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾[سورة البقرة آية: ٢] لينبّه على أن هذا الكتاب حق وصدق لا باطل وكذب، فلو قدم لقصد أن كتاباً آخر فيه ريب، وهذا الطريق يجامع العطف، تقول: تميمي أنا لا قيسي، وهو يأتيني لا عمرو.

واعلم أن دلالة التقديـــم على القصر بوساطة الفحوى وحكم الذوق، ودلالة غيره بوساطة الوضع وجزم الفعل، ومن الأول في غير التقديـــم ما يتقوى به الحكم بشرط كون الفعل عظيم الخطر، وما يبنى عليه على القدر، نحو: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾[سورة لقمان آية: ٣٤]، الآية في وجه، وقوله تعالى: ﴿اللهُ نــزلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾[سورة الزمر آية: ٢٣] أي: مثل هذا التنـــزيل لا يجوز أن يصدر إلا عن الله تعالى من الكشاف والله أعلم.

باب في الفصل والوصل

وهو ترك العاطف بين الجمل وذكره.

واعلم أن العطف يعتمد على معرفة أصول أربعة:

الأول: يقدم متبوع وافٍ بما قصد بالقياس إلى التابع مغاير له، فقوله: يقدّم متبوع احتراز من نحو جاء زيد وعرفت عمراً، وقوله: وافٍ احتراز من المبدل؛ لأنه توطئة، وقوله: بالقياس إلى التابع؛ ليدخل فيه مثل قولك: جاءني أُخوك زيد وعمرو، وقوله: مغاير له، احتراز من الوصف والبيان والتأكيد.

الثاني: مشاركتهما في المعنى الذي دلّ عليه الإعراب.

الثالث: أن يكون بينهما جهة جامعة وهي أن تضمهما المفكرة بوساطة العقل أو الوهم أو الخيال، بحيث إذا تصور أحدهما خطر الآخر في البال، كما بين السبب والمسبّب، والعلو والسفل، وكما بين القمر ووجه الحبيب وكالسواد والبياض، وكالسماء والأرض، أو كما بين الدواة والقلم، والإبل، والسماء، والجبال والأرض، قال تعالى: ﴿**أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ**﴾[سورة الغاشية الآيتان: ١٧، ١٨] جمع بين الأربعة لكون جلّ غرضهم من المطعم والملبس والمشرب من الإبل، وأن بقاءها منوط بالمرعى الذي تكوّن بماء ينـــزل من السماء، واضطرارهم عند طلب الحصن إلى الجبال، ومن الجامع العقلي اتحادهما في تصور كالمخبر عنه والمخبر به، أو قيد من قيودهما، وهذا لا يشعر بكون كل واحد منهما كافياً في صحة العطف، كما ظن لأن البواقي كذلك.

الرابع: اتفاق الخبرية والطلبية، وأما نحو قول الشاعر:

ألا يا نخلةً من ذات عِرْقٍ . عَليكِ ورحمةُ الله السلام

فمن باب التقديـــم والتأخير، وقوله تعالى: ﴿**وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**﴾ فتقديره: إياي ارهبوا فارهبون، والفاء مثلها في قوله -صلوات الله عليه-: «**الأمثل فالأمثل**» أو في قولك: زيداً فاضربه فيتضمن معنى الشرط، كأنه قيل وما كان فلا تدعوا رهبته، قال جار الله في (القمر): ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا**﴾[سورة القمر آية: ٩] أي: كذّبوه تكذيباً على عقب تكذيب، وقولهم: أعجبني زيد وكرمه، فإن العطف فيه للدلالة

على أن لذات زيد -أيضاً- مدخلاً في أن يتعجب منه فلا يكون مثل: أعجبني زيد كرمه، وهو على أسلوب قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾[سورة الأحزاب آية:٥٧] أي: رسول الله، ولما كان -صلوات الله عليه- من الله في قوة من الاختصاص بمكان، كان إيذاؤه إيذاءه، ونحو: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا﴾[سورة الحجرات آية: ٤] فعلى أن الواو للحال، وصاحبها موصوف.

والذي هو أرسخ عرفاً في البلاغة أن يسلب عنها معنى التغاير لتتجرد للربط كما هي في الجملة الحالية، فيؤكد بها لصوق الصفة بالموصوف، يفعل بها ما فعل بالهمزة، وأم في قوله تعالى: ﴿أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ وبالنداء في قوله: اللهمّ اغفر لنا أيتها العصابة.

وما توسطت في قولهم: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾[سورة الكهف آية: ٢٢] دون الأوّلين إلا ليؤذن أن هذا القول صدر عن طمأنينة قلب لا عن رجم، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [سورة النساء آية: ١٢٥] فيحمل على الاستئناف على أنها معترضة، ولو عطفت لم تفد معنى، وقوله تعالى: ﴿وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ﴾[سورة البقرة آية: ٩٨] وقوله: ﴿سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾[سورة الحجر آية: ٨٧] فمن عطف الخاص على العام، وعكسه لتنــزيل التغاير في الوصف منــزلة التغاير في الذات، والأول أبلغ كما سبق، وقول الشاعر:

إلى الملك القَرْمِ وابن الهُمَامِ وليْثِ الكتيبة في المُزْدحَم

فعلى أنه الجامع بين تلك الصفات التي استقل كل واحد منها بالتناهي، وكفى به مميزاً، وعليه قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ﴾ والذين في وجه.

واعلم أن تمييز مواقع العطف بين الجمل التي لم تتمهد فيها الأصول، عسير جداً وبلغ في الغموض إلى حيث اقتصرت البلاغة على معرفته.

فتقول العمل الممهدة فيها الأصول أجمع لأزمة العطف، والمفقودة التشريك بين أمرين، العطف للوجود، والفصل للقطع أو للاستئناف.

والمفقودة التغاير أو الجامع لازم لها الفصل، والمفقودة الاتفاق، الأصل فيها الفصل ولكلٍّ مما ذكر بحث:

البحث الأول

في الفصل لفقدان التشريك، وهو نوعان:

أحدهما أن يكون للكلام السابق حكم لا تريد أن تشرك فيه، فتفصل، ويسمى قطعاً، وهو إما **احتياطاً**، وذلك إذا وجد قبله كلام لا مانع من العطف عليه، ولكن لا يعطف كيلا يظن على ما فيه مانع، قال:

وتظن سلمى أنني أبغي بها بدلاً أراها في الضلال تهيم

لم يعطف أراها على تظن، مع جوازه؛ كيلا يظن أنه معطوف على أبغى، وأنه من مظنونات سلمى وليس به.

أو وجوباً إذا لم يوجد ذلك كقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ. اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ**﴾[سورة البقرة آية: ١٤، ١٥] فلو عطف الأخيرة لعطف إما على جملة قالوا أو على إنما أو على الشرطية، لكن على الثاني يكون مقولاً لهم وليس به، وعلى الأول مختصاً بالظرف، فيرجع إلى أن الله لا يستهزئ بهم إذا لم يخلوا، وعلى الثالث يأباه أدنى ذوق.

وثانيهما: أن يكون الكلام السابق كالمورد للسؤال، فيقطع ليكون جواباً له ويسمى استئنافاً، وفائدته إما التنبيه على مكان السؤال، أو الإغناء عنه، أو لئلا ينقطع الكلام، أو غير ذلك، وهو نوعان:

أحدهما: أن ينطوي الجواب على بيان الموجب وذلك بإعادة صفة من استؤنف عنه الحديث، نحو قولك: أحسنت إلى زيد صديقك القديم أهل لذلك، قال أبو العلاء:

وقد عرضت عن الدنيا فهل زمني معطٍ حياتي لغر بعدما عرضا
جرَّبت دهري وأهليه، فما تَركَتْ لي التجارب في وُدِ امرئٍ غَرضَا

فإنه حين أبدى الشكاية من الزمان، حمل السامع على أن يقول لماذا يشكو منه وبماذا استحق هذه الشكاية، قال: لأني جربت دهري وأهليه ومارست حلوه ومرّه، فلم يبق لي فيه غرض، وقوله تعالى: ﴿**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾[سورة البقرة الآيتان ٢، ٣] منه إذا اقتطع الذين عن المتقين، وذلك أنه -تعالى- لما خصّ المتقين بالهدى الذي لا يكتنه كنهه، اتجه لسائل أن يسأل ما بالهم مخصوصين بذلك، فوقع قوله: الذين

يؤمنون بالغيب إلى ساقيه جواباً، أي: الذين عقائدهم وأعمالهم هذا محقوقون بأن يحسن إليهم ويلطف بهم ويفعل بهم ما لا يفعل بغيرهم.

وثانيهما: أن يُعاد بذكر من استؤنف عنه الحديث، فيعرى عن التعليل نحو: أحسنت إلى زيد زيد حقيق بالإحسان، قال أبو تمام:

سلبْنا غطاء الحُسن عن حُرِّ أوْجه ... تــظَلُّ للُـبِّ السَّالبيهــا سَوَالبَا
وجــوهٌ لو أن الأرض فيه كواكبٌ ... تَوَقَّــدُ للسَّاري لكَانَتْ كَواكِبَــا

وقوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[سورة البقرة آية: ٥] منه إذا جعل الذين يؤمنون تابعاً للمتقين صفة، أو اختصاصاً، كأنه قيل ما للمتقين الجامعين بين هذه الصفات؟ فأجيب: بأن أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا بالهدى عاجلاً وبالفلاح آجلاً.

ولك أن تجعل الموصول الأول تابعاً كذا، والثاني مبتدأ، وأولئك خبره، تعريضاً بأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا، والأول أدخل في البلاغة من الأخيرين، لما فيه من بيان الموجب للحكمين، أعني: كونه هدىً لهم، وكونهم على هدى، والثاني أحسن من الأخير لمكان الاستئناف، وعدم فك الموصولين، وعكسه لوقوع أولئك الذي هو الموجب خبراً له، ولمكان التعريض، وإفادة الاستطراد إذا أجرى المتقين على الحقيقة، واستلزام الهدى لهؤلاء بالطريق الأولى، إذا حمل على المجاز؛ لأن الجملة حينئذ من مستتبعات هو هدى للمتقين لا للمتقين ولاستيجاب كون الذات موجباً في الثاني.

البحث الثاني

في الفصل لفقدان التغاير، وذلك إما لأن في الكلام السابق نوع توهم للتجوّز، فيؤتى بكلام آخر؛ دفعاً له وتقريراً للمراد، وهو نوعان:

أحدهما: أن ينــزل منــزلة التأكيد المعنوي، نحو: جاءني زيد نفسه، قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ**﴾[سورة البقرة الآية: ٢] لأنه لما بولغ في وصف كتابه ببلوغه الدرجة القصيا حيث جعل المبتدأ اسم إشارة، وعرف الخبر حصل عند السامع قبل التأمل أن هذا من قبيل التجوّز أو الحقيقة فقرره بقوله، لا ريب فيه وإن اختلف.

وقولــه تعالى: ﴿**إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ**﴾[سورة البقرة آية:١٤] فإن

معنى قوله: إنا معكم الثبات على اليهودية، وقوله إنما نحن مستهزئون دفع للإسلام، ودفع نقيض الشيء تأكيد لإثباته، قال أبو العلاء يصف فرساً:

كـأَنَّ أذُنيـه أعْطت قلبه خبراً — عـن السَّماء بما يَلقَى من الغِيَر

يُحسُّ وطء الرزايا وهـي نـازلةٌ — فينهبُ الجري نفس الحادث المكر

لأنه إنما تخبر الأذن القلب إذا أحس.

وثانيهما: أن يُنـزل منـزلة اللفظي في اتحاد المعنى، نحو: جاءني زيد زيد، قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾[سورة البقرة آية:٢] فإن معنى الكلام الأول معنى الثاني، وذلك أنه -تعالى- لما وصفه بأن الكتاب الكامل في معناه، وعقّبه بالمبالغة في نفي الريب على سبيل الاستغراق، أثبت له وصف الهداية؛ لأن من شأن الكتب السماوية الهداية لا غير.

وقال أبو العلاء:

ونَـمَّ بطيفها السَّـاري جـوادٌ — فجَّنبنـا الـزِّيارة والـوِصَـالا

يُحـسُّ إذا الخيـال دَنَـا إلينـا — فَيمنْع مـن تُـعَهدِّنـا الخيـالا

أو نوع خفاء فيقصد إيضاحه قال تعالى: ﴿**وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ. يُخَادِعُونَ**﴾[سورة البقرة آية: ٧، ٨] فصل يخادعون؛ لكونه موضحاً للأول، وقال تعالى: ﴿**فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى**﴾[سورة طه آية: ١٢٠].

وقال أبو العلاء يصف سيفاً:

مقيم النصل فـي طـرفي نقيض — يكـون تبايـن منـه اشتكـالا

تَبَيَّنُ فـوقـه ضَحْضـاحَ مـاءٍ — وتبصر فيـه للنار اشتعـالا

فأخفى في البيت الأول الماء والنار المشبه هما طرائق السيف التي في متنه وعرائقه بقوله: في طرفي نقيض، وبالغ فيه حيث جعل التباين فيه تشابهاً وتشاكلاً، ثم أوضحه بالبيت الثاني.

أو نوع تقصير فيعاد بنظم أوفى منه قال تعالى: ﴿**اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾[سورة يس آية: ٢٠، ٢١] وقوله تعالى: ﴿**أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ**﴾[سورة الشعراء آية: ١٣٢-١٣٤] وقال

تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَّشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾[سورة البقرة آية: ٢٨٤] على قراءة من أسقط الفاء وجزم على بدل البعض من يحاسبكم، باعتبار الضمير في العائد إلى ما في أنفسكم المشتمل على لمة الخير والشر، وعلى الوساوس؛ لأن ما يترتب عليه الغفران والعذاب، الشر فقط، أو الاشتمال، لأنهما يتبعان المحاسبة.

وقال ابن جني: هذا على البدل من يحاسبكم به على وجه التفصيل لجملة الحساب، فإذا حصلت فائدة البيان لم يبال أَمِنْ نفس المبدل كانت أم مما اتصل به فضلةً أو غيرها، فإن أكبر الفوائد إنما تجتنى من الإلحاق والفضلات، وقال الشاعر:

أقول له ارحل لا تُقِيمنَّ عِنْدنا . وإلاَّ فكن في السِّرِّ والجهر مُسْلِما

فصل لا تقيمن لأن المقصود كمال إظهار الكراهية؛ لإقامته بسبب نفاقه وهذا أوفى بتأدية المقصود لدلالته عليه بالتصريح، قال أبو العلاء:

ولـــولا ما بسيفك مـــن نـــحول لقلنـــا أظهـــر الكمـــد انتحالا

ســـليـــل النار دقَّ ورَقَّ حتى كأن أبـــاه أورثـــه الســـلالا

فصل سليل النار؛ لأنه أوفى لمعنى الدقة والنحول، والاستئناف لا يفارق القطع في مثل المذكورات.

البحث الثالث

في الفصل لفقدان الجامع، وذلك أن لا تضمهما الفكرة بما يضمها، قال أبو تمام:

لا والذي هو عالم أن النوى صَبِرٌ وأن أبا الحسين كريم

تعاطى الجمع بين مرارة النوى وكرم أبي الحسين، فأبرزهما في معرض التوخي للجمع بين النصب والنون والأروى والنعام.

أو لأن يكون بينهما مناسبة في تصور، كقولك: عمرو شاعر وزيد كاتب، إذا لم يكن بينهما مناسبة، أو قولك: زيد شاعر وعمرو طويل، سواء أكان بينهما مناسبة أو لا، وقد تتعاضد الأصول، لكن المقام يأبى الوصل لعارض قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[سورة البقرة آية: ٦] فصل لكون ما قبله حديثاً عن القرآن وصفاته، وهذا حديث عن الكفار وصفاقم ولو وصل الذين كفروا

بالذين يؤمنون، كنحو: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[سورة الانفطار الآيتان: ١٣، ١٤] لفات غرض الاستطراد وكان تابعاً كالمؤمنين و لم يصلح للمدح.

البحث الرابع

في الفصل لفقدان الاتفاق، قال:

وقال رائدهم أرسوا نُـزاولُها فكل حتف امرىءٍ يجري بمقدار

فصل نــزاولها عن أرسوا للاختلاف، وقال الآخر:

مـلـكتـه حبلـي ولكنــه ألقاه مـن زُهْـد عـلى غاربي

وقــال إني في الهوى كــاذبٌ انتــقــم الله مــن الــكــاذب

فصل انتقم وهو طلب؛ لكونه دعاء.

وقد يوصل، لقوة الجوامع بضرب من التأويل: إما لتضمين الخبر معنى الطلب كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[سورة يس آية: ٥٥- ٥٩] عطف "وامتازوا" على إن أصحاب الجنة بعد أن ضمنه معنى الطلب.

بيانه أن قوله: ولا تجزون خطاب مجمل يعمّ أهل المحشر وفيهم الفريقان وتفصيله قولــه إن أصحاب الجنة اليوم، وامتازوا اليوم على إرادة فامتازوا أيها المؤمنون، وإنما أوثر تأويل الخبري، ليتفق المفصل المجمل في الخطاب، أو تضمين الطلب معنى الخبر، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾[سورة النمل آية: ٨-١٠] عطف "ألق" بعد أن ضمنه معنى الخبر بدليل مجيئه في سورة أخرى ﴿وَأَنْ أَلْقِ﴾ والظاهر أن الأول أيضاً إنشاء؛ لأنه دعاء، وأما قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بعد قوله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[سورة البقرة آية: ٢٤] فقدّره جار الله معطوفاً على فاتقوا، وصاحب المفتاح[1] على قل مراداً قيل: يا أيها الناس اعبدوا لكون إرادة القول في كلام الله العزيز غير عزيز، من ذلك قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا﴾[سورة البقرة آية: ١٢٧] أي يقولون: ربنا إلى غير ذلك.

ولناصر القول الأول أن يقول هو أوفق لتأليف النظم لكون التقدير، إذا تبين

---

(١) أبو يعقوب السكاكي.

عجزكم عن المعارضة فقد صحّ عند المعاند والموافق صدقه، فإذا صحّ ذلك فاحذر أيها المعاند العقاب، وبشّرنا محمد المصدق بالثواب، فلا يكون فاتقوا جواباً للشرط المذكور كما توهم.

وإنما كان هذا أوفق لاستدعاء إن كنتم في ريب هذا الجزاء، ولقرب المعطوف عليه، ولظهور الجهة الجامعة الوهمية، ولتضمنه العقلية لكون المعطوف والمعطوف عليه مسبّبين عن الشرط، ولاجتماع ثلاث مقابلات، ولفصل الفاء المفصحة عن المحذوف، وأما اعتبار اتحاد المسند إليه فمضمحل نظراً إلى هذه الوجوه، على أن "بشّر" من الخطاب العام؛ تفخيماً لجانب البشارة.

هذا والذي هو أقضى لحق البلاغة أن قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ خطاب عام يشمل الفريقين المخالف والموافق، وأن قوله: ﴿**وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ**﴾ مختصٌّ بالمخالف، ومضمونه الإنذار، وأن قوله: وبشّر مختص بالموافق، كما في يس.

واعلم أن من محسّنات الوصل مناسبة الجملتين في الاسمية والفعلية اللهمّ إلا إذا روعي التجدد في أحدهما والثبات في الأخرى، كما في قوله تعالى: ﴿**سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ**﴾[سورة الأعراف آية: ١٩٣] أي سواء عليكم أحدثتم الدعوة للأصنام أم استمر صمتكم عن دعائهم لأنهم كانوا إذا حزّ بهم أمر دعوا الله، وقوله تعالى: ﴿**أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ**﴾[سورة الأنبياء آية: ٥٥] أي: أجدّدت تعاطي الحق أم أحوال الصبا مستمرة، وقدر جار الله أهو جد وحق أم لعب وهزل.

والذي عليه النظم المعجز حمل أم على المنقطعة، وذلك أنه -عليه السلام- حين رآهم يعكفون على عبادة الأصنام وبخهم وحقّر شأنهم، وحين اعتذروا بالتقليد ضلّلهم، فقالوا أجئتنا بالحق، أي: أمعك برهان على دعواك؟

ثم أضربوا عن السؤال ونسبوه إلى اللعب في الدعوى على البتّ وأنه من المشهورين فيه، وأن له مساهمة معهم، ومن ثم دفعه -عليه السلام- في جوابه الحكيم بحرف الإضراب وحقّق الدعوى بكونهم مربوبين، وأن الأصنام مفطورون بقوله: ﴿**بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فطَرَهُنَّ**﴾[سورة الأنبياء آية: ٥٦] وذيله بما يقابل قولهم: ﴿**وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ**﴾ أي: لست من اللاعبين في الدعاوى بل من القائمين

فيها بالبراهين القاطعة، وأما قوله تعالى: ﴿**فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ**﴾[سورة الأنعام آية:٩٥] فلا يعطف اسم الفاعل على الفعل لإرادة استمرار التجدّد في الأولى والثبات في الثانية، كما ذهب إليه الإمام، لورود الفعلية بياناً ولا يصلح هذا أن يكون بياناً، ولا يقدر لها ما يناسبها، مثل فالق الحب والنوى لئلا يفوت غرض التعميم، فيفيد: يخرج الحيوان والنامي من النطف والبيض والحب والنوى، ومخرج هذه الأشياء من الحيوان والنامي.

باب الإيجاز والإطناب

وهما من الأمور النسبية، والمعيار كلام الأوساط، وهو ما يؤدى به المعنى المقصود بالمطابقة، فما نقص منه إن لم يُخلّ بالمقصود فهو الإيجاز وإلا فالتقصير وما زاد عليه، إن عني به المبالغة فهو الإطناب وإلا فالتطويل، والتمييز بين المذكور يحتاج فيه إلى دقة نظر، فلذا حُدَّت البلاغة بأنها: بلوغ الرجل بعبارته كُنْه مراده مع إيجاز بلا إخلال، وإطناب بلا إملال، وعلو شأن الكلام بحسب مصادفة المقام وأنشد الجاحظ:

يَرْمُونَ بالخُطَب الطِّوالِ وتَارَةً وَحْيَ الملاحِظِ خيفةَ الرُّقَبَاء

وقال المهلبي:

إذا اختصر المعنى فَشَرْبَةُ صائم وإن رام إسهاباً أتى الفَيْضُ بالمَدِّ

وقيل مثال المساواة قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾[سورة فاطر آية: ٤٣] وهو وهم لأن فيه إطناباً من وجه، وقد حوى جميع أنواع الإيجاز من وجه وقيل مثال التقصير قول عروة:

عجبت لهم إذ يقتلون نفوسهم ومقتلهم عند الوغى كان أعذرا

أراد: يدخلون في السلم وأخل، وفيه تطويل، مثاله قول أبي تمام:

أعطيتني دية القتل وليس بي عقل ولا حق عليك قديم

أراد: وأليس لي عليك عقل فأخل.

وقول البحتري:

للشيء وقت وإبَّانٌ ولست ترى يوماً لنائله وقتــاً وإبَّانـــا

هذا مديح خرج في معرض الهجاء لنقصان هذا اللفظ عن تمام معناه؛ لأنه جحد أن يرى لنائله وقتاً في يوم من الزمان.

وأتم المعنى أبو الطيب حيث قال:

وواهباً كل وقت وقتُ نائله وربما يهب الوهابُ أحياناً

ومثال التطويل قول أبي الطيب:

ولا فَضْلَ فيها للشجاعة والنَّدى وصَبْرِ الفتى لولا لقاءُ شَعُوبِ

لفظ الندى من الإكثار؛ لأن المفهوم أن لا فضل للشجاعة والندى لولا الموت، وإنما

يستقيم هذا في الشجاعة دون البذل؛ لأن المقدام إذا عاين الموت ثم خاض فيه حمد، قال الحماسي:

لا يكشف الغَمَّاءَ إلاَّ ابْن حُرَّةٍ يرى غمرات الموت ثُمَّ يزورها

والباذل إذا أيقن الموت لم يحمد على البذل لقوله -صلوات الله عليه-: «**أن تصدّق وأنت شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان: كذا وقد كان كذا**».

وقول الأشجع السلمي:

لعل الليالي بإحسانها كما فرقت بيننا تجمع

فقيل: عزوه الليالي إلى الإحسان في التفريق بينه وبين حبيبه عجب، فلفظ الإحسان إكثار، وقلت لو حملت على الإيجاز لجاز.

الإيجـــــاز

نوعان حذف وغير حذف، والنوع الأول إما حذف جملة أم لا، والقسم الأول إما جملة مستقلة أم لا، والضرب الأول من القسم الأول أحسنها، مثاله قوله تعالى: ﴿**تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا**﴾[سورة يوسف آية: ٤٧] إلى قوله: ﴿**وَفِيهِ يَعْصِرُونَ * وَقَالَ الْمَلِكُ**﴾[سورة يوسف الآيتان: ٤٩، ٥٠] أي: فرجع الرسول إليهم وأخبرهم بمقالة يوسف فعجبوا لها وقال الملك، وقال تعالى: ﴿**اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُون * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ**﴾[سورة النمل الآيتان: ٢٨، ٢٩] فيه إيجاز أن أحدهما قوله: ثم تولّ عنهم، أي: تنحّ عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه، فانظر ماذا يرجعون، وثانيهما: فأخذ الكتاب وذهب به فلما ألقاه إليها فتناولته ثم قرأته قالت: يأيها الملأ.

ومنه باب الاستئناف، والضرب الثاني، كما قدّره صاحب الكشاف، وقال أصل قولـــه تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالاَ الْحَمْدُ للهِ**﴾[سورة النمل آية: ٢٨] آتينا داود وسليمان علماً، فعملا به، وعلّماه، وعرفا حق النعمة، وقالا: الحمد لله انظر إلى الواو؛ لأنها تقتضي معطوفاً عليه هو مسبب عن الإيتاء، وصاحب المفتاح جعل الجامع هو الوجود، وذلك بأنه -تعالى- أخبر عما صنع بهما وأخبر عمّا قالا، ولم يترتب الثاني على

الأول تفويضاً لاستفادته إلى فهم السامع، مثله قم يدعوك بدل قوله قم فإنه يدعوك، والأول أولى لما يلزم من الثاني الاقتصاد على إحدى شعب الشكر، والنعمة خطيرة تستدعي الشعب كلها، قال:

أفادتكم النَّعماء منيِّ ثلاثةً يدي ولساني والضمير المُحَجَّبا

وأما تخصيص الحمد فلأنه رأس الشكر، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ**﴾[سورة العنكبوت آية:٥٦] أصله فإن لم تخلصوا لي العبادة في أرض فأخلصوها في غيرها، فحذف الشرط، وعوض عنه تقديم المفعول المفيد للإخلاص ضمناً، وقوله تعالى: ﴿**أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِه فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلاَ تَذْهَبْ**﴾[سورة فاطر آية: ٨] جوابه ذهبت نفسك عليهم حسرة، أو كمن هداه الله لدلالة فلا تذهب، وفإن الله يضلّ، وكل واحد من الجمل المدخول عليها الفاء لا يصح جواباً بشهادة معنى الإنكار، وقوله تعالى: ﴿**فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ**﴾ [سورة البقرة آية: ٦٠] أي: فضرب فانفجرت، فحذف ليشير إلى أن الموحى إليه لم يتوقف عن امتثال الأمر، سميت هذه الفاء فصيحة لإفصاحها عن محذوف غير شرط هو سبب لما بعده، أو لأنها لا تكاد توجد إلا في كلام فصيح شرطاً كان أو لا، كما في قوله تعالى: ﴿**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ**﴾[سورة الحجرات آية: ١٢] وقول الشاعر:

قالوا خُراسانُ أقصى ما يراد بنا ثم القُفُوْلُ فقد جئنا خراسانا

والقسم الثاني: قد سبق منه ما سبق فلنذيّله بنظائر منها، حذف المضاف قال تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى**﴾[سورة البقرة آية: ١٨٩] أي برّ من اتقى، وهذا أولى من تقدير ذا البرِّ؛ لأن الكلام في البرِّ، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ**﴾[سورة الأحزاب آية: ٥٧] أي أولياء الله وقال تعالى: ﴿**لِّمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ**﴾ أي رحمة الله، ﴿**وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**﴾ أي: عذاب ربهم، وقد يحذف مكرراً، قال تعالى: ﴿**فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ**﴾[سورة طه آية: ٩٦] أي: من أثر تراب حافر فرس الرسول.

والمضاف إليه قال تعالى: ﴿**للهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ**﴾[سورة الروم آية: ٤].

وحذف الموصوف قال تعالى: ﴿**وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً**﴾[سورة الإسراء آية: ٥٩] أي: آية مبصرة.

والصفة، قال تعالى: ﴿كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[سورة الكهف آية: ٧٩] أي: سفينة صحيحة.

والجار والمجرور، قال تعالى: ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾[سورة التوبة آية: ١٠٢] أي: خلطوا عملاً صالحاً بسيئ وآخر سيئاً بصالح، وقولنا: الله أكبر، أي من كل شيء، والأولى أن يكون من باب قطع متعلق أفعل، وجعله لمطلق الزيادة مبالغة، قال المالكي [قوله تعالى]: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾[سورة النجم آية: ٣٢] فأعلم بمعنى عالم؛ إذ لا مشارك له -تعالى- في علمه بذلك، وقوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [سورة الروم آية: ٢٧] أي: هيّن إذ لا تفاوت في نسب المقدورات إلى قدرته، قال البحتري:

الله أعطاك المحبّة في الورى ... وحباك بالفضل الذي لا يُنْكَرُ

ولأنت أملأُ في العيون لديهم ... وأجَلُّ قَدْراً في الصدور وأكبرُ

أي: أملأ وأجلّ وأكبر من غيرك.

ومنها حذف صلة الموصول، نحو قولهم: جاء بعد اللتيا والتي، أي: الخطة بلغت مبلغاً يبهت الواصف عن كنهها، وقول ابن مطروح:

وبي ظبي إنس كمّل الله حُسنهُ ... وقال لأبصار الخلائق عَوِّذي

حلا تحت ياقوت اللّما عِقْد جوهر ... رطيب وأبدى عارضاً من زُمُرُّذِي

يقولون من هذا الذي أنت في الهوى ... به كَلِفٌ، يا رب لا عَلِمُوا الذي

والموصول كما في قول حسان:

فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء

أي ومن يمدحه سواء، وقوله تعالى من وجه: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾[سورة الرعد آية: ١٠] أي: ومن هو سارب.

ومن الأمثلة حذف المتعلق قال تعالى: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا﴾[سورة مريم آية ١٧٣] أي: أيّ الفريقين أبلغ في خير مقامه من الآخر في شره، **أقيم** المتعلق مقام متعلقه على حد قولهم: **العسل** أحلى من الخل، أي: شدة حلاوة العسل أبلغ من شدة حموضة الخل.

النوع الثاني: على ضروب:

أ - **إيجاز قصر**: وهو أن يقصر اللفظ على المعنى كما وُصِفَ بليغٌ: كانت ألفاظه قوالب معانيه، سئل جعفر بن يحيى عن أوجز كلامهم قال: ﴿**إنه من سليمان**﴾ إلى قوله

﴿وأتوني مسلمين﴾ فجمع في أحرف العنوان والكتاب والحاجة.

وكتب المأمون لمن يعنى بحاله إلى بعض عمّاله: هذا كتاب واثق بمن كتب إليه معنيٍّ بمن كتب له ولن يُضيَّع بين الثقة والعناية.

ب- إيجاز تقدير: وهو أن يقدر معنى زائد على المنطوق، وقيل هذا تضييق لأنه نقص من الكلام ما صار لباس لفظه أقصر من قدِّ معناه، قال تعالى: ﴿**فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ**﴾[سورة البقرة آية: ٢٧٥] أي: خطاياه قد غفرت فهي له لا عليه، وقال صلوات الله عليه يوم بدر: «**هذا يوم له ما بعده**»، ولما بلغ عمر ﷺ جواب كتابه عن أبي موسى في النصراني لا قوام للبصرة إلا به، وقع مات النصراني يعني هب أنه قد مات، فما كنت تصنع حينئذ فاصنعه الساعة.

قال الواثق لابن أبي دؤاد: قد ذكرك ابن الزيات بكل قبيح، قال الحمد لله الذي أحوجه إلى الكذب عليَّ، ونــزهني عن قول الحق فيه، أي: جعلني محسوداً له فكذب عليَّ، وجعله مواجب المخازي، ومع هذا نــزهني أن أقول ما فيه، وهاتان النعمتان توجبان الحمد.

جــ- إيجاز جامع وهو أن يحتوي اللفظ على معان متعددة قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى**﴾[سورة النحل آية: ٩٠]، فإن العدل هو الصراط المستقيم المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط المومىء به إلى جميع الواجبات في الاعتقاد والأخلاق والعبودية، وأن الإحسان هو الإخلاص في مواجب العبودية لقوله -صلوات الله عليه-[(١)]: «**أن تعبد الله كأنك تراه**» أي: تعبد الله مخلصاً في نيتك واقفاً في الخضوع آخذاً أهمية الحذر إلى ما لا يحصى، وأن إيتاء ذي القربى هو الزيادة على الواجب من النوافل، هذا وأما النواهي فبالفحشاء الإشارة إلى القوة الشهوانية الخارجة عن الأذى وما شاكلها، وبالمنكر إلى الإفراط الحاصل من آثار الغضبية، وبالبغي إلى الاستعلاء الفائض عن الوهمية وقوله تعالى: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾[سورة الأعراف آية:٩٩] جامع لمكارم الأخلاق لأن في أخذ العفو التساهل والتسامح في الحقوق

---

(١) ذكـــره البخاري في كتاب الإيمان ٣٧،٢٤، والشهادات ٢٦، وذكره مسلم في الإيمان ٥، ٧، ٨، وفي سنن أبي داود ١٦،والترمذي في الإيمان ٤، وكذلك النسائي ٥، ٦، ٥٠ وابن ماجه في المقدمة ٩، ١٠.

واللين والرفق في الدعاء إلى الدين، وفي الأمر بالمعروف كفّ الأذى وغضّ البصر، وما شاكلهما من المحرمات، وفي الإعراض الصبر والحلم والتؤدة، وعليه قول الحماسي:

فإن هو لم يحمل على النفس ضيمها ... فليس إلى حسن الثناء سبيل

فإن في ضيم النفس أن يتكلف الشجاعة والسماحة والعفّة والتواضع والصبر وغيرها، فأخذه أبو تمام وزاد عليه حيث قال:

وظلمت نفسك طالباً إنصافها ... فعجبت من مظلومة لم تظلم

وفاز بضربي الإيجاز وحاز نوعي المطابقة، المعنى أنك لما أكرهتها على المشاق فقد ظلمتها، وفي الحقيقة أنصفتها لما جلبت إليها ذكراً جميلاً ومجداً مؤثلاً، وأعجب بهذا الظلم الجالب للإنصاف.

ومنه قول لبيد:

واكذب النفس إذا حدثتها ... إن صدق النفس يزري بالأمل

والمعنى لا تحدث نفسك بأنك لا تظفر بمرامك فإن ذلك يثبطك.

ومن الاعتبارات قوله تعالى: ﴿**فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾ فكونه من الثاني لدلالة التنكير أي حياة عظيمة [حيث] لا تقتل الجماعة بالواحد، ومن الثالث لدلالة التعريف، أي: في هذا الجنس من الحكم، ومن الأول لكون المعنى أفرغ في قالب اللفظ وقصر عليه، ومن النوع الأول، أي: حياة مستقرة في القصاص، فانظر إلى تعجيز هاتين الكلمتين، ولا يلتفت إلى ما قيل القتل؛ أنفى للقتل لفضلها عليه بوجوه:

أ - إنها أخصر لفظاً وأقل حرفاً.

ب- جعل التفويت والقتل طرفاً للحياة.

ج- دلالة التعريف والتنكير على ما ذكر.

د- ليس فيها تكرير اللفظ.

هـ- سلامة ألفاظها عمّا توحش السامع.

و- تخصيصها بالحياة المرغوب فيها.

ز- بعدها عن تكرير قلقلة القاف الموجب للضغط والشدة.

ح- تخصيصها بتكرير الصاد المستجلب باستعلائها وإطباقها مع الصفير للفصاحة.

ط- هي رادعة للقتل والجرح والضرب.

ي- تقديم خبرها.

ك- صيغة الطباق المعنوية بين القصاص والحياة.

ل- إن القتل ظلماً قتل مع أنه جالب للقتل لا رادع له، والتخصيص يخرجه من هذا النوع من الإيجاز إلى التقصير.

- الإطناب -

وهو يأتي تارة بغير الجمل وأخرى بها.

فمن الضرب الأول قول الخضر لموسى -عليهما السلام- في الكرة الثانية: ﴿**أَلَمْ أَقُل لَّكَ**﴾[سورة الكهف آية: ٧٥] مطنباً لك لزيادة تقرير ما مهد له من أنك لن تستطيع معي صبراً، أو قوله -عليه السلام-: ﴿**رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي**﴾ مطنباً لي تأكيداً لانشراح الصدر لما تؤذن به الرسالة من تلقّي المكاره.

ولك أن تعدّ (لكم) في قوله تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾[سورة البقرة آية: ١٧٩] من هذا القبيل للامتنان على هذه الأمة خاصة.

وجواب اليزيدي عن سؤال المأمون: لا، وجعلني الله فداك، مطنباً بالواو ومشعراً بدقة نظره، ومن ثم قال المأمون: لله درّك ما وضعت واو موضعاً قطّ أحسن منها، ومن الأمثلة جميع حروف الصلات؛ لأنها من قبيل الإطناب لا التطويل قال الإمام(١) في تفسيره: لا في مثل قوله تعالى: ﴿**لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾[سورة القيامة آية: ١] لنفي القسم، كأنه -تعالى- يقول: لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب فإنه أظهر وأجلى من أن يحاول إثباته بالقسم، وهذا حق لما هو مقرر أن المخاطب تلقى إليه المؤكدة بحسب ما أشرب من الإنكار، والقسمية للنهاية فيه فإذا بلغ بحيث ينكر الضروريات تزاد لا إعلاماً بأن الواقعة لا تحتاج إلى إثباتها بالقسم، كما تقول: لا أقسم برأس الأمير.

ومن الأيمان الحسنة قوله تعالى: ﴿**حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[سورة الزخرف آية ١-٣] لتناسب القسم والمقسم عليه.

وقول أبي تمام:

وثناياك إنهـــا إغْــرِيضُ ولآلٍ تُومٌ وبَرْقٌ وَمِيضُ

(١) الفخر الرازي.

ومن الأمثلة أعجبني زيد وكرمه، أي: كرم زيد، فالفعل مسند إلى شيئين والمراد أحدهما، وعليه قوله تعالى: ﴿لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾[سورة الحجرات آية: ١] أي: بين يدي رسوله فإن منـــزلته صلوات الله عليه لما كانت بمكان عند الله سلك به ذلك المسلك، فذكر الله تمهيداً لذكر رسوله، ومنه قولهم رأيته بعيني وقبضته بيدي وقلته بفمي، يقال في أمر يعظم مناله ويعزّ مناله ويعزّ الوصول إليه فيؤكد ليؤذن على نيله وحصوله قال البحتري:

تأمل من خلال السُّجْف فانظر　　　بعينك ما شربت ومن سقاني

تَجدْ شمس الضحى تدنو بشمس　　　إليَّ مـــن الرَّحيـــق الخسْرواني

أو في أمر لا حقيقة له، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾[سورة الأحزاب آية:٤] أي: تفوهون به من غير روية، أو لتصور الحالة الفظيعة الهائلة قال تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾[سورة النحل آية: ٢٦] ومعلوم أن السقف لا يكون إلا من فوق، فجيء به ترهيباً وتخويفاً، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[سورة الحج آية: ٤٦] ففائدة الصدور مزيد إثبات المجاز، فإنه قد تعورف، واشتهر أن العمى على الحقيقة مكانه البصر كما أن فائدة يطير بجناحيه مزيد إرادة الحقيقة ومن الضرب الثاني قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنــزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[سورة البقرة آية:١٦٤] أطنب فيه أبلغ إطناب لكون الخطاب مع الثقلين، وفي كل عصر وحين للعالم منهم والجاهل والموافق منهم والمنافق، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ﴾[سورة غافر آية: ٧] وحملة العرش ليسوا ممّن لا يؤمنون لكن ذكر الإيمان لشرفه والترغيب فيه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾[سورة فصلت آية: ٦، ٧] وليس من المشركين من يزكي، لكن حث للمؤمنين على الأداء، وتخويفٌ من المنع حيث جعله من أوصاف المشركين، ومن الأمثلة قول أبي تمام:

زَكِيٌّ سجاياه تضيف ضيوفه　　　ويرجى مُرَجَّيه ويُسأل سائله

جعل ضيوفه تستصحب ضيفاً طمعاً في مضيفه وسائله يعطى كما نال من العطايا الوافرة وراجيه يُرَجى لمكان رجائه الواسع، وقول أبي العلاء:

والكِبْر والحمد ضدَّان اتفاقهما مثل اتِّفــاق فتاء السِّن والكبر

يجني تزايد هذا من تناقص ذا والليل إن طال غال اليوم بالقصر

وكان أصل الكلام أن يقال الكبر ممقوت أبلغ مقت فأطنب بوضعه موضعه قوله ضدان وأردفه التشبيه التمثيلي، وهو اتفاقهما مثل اتفاق فتاء السن والكبر ثم بين الوجه على سبيل الاستئناف بقوله: يجني تزايد هذا من تناقص ذا، ثم ذيله بالاستعارة التمثيلية وهي والليل إن طال غال اليوم بالقصر، ومثله قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا**﴾[سورة الأعراف آية:١٧٦] قال صاحب الكشاف: وكان حق الكلام أن يقال ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض فحططناه، فوضع قوله: فمثله كمثل الكلب موضع حططناه أبلغ حطّ؛ لأن تمثيله بالكلب في أحسن أحواله وأذلّها في معنى ذلك، ونقول قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا**﴾ تذييل إلا أنه غير مُخرَّج مَخرج المثل كما في البيت.

واعلم أن هذه قاعدة شريفة ينبني عليها علم البيان فلتكن على ذكر منك.

تذييـــل:

وقد يعتبر الإيجاز والإطناب تقليل الحروف وتكثيرها كما في الشطر الأول من قول أبي تمام:

يصد عن الدنيا إذا عنَّ سُؤْددٌ ولو برزت في زي عذراء ناهد

(وتمام البيت) في قول الآخر:

ولست بنظار إلى جانب الغنى إذا كانت العلياء في جانب الفقر

وفي عكسه فعل المتنبي ببيت أبي تمام:

لقد أسف الأعدا بمجد بن يوسف وذو النقص في الدنيا بذي الفضل مولع

حيث قال:

وإذا أتاك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني فاضل

وفيما ورد من الحديث (الحزم سوء الظن) وقولهم: الثقة بكل أحد عجز ويعتبران في كلام واحد من جهتين كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾[سورة مريم آية: ٤] فإذا نظر إلى أن مقام مباثة الشكوى لإلمام المشيب وانقراض الشباب يستدعى الإطناب، قدر أصل الكلام شِخْتُ، وفيه خواص منها دلالة التجدد مع التحقق لكونها فعلية وماضياً ولدلالة أن القصد به إلى مجرد الإخبار لعرائها من المؤكدات، ثم في الدرجة الثانية ضَعُفَ بَدَنِي وشَابَ رَأْسِي، وهي أعلى لانقلابها إلى جملتين وصلتا للجامع العقلي لأنهما مسببان عن الشيخوخة، والخيالي نظراً إلى البدن والرأس، ولمكان الكناية في كل منهما على سبيل الرمز أو فيهما على الإيماء؛ ثم الإضافة في بدني للاستغناء عن تفصيل الأعضاء وفي رأسي لتعينها، ولا طريق سواها، ثم في الثالثة: وهنت عظام بدني واشتعل شيب رأسي وهى أبلغ لأن الكناية الأولى انقلبت تلويحية لتدرجها إلى لازم آخر، والثانية الرمزية إلى الاستعارة المصرحة التبعية أو المكنية على رأي الشيخ أو التمثيلية على رأي جار الله، ثم الرابعة وهنت العظام من بدني واشتعل الشيب من رأسي وهي أوغل للإبهام والتبيين والتعريض يحتمل الجنس والعهد ويحتمل (من) أن تكون ابتدائية أو تجريدية، ثم في الخامسة وهنت العظام مني واشتعل رأسي شيباً وهي أفحم؛ لأن التجريد في الأولى انقلب من البدن إلى نفسه وزيد الإبهام في الثانية؛ لأن وزانه حينئذ وزان قوله واشتعل بيته ناراً، ثم النكرة إما للنوع أو التفخيم، ثم في السادسة وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً وهي أشمل لتوهين كل فرد فرد من العظام وكمال اشتعال تلك الحقيقة منه، ثم في السابعة أنا وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً وهي أقوى للتركيب السببي ولانقلاب التجدد إلى نوع ثبوت، ثم في الثامنة إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً، وهي أدخل لدخول إن الطلبية أو الإنكارية، ثم في التاسع يا ربي إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً وهي أوفق لدلالة (يا) على الاستقصار وربي على الاستعطاف وإذا نظر إلى ضيق المقام يستدعي الإيجاز، قدر الأصل يا رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً وكنت وكنت، ثم ربي إني بحسب المقام وهلمّ جرّا إلى أن يتصل إلى قوله شخت، ثم إنك إن تصفحت في المعاني والبيان وتفحصت أكثر البديع وجدتها من الإيجاز والإطناب موضع بمنـــزل فَصَحَّ ما حُدَّ.

الطلب

وهو أيضاً مستغن عن التحديد لتقابله الخبر، ولابد للطلب من تقدم تصور المطلوب إجمالاً كشيء ما، أو تفصيلاً كإنسان، ومن أن لا يكون المطلوب حاصلاً عند الطلب، **وهو نوعان**: نوع لا يستدعي إمكان حصول المطلوب كالتمني، وآخر يستدعيه، وهو إما لطلب ما في الخارج لينقش في الذهن مثله كالاستفهام، أو ما في الذهن ليحصل في الخارج مطابق له، وهو إما للاستعلاء كالأمر والنهي، أو أعم كالنداء وفيها أبحاث:

أولها في التمني وأداته ليت نحو: ليت الشباب يعود، وقول الكافر: ﴿**يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا**﴾[سورة النبأ آية: ٤٠] وقد يجيء فيما يمكن حصوله استعظاماً للمطلوب كما خاطب أبو فراس سيف الدولة بقوله:

فليتك تحلو والحياة مـريـدة ... وليتك ترضى والأنـامُ غِضَـابُ

ولـيت الذي بيني وبينـك عامرٌ ... وبيني وبين العالمـين خَـرابُ

طلب الرضى في حال لا يتوقع ولا يطمع فيه مترقباً، وقولك لمن مهمك يهمه ليتك تحدثني، يمتنع إجراء التمني على أصله، والحال ما ذكر فولد معنى السؤال وأما نحو هل في قولهم: ﴿**فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ**﴾[سورة الأعراف آية ٥٣] حين لا يمكن الشفيع فللتوليد، وكذا في نحو لو تأتيني فتحدثني بالنصب لما فيه من تقدير غير الواقع واقعاً، وأما حروف التقديـم والتخصيص مثل هلا أكرمت زيداً أي ليتك تكرمه، ولولا ولوما، وإلا فمركبة مأخوذة منهما، وأما لعلّ نحو: لعلّي أحجّ فأزورك بالنصب لبُعد المرجو عن الحصول فمبالغة.

وثانيهما: في الاستفهام فمن أدواته الهمزة وهي تعمّ التصور والتصديق فلطلب المسند إليه كقولك: أدبس في الإناء أم عسل؟ والمسند نحو: أفي الخابية عسلك أم في الزق؟

وللتصديق: أحصل الانطلاق؟ وأزيد منطلق؟ واختصّت مع أخواتها بالصدر لكون المطلوب بها مهتماً بشأنه، وإذا سلكت مع التقديـم فليحتط، فلا يجوز أزيداً ضربت؟ ولا أأنت ضربت زيداً؟ سائلاً عن الفعل لاستلزام التقديـم وجود الفعل والسؤال عدمه، وعليه قوله تعالى: ﴿**أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ**﴾[سورة التوبة آية: ٦٥] خطاهم موقع الاستهزاء حيث جعل المستهزأ به يلي حرف التقرير وذلك إنما يستقيم بعد

وقوع الاستهزاء وثبوته، ولا ترض: أزيداً ضربت أم لا؟ أو أأنت ضربت زيداً أم لا؟ لاحتمال الشك في الفعل، وترضى أن يقال أزيداً ضربت أم غيره؟، أو أأنت ضربت زيداً أو غيرك؟، لزوال الاحتمال.

ومتى امتنع إجراء الهمزة على أصلها تولد منها ما ناسب المقام، فللتقرير كقولك لمن جاءك: أجئتني؟ ويحذى به حذو الإثبات ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [سورة الأنبياء آية: ١٢] ولم يقولوا لأن يقرّ بأن كسر الأصنام قد كان، ولكن بأنه منه، فأجاب بل فعله كبيرهم، قال أبو العلاء:

أفوق البدر يوضع لي مهاد   أم الجوزاء تحت يدي وساد

وقولك لمن يسيء الأدب: ألم أؤدّب فلاناً؟ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ﴾ [سورة المرسلات آية: ١٦] أفاد التهديد والوعيد والإنكار كقولك لمن يؤذي الأب: أتفعل هذا؟ أي أتستحسن هذا؟ أفاد التوبيخ والزجر، ولمن يتصلف: ألا أعرفك؟ أفاد التعجب والتعجيب، ولمن بعثته إلى مهم ولم يمضِ: أما ذهبت؟ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾[سورة الحديد آية: ١٦] أفاد الاستبطاء والتحضيض وينسج بالإنكار على منوال النفي فليقل في إنكار نفس الفعل أضربت زيداً، أو أزيداً ضربت أم عمراً؟ فإذا أنكر تردد الضرب بينهما تولد منه إنكار الضرب بوجه برهاني لاستلزام الضرب محلاً، فإذا نفى المحل نفي الحال، وعليه قوله تعالى: ﴿آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ﴾[سورة الأنعام آية: ١٤٣] وفي أن المخاطب ضارب: أنت ضربت زيداً؟ وفي أن زيداً مضروبه: أزيداً ضربت؟، وعليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ ولا تغفل عن التفاوت في الإنكار فقدره في التوبيخ في نحو أعصيت ربك؟ لم كان العصيان؟ وفي التكذيب في نحو: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ﴾[سورة الإسراء آية: ٤٠] لم يكن الاصطفاء، وفي الردع في نحو: أتذهب في غير الطريق؟ أي لا ينبغي أن يكون.

وهل: وهي تختصّ بطلب التصديق، نحو هل حصل الانطلاق؟ وهل زيد منطلق؟ ومن ثم امتنع هل عندك عمرو أم بشر؟ على الاتصال دون الانقطاع لحصول النسبة هل رجل عرف، وهل زيداً عرفت لدلالة التقديـــم على حصول الفعل، ولم يقبح هل زيداً عرفته؟ لاحتمال التأكيد، وتخصيص المضارع بالاستقبال، فامتنع هل تضرب زيداً؟ وتريد به الحال، فلما اختصّت بهما وهما زمانيان استلزم مزيد اختصاصها بالفعل ولذا كان قوله:

﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ أوكد في طلب الثبوت من فهل تشكرون وهل أنتم تشكرون لصريح الفعل فيهما، ومن أفأنتم تشكرون؟ لأن العدول إلى لا مقتضاها للتصميم على الثبوت.

وقد يتولد منه التوبيخ كقولك لمن يهجو أباه: هل تهجو إلا نفسك؟ والاستبطاء في قولك للغلام: هل أنت منطلق؟ أي الناس قد انطلقوا فما وقوفك؟

والحثّ والانبعاث، قال تأبط شراً:

هل أنت باعث دينار لحاجتنا أو عبد رب أخا عون بن مخراق

والاستقصار والتبصير، قال تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[سورة المائدة آية: ٩١] وهو أبلغ من صريح النهي لما أنه ذكر عقيب الصوارف أي بين ما يوجب الانتهاء فما بالكم مصرّين على العناد، فإن المتصف إذا تجلّت له الحجة لم يتوقف إذعانه ورعاية الأدب قال:

فهل أنت يا ابن الراشدين مختمي بياقوتة تنمى إليّ وتشـرق

حيث احترز عن ظاهر الاستعلاء.

وإظهار التحيرُّ قال:

بدا فراغ فؤادي حسن منظره فقلت هل مَلكٌ ذا الشُّخص أم مَلَكُ

والتمني، قالت:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

و(ما) وهي والبواقي للتصور، ويسأل بها عن الجنس نحو: ما عندَك؟ أي: أيُّ أجناس الأشياء عندك، وجوابه إنسان أو فرس.

وعن الوصف، ما زيد؟ وجوابه: الكريم أو الفاضل. ومن الاعتبارين سؤال فرعون وما ربّ العالمين؟ تحتمل أنه قد سأل عن جنس الإله مبنياً على التشبيه وحين كان -عليه السلام- عالما بالتقديس أجاب بالوصف جوابه الحكيم، قال ربّ السموات تنبيها به على النظر المؤدي إلى العلم، فلما لم يتطابق عنده أنكر وقال ألا تسمعون؟ أو عن وصفه لزعمه الشركة فيه حيث ادّعى ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾[سورة النازعات آية: ٢٤] واستمر القبول واشتهر به ولذا عقبوا قولهم[1]: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[سورة الشعراء آية: ٤٧] بقولهم:

(١) أي: السحرة. وعبارة الإيضاح: لشهرته بينهم برب العالمين، إلى درجة دعت السحرة إذا

﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾[سورة الشعراء آية: ٤٨] دفعاً للاحتمال فلما ميّزه موسى جنّنه[1] وقد يجيء للاستعظام نحو قولهم زوجي أبو زرع وما أبو زرع؟ أناس من حلي أذني، وملأ من شحم عضدي، جعلته لانقطاع قرينه، وعدم نظيره، كأنه شيء خفي عنها.

وللتعجب كقولهم: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾[سورة الفرقان آية: ٧] كأنهم تعجبوا أن الرسول كائن من جنس البشر.

وربما استعملت في ذوي العلم وأريد بها الوصفية لا غير قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾[سورة الشمس آية: ٧] أوثرت ما لإرادة الوصفية أي سبحان القادر العظيم الباهر القدرة الذي سوى مثل هذه النفس العجيبة الشأن.

و(مَنْ) يسأل بها عن ذوي العلم، قال صاحب الكشاف: لو قيل: من تعبدون لم يعمّ إلا أولي العلم وحدهم: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا﴾[سورة طه آية ٤٩] أي مالككما ومدبّر أمركما فأجاب بقوله: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[سورة طه آية: ٥٠] أي نعم، لنا رب عالم بما يحتاج إليه كل أحد من الارتفاق، ثم أعطاه ما يرتفق به، أو هو عالم بمقتضى الخليقة من الصورة والشكل، ثم أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة [به]، ثم عرّفه كيف يرتفق به وكيف يتوصل إليه، ويتولد منه الاستخفاف، كما قيل ﴿مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا﴾[سورة الأنبياء آية ٥٩].

و(كيف) يسأل بها عن الحال نحو كيف زيد؟ وجوابه صحيح أو سقيم ويتولد منه التعجب، والتعجيب، قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[سورة البقرة آية: ٢٨] وتحقيقه أنّ كيف، لما كال للحال، وللكفر مزيد اختصاص بحالتي العلم بالصانع والجهل به توجه إليهما واختصّ بالعلم لقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ ورجع المعنى كيف تكفرون والحال حال العلم أي هذه الحالة تأبى أن يجتمع مع الكفر فصدوره عن القادر مع هذا الصارف القوي مظنة تعجب وتعجيب وعلى هذا كم وأين وأنى ومتى وأيان وأي.

=

عرفوا الحق أن عقبوا قولهم: "آمنا برب العالمين" بقوله: "رب موسى وهارون"، نفياً لاتهامهم الإيضاح ص ٨٠.

(١) أي قال: "إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون.

وثالثها في الأمر: وهو اللفظ الطالب للفعل، ثم الآمر إن كان أعلى رتبة من المأمور وطلب ما يقصد حصوله أفاد الوجوب إن منع تركه. نحو ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا**﴾ [سورة البقرة آية ٢١]. أو الندب إن لم يمتنع نحو ﴿**وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ**﴾ [سورة النور آية: ٣٢].

أو طلب ما لم يقصد حصوله أفاد التحدّي إن كان لتعجيز المأمور نحو: ﴿**فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِه**﴾[سورة البقرة آية: ٤٣]، والوعيد إن كان المأمور مسخوطاً عليه نحو ﴿**وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾[سورة الكهف آية: ٢٩] وقوله صلوات الله عليه[١]: «**إذا لم تستح فاصنع ما شئت**» وإن كان أدنى أفاد التضرّع والدعاء نحو: اللهمّ اغفر لنا وارحمنا، وإن كان مساوياً أفاد الالتماس.

والنهي محذو به حذو الأمر في أن الأصل طلب ترك الفعل وفي متفرعاته ونحو قوله تعالى: ﴿**لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلاَدِ**﴾[سورة آل عمران آية: ١٩٦] نهي للتقلب وهي في الحقيقة للمخاطب لتنـزيل السبب وهو التقلب منـزلة المسبب وهو الغرور، ونحو قوله تعالى: ﴿**فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ**﴾[سورة البقرة آية: ١٣٢] نهى عن أن تموتوا على غير حالة الإسلام وذلك ليس بمقدورهم، والمراد الأمر بالثبات عليه واللزوم له.

وإذا كان المطلوب حاصلاً كان الطلب للاستمرار نحو قولنا: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ وقد يأمر المتكلم نفسه تجريداً كما في قراءة ابن عباس: ﴿**وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعْهُ**﴾ [سورة البقرة آية: ١٢٦] على لفظ الأمر والعامل الله، أي: قال الله فأمتعه يا قادر.

واعلم أن هذه الأبواب الأربعة تشترك في الإعانة على تقدير الشرط أما قوله: ﴿**فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي**﴾[سورة مريم الآيتان: ٥، ٦] بالجزم فمنـزل على أن تهب لي يرثني وبالرفع فالجمهور[١] على الوصف، والشيخ[٢] على الاستئناف لئلا يلزم أنه لم يوهب ما وصف لهلاك يحيى قبل زكريا عليهما السلام، وأجيب أنه لازم على التقادير لترتيب الطلب على الوصف المناسب بالفاء، على أن الاستئناف أيضاً رابط معنوي،

---

(١) رواه ابن ماجه في الزهد: عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إن مما أدرك الناس من كلام النبوّة الأولى، إذا لم تستح فاصنع ما شئت" الحديث ٤١٨٣ جـ٢ ص١٤٠٠.

(١) الزمخشري.

(٢) وهذا أيضا رأي السكاكي. انظر الإيضاح ص ٨٤.

والصحيح أن الأنبياء وإن كانوا مستجابي الدعوة، لكن ليس كل ما دعوه استجيب لهم، ألا ترى إلى سيدهم كيف قال: «**سألت الله ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة**» وهي أن لا يذيق بعض أمته بأس بعض فإهدار دم سبعين ألفاً على دم يحيى كإهدار دم نحوه من هذه الأمة على دم عثمان ﷺ ﴿**لِّيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً**﴾[سورة الأنفال آية: ٤٢].

رابعها: في النداء وأداته الهمزة، وأي للقريب، ويا للبعيد أو من هو بمنـــزلته إما لأن المدعو بليد ساه، قال الفرزدق:

فانعق بضأنك يا جرير فإنما مَنَّتْك نَفَسْك في الخلاء ضلالا

أو لأن الخطاب المتلو معنٌّ به قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ**﴾ [سورة البقرة آية: ٢١] ليتفطن له.

أو لإظهار الحرص بوقوعه على إقبال المدعو نحو ﴿**يَا مُوسَى أَقْبِلْ**﴾[سورة القصص آية: ٣١].

أو لانحطاط شأن المدعو نحو قولك: يا هذا إن البعاث بأرضنا يستنسر وقول فرعون: ﴿**إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا**﴾ [سورة الإسراء آية ١٠١].

أو لارتفاع شأنه كما يقال في الجؤار: يا رب لاستقصار النفس، وأما قوله ﷺ: (أنت أعلم) أي رب فلمقام الاستغراق.

وقد تنادي النفس تجريدًا قال الأعشى:

وهل تطيق وداعا أيها الرجل

كأنه جرّد نفسه عنها ثم خاطبها، وعليه باب الاختصاص نحو: أنا أفعل كذا أيها الرجل، أي أنا متخصص بهذا الفعل من بين الرجال لما في ذلك الفعل من الصعوبة.

ويقال للمقبل: أقبل يا مظلوم زيادة لتقرير شكواه، ولمن لا تتصور منه الإقبال ﴿**يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ**﴾[سورة سبأ آية: ١٠] و﴿**يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ**﴾[سورة هود آية: ٤٤] وقال:

أيا جبلي نعمان بالله خليا طريق الصبا يخلص إلي نسيمها

للاستعارة المكنية أو التمثيلية، وقال الحماسي في الندبة:

يا خير من يحسن البكاء له اليوم، ومن كان أمس للمدح

لما أن المدعو كأنه حاضر لا يزول، بعيد لا يقبل.

تتميـــم:

وقد يُخرَّجُ الخبر في معنى الطلب ويعكس:

فالأول قولك: أعاذك الله من الشبهة وعصمك من الحيرة، تفاؤلاً لدلالة الماضي على حصول المطلوب، وقولك: رحمه الله وﷺ إظهاراً للحرص على وقوع المطلوب، وقول العبد للسيد: ينظر المولى إلي ساعة احترازاً من صورة الاستعلاء، وقول الأدباء: تأتيني غداً أو لا تأتيني تفادياً عن أن لا ينسب إلى مخالفة الأمر والتسخط على المأمور إن لم يمتثل.

وإليه ينظر قول الفضل في جواب سائل: أكره أن أقول نعم فأكون ضامناً أو لا فأكون مؤيساً ولكن ننظر فيسهل الله.

ومنه قوله تعالى: ﴿**هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ* تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ**﴾[سورة الصف الآيتان ١٠، ١١] حمل المخاطبين على الإيمان والجهاد، وقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ**﴾[سورة البقرة آية: ٨٣] قصد إلى أن المأمور كأنه سارع إلى الامتثال فهو يخبر عنه.

والثاني قول كثير:

أَسيئي بنا أو أَحْسِني لا مَلُومة ... لدينا ولا مقْلّية إن تَقَلَّت

يظهر الرضاء بإساءة المحبوبة وإحسانها، أي: لا تتفاوت محبتي بإحسانك وإساءتك، ومنه قوله تعالى: ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَّغْفِرَ اللهُ لَهُمْ**﴾[سورة التوبة آية: ٨٠] أي لا ترى اختلافاً بين حالتي الاستغفار وتركه، وقولـــه تعالى: حكاية عن هود عليه السلام: ﴿**إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ**﴾[سورة هود آية ٥٤] ولم يقل وأشهدكم لتوازي شهادة الله تهاوناً بهم.

وقوله تعالى: ﴿**قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ**﴾[سورة الأعراف آية ٢٩] لم يقل وإقامة وجوهكم تأكيداً لمكان العناية بالصلاة.

وقراءة ابن عباس: ﴿**وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مَن فِرْعَوْنَ**﴾ [سورة الدخان آية ٣١،٣٠] بياناً لشدة العذاب أي: هل تعرفون فرعون من هو فما ظنكم بعذاب يكون المعذَّب به مثله، والأمر في باب التعجب نحو: أكرم بزيد على أنه بمعنى الخبر والهمزة من قبيل ذي كذا والباء زيادة منخرط في هذا السلك.

والله أعلم بالصواب.

علـــم البيــــان

هو معرفة إيراد المعنى الواحد في الطرق المختلفة الدلالة بالخفاء على مفهومها تفادياً عن الخطأ في التطبيق لتمام المراد.

نعني بتمام المراد: كنه ما يقصده البليغ من المبالغة، وبالمعنى الواحد ما يقتضيه علم المعاني، وبالطرق التراكيب، وإنما قيد الدلالة بقوله على مفهومها احترازاً عن دلالات الألفاظ المترادفة المختلفة بالخفاء؛ لأن خفاءها ليس باعتبار مفهوم التركيب، بل باعتبار منطوقها لقلة دورها على الألسنة، وذلك غير مجدٍ في المبالغة، وإنما أعرضنا عن ذكر الوضوح، لأن الغرض من ذلك الإيراد المبالغة، وهي إنما تحصل من خفاء الدلالة، وكلما ازدادت خفاء ازدادت مبالغة، مثاله أنا إذا أردنا إيراد معنى قولنا: زيد جواد مثلاً في الأصول الثلاثة نقول:

في طرق التشبيه زيد كالبحر في السخاوة، وزيد كالبحر، وزيد بحر.

وفي طرق الاستعارة رأيت بحراً في الدار، ثم لجّة زيد كثرت، ثم لجّة زيد متلاطم أمواجها.

وفي طرق الكناية: زيد مضياف، وزيد كثير أضيافه، وزيد كثير رماده، ثم إن الرماد كثر في ساحة زيد، ثم إن الجود في قبة ضربت على زيد، ثم إنه مصوّر عن الجود كما ستقف على تفاصيل ذلك شيئاً فشيئاً بعون الله تعالى، فظهر من هذا البيان أن مرجع البيان إلى اعتبار المبالغة في إثبات المعنى للشيء وذلك إما على طريقة الإلحاق أو الإطلاق، والثاني إما إطلاق الملزوم على اللازم أو عكسه، وما يبحث فيه عن الأول التشبيه وعن الثاني المجاز، وعن الثالث الكناية، فرتبنا الكلام على ثلاثة أصول.

الأصل الأول في التشبيه:

وهو وصف الشيء بمشاركته الآخر في معنى، وهو يستدعي خمسة أشياء: الطرفين ليحصل، والوجه ليجمع، والغرض ليصحّ، والأحوال ليحسن، والأداة لتوصل، وفيه خمسة فصول.

الفصل الأول في الطرفين

المشبه والمشبه به إما حسيّان وذلك في المبصرات، قال الصنوبري:

ما الدَّهر إلا الـربيع المستنير إذا ... أتـى الربيع أتـاك النَّوْرُ والنُّور
فالأرض فَيْرُوزجٌ والجـو لؤلؤةٌ ... والروض ياقوتةٌ والمـاء بَـلّور

وفي المشمومات قال التهامي:

لو لم يكن أقحوانا ثَغْرُ مَبْسمها ... ما كان يزداد طيباً ساعة السحر

وفي المذوقات قال:

كأنّ عـلى أنيابـها الخمر شَجَّها ... بماء الندَّى مـن آخر الليَّل غابق
وما ذقته إلا بـعيني تفـرسًـاً ... كما شيم من أعلى السَّحابة بارقٌ

وفي الملموسات قال:

حتى إذا مالت بـه سِـنْة الكَرىَ ... زحزحته عـنيّ وكـان مُعَـانقي
أبـعدتـه عـن أضلع تشتـاقه ... كيلا يبيت عـلى فـراش خافق

وفي المسموعات قال أبو الطيب:

ودع كل صوت بعد صوتى فإنني ... أنا الصائح المحكيُّ والآخرُ الصَّدا

وقد يركب بعضها مع بعض قال ابن كثير:

وما روضـة بالحزن طيبة الثَّـرى ... يمجُّ الندى جَثْجَاثُها وعـرارهـا
بأطيب مـن أردان عـزة موهنا ... وقد أوقدت بالمندل الرطْب نارها
كـأن عـلى أنيابهـا بعد هَجْعَة ... إذا ما نجوم الليل حان انحدارهـا
مُجَاجَـة نَحْل صُفقّـت بمدامـة ... مُقَطَّرة صهباء طاب اعتصارهـا
أُديف عـليها المسكُ حـتى كأنما ... لطيمـة داري يـفتق فـارُها

وقال أبو تمام:

ونغمة مُعْتف جَدْوَاهُ أحـلى ... على أُذُنَيْه من نغـم السـّمَاع

وقال الآخر:

نسيم عبير في غلالة ماء ... وتمثال نور في أديم سماء

وإما عقليان، قال:

أخو العلم حي خالد بعد موته وأوصاله تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى يظن من الأحياء وهو عديم

وإما حسي وخيالي، قال:

وكأنّ مَحْمَر الشَّقيق إذا تصوَّب أو تصعَّد
أعلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد

وإما وهمي وحسي، قال البحتري يصف بركة:

تنصب فيها وفود الماء معجلة كالخيل خارجة من حَبْل مُجْريها

وإما عكسه، قال امرؤ القيس:

أتَقْتُلُني والمَشْرقيُّ مضاجعي ومسنونَةٌ زرَقٌ كأنياب أَغْوال

وإما عقلي وحسي، قال أبو العلاء:

وكالنار الحياة فمن رمادٍ أوَاخرها وأولها دُخَان

وعكسه، قال أيضاً:

ومَمْتحن لقَاءك وهو موتٌ وهل يُنْى عن الموت امتحانُ

الفصل الثاني في الوجه

هو أمر يشترك فيه الطرفان وهو إما واحد حقيقة أو حكماً أو متعدد.

فالأول إما حسي وطرفاه حسيان ويؤتى بهما على النسق قال ابن سكرة:

الخد ورد والصدغ غالية   والريق خمر والثغر من برد

وقال أبو الطيب:

بدت قمراً ومالت خوط بان   وفاحت عنبراً ورنت غزالاً

ويسمى مفرقاً، أو على اللف، قال أيضاً:

رأيت الحميا في الزجاج بكفه   فشبهتها بالشمس والبدر في البحر

وقد تثنى اللف. قال البحتري:

تبسم وقطوب في ندى ووغى   كالرعد والبرق تحت العارض البرد

أو يؤتى للمشبه المتعدد بالمشبه به قال:

صدغ الحبيب وحالي   كلاهُما كالليالي
وثَغْرُهُ في صَفَاءٍ   وأدْمُعي كالآلي

ويسمى تسوية، أو عكسه قال البحتري:

فهي كالشمس بهجة والقضيب اللدَّن   قدًّا والريم طرفًا وجِيَدا

ويسمى جمعاً.

وإما عقلي وطرفاه حسيان، قال ﷺ: «**مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح عليه السلام من ركب فيها نجا ومن تخلف عنها غرق**».

وقال ﷺ: «**مثل أصحابي مثل النجوم من اقتدى بشيء اهتدى**» شبهوا بالسفينة والنجوم في مطلق حصول النجاة والاهتداء، قال الحماسي:

هَيْنون لَيْنون أيْسارُ ذوو يُسُر   سواس مكرمة أبناء أيسار
من تلق منهم تَقُلْ لاقيت سيدّهم   مثل النجوم التي يسري بها الساري

وإما عقلي وطرفاه عقليان، قال:

أخلاقه نكت في المجد أيسرها   لَطفُ يُؤلّف بين الماء والنار
لو زرته لرأيت الناس في رجل   والدهر في ساعة والأرض في دار

وإما عقلي وحسي قال أبو فراس:

كأن ثباته للقلب قلب وهيبته جناح للجناح

أو عكسه قال ابن بابك:

وأرض كأخلاق الكرام قطعها وقد كحل الليل السماك فأبصرا

ولا يبعد أن يعدّ الوجه في المشبه به هذا خيالياً تشبيهاً للأخلاق بالأماكن الواسعة وتخييلاً لها سعة، ومثله قال التنوخي:

فانهض بنار إلى فحم كأنها في العين ظلم وإنصاف قد اتفقا

فإنه -صلوت الله عليه- لما وصف الظلم بقوله: "**الظلم ظلمات يوم القيامة**"، وأنه -تعالى- نعت العدل بالنور بقوله: ﴿**وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا**﴾[سورة الزمر آية:٦٩] خيّلهما الشعر شيئين لهما إنارة وإظلام وجعلهما مشبهاً بهما وأما قوله تعالى: ﴿**هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ**﴾[سورة البقرة آية: ١٨٧] فيحتمل الوجه أن يكون حسياً بحيث إن الرجل والمرأة في المعانقة كاللباس المشتمل، وأن يكون عقلياً على معنى أن كلاً منهما يصون صاحبه من الوقوع في الفضيحة كاللباس الساتر.

واعلم أن الوجه في الحسي يرجع إلى العقلي؛ لأنه كلي منتزع من أمرين محسوسين، وفي التسمية تسامح.

والثاني: وهو أن يكون الوجه في حكم الواحد، وهو إما حسي قال أبو البركات.

ترى أنجم الجوزاء والنجم فوقها كباسط كَفّيه ليقطف عنقودا

وليس المراد تشبيه الجوزاء بالكف والثريا بالعنقود فقط، وإنما المراد تشبيه الهيئة الحاصلة من النجوم المجتمعة على هيئة الكف الباسطة لقبض النجوم كهيئة العنقود، قال أبو العلاء:

وقـد بسطت إلى الغرب الثريا يـدا غُلقـت بـأنملها الرهان
كـأن يمينها سرقتـك شيئـاً ومقطـوع عـلى السَّرق البنان

زعم العرب أن الثريا لها كفّان: الخضيب وهي مبسوطة، والجذماء وهي مقبوضة، والجذم القطع، وقال الآخر:

كأن شعاع الشمس في كل غدوة على ورق الأشجار أول طالع
دنانير في كـفِّ الأشل يضمُّها لقبض وتهوي من فُرُوج الأصابعِ

شبّه الهيئة الحاصلة من الشمس في أول طلوعها عند هبوب النسيم فإنها حينئذ تثقبها بإشراقها الكوى والفرج بخلاف ما إذا أخذت في الاستواء على ورق الأشجار المضطربة، بسبب تموج الهواء بالهيئة الحاصل من الدنانير المجلوّة في كفّ الأشل حين يهمّ بالقبض عليها فيمنعه الحركة الغير الطبيعية فتهوي الدنانير من فروج الأصابع ناثرة على غير النظام.
وقال:

كانت سراج أناس يهتدون بها في سالف الدهر قبل النار والنور
تهتز في الكأس من ضعف ومن هرم كأنها قبسٌ في كفِّ مقرور

شبّه الهيئة الحاصلة من حركة الخمر، وانعدامها بانعدامها ومنع الكأس إياها عنه مع شروق أشعتها، بالهيئة الحاصلة من النار الضعيفة في كف من أصابه البرد الشديد وهو يريد أن يصونها من الانطفاء، وتحتمل أن تؤخذ مجرد الحركة فيهما مع الإشراق فلا تكون فيها دقة، وهذان البيتان مما بلغا الغاية التي لا أمد فوقها.

وقال سعيد بن حميد:

حُفَّت بسرو كالقيان ولُحِّفت خُضر الحرير على قوام معتدل
فكأنها والريح جاء يميلها تبغي التعانق ثم يمنعها الخجل

وفي قوله: تبغي التعانق لطيفة، وهي أن حركة تهيؤ الشجرة للاعتناق أبطأ من رجوعها إلى أصل الافتراق، كذلك حركة من يدركه الخجل فيرتدع أسرع من حركته إذا همّ بالدنو؛ لأن إزعاج الخوف أقوى من إزعاج الرجاء، وقد أبدع الجدلي في قوله:

لدى أقحوانات حففن بناصع من الورد مخضرِّ الغصون نضيد
تميلها أيدي الصّبا فكأنها ثغورٌ هوت شوقاً لعض خدود

وإما عقلي: قال -صلوات الله عليه-: «**إياكم وخضراء الدمن ...**» يريد بها المرأة الحسناء في المنبت السوء شبهها بخضراء الدمن في حسن المنظر المنضم إلى سوء المخبر، وقالت الأنمارية[1] لما رأت مراتب بنيها متدانية في الفضل: ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها، أي لتناسبهم في الشرف يمتنع تعيين بعضهم عن بعض، وقد أبدع أبو تمام كل الإبداع في قوله:

---

(١) فاطمة بنت الخرشب.

خلط الشجاعة بالحياء فأصبحا كالحسن شيب لمغرم بدلال

وإما وهمي وهو أن يكون الوجه منتزعاً من عدة أمور ويسمى تمثيلاً، قال ابن المعتز:

اصبر على مضض الحسود فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

فإن تشبيه الحسود المتروك مقاولته فيسرع فيه الغيظ والحنق بالنار التي لا تمد بالحطب فيسرع فيها الفناء، ليس إلا في أمر متوهم منتزع من عدة أمور. قال ابن عبد القدوس:

وإن من أدَّبته في الصِّبا كالعود يسقى الماء في غرسه
حتى تراه مونقاً ناضراً بعد الذي أبصرت من يُبسه

وعليه قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾[سورة البقرة آية: ١٧] فإن الوجه هو رفع الطمع إلى تيسير مطلوبهم بسبب مباشرة أسبابه القريبة مع تعقب الحرمان لانقلاب الأسباب وهو أمر توهمي، والذي نحن بصدده كثيراً ما يلتبس بالحقيقي.

والفرق أن الحقيقي معانٍ مستقلة، والتمثيلي مستند إلى قصة متوهمة أو شبهها ومن ثم لو اختل من تلك الأمور شيء اختل التشبيه، قال الشاعر:

كما أبرقت قوماً عطاشاً غمامةٌ فلماَ رأوها أقْشَعتَ وتَجلّت

فإن مجرد قوله أبرقت قوماً عطاشاً غمامة ليس تشبيهاً مستقلاً؛ لأن الغرض في الوصف هو الابتداء المطمع المؤدي إلى الانتهاء المؤيس، ولا يتم هذا إلا بجملة البيت، ومن ثم قال جار الله في قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾[سورة البقرة آية: ٢٦٥] حين جعل الوجه عقلياً ومثل نفقة هؤلاء في زكاتها عند الله كمثل جنة، وحين جعل الوجه منتزعاً من عدة أمور متوهمة، قال: أو مثل حالهم عند الله بالجنة على الربوة ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل، وكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكل الجنة فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة، بعد أن يطلب بها وجه الله زاكية عند الله زائدة في زلفاهم فاعتبر في الثاني معان متعددة متوهمة، وفي الأول الزكاة فليتدبر.

والثالث: وهو أن يكون الوجه أموراً، وذلك إما حسي كلها، قال المطراني:

مهفهفة لها نصف قضيف كخُـوط البان في نصـف رداح
حلت لونـاً ولـيناً واعتـدالاً ولحظاً قاتـلاً سُمْـرَ الـرّمَـاح

وإما عقلي كلها قال أبو العلاء:

والخِلُّ كالماء يبدي لي ضمائره مع الصَّفاء ويُخْفيها مع الكدر

وإما مركب منهما قال الشيخ ابن الفارض:

لها البدر كأس وهي شمس يديرها هلال وكم تبدو إذا مزجت نجم

شبه الكأس بالبدر في الاستدارة، وفي اقتباس النور، وفي استفادة التسمية عند الكمال، والمدامة بالشمس في الإشراق وفي إفاضة النور، والساقي بالهلال في سرعة الدوران وفي استجلاب النواظر، والحبيب بالنجم في الهيئة المخصوصة، وفي أنها تحدث بواسطة المزج الكاسر لبعض سورتها كما أن ضوء النجم إنما يبدو إذا احتجب سلطان الشمس.

تتميم:

واعلم أن من حق الوجه أن يشمل الطرفين كما إذا جعل الوجه في قولهم: النحو في الكلام كالملح في الطعام، الصلاح باستعماله والفساد بإهماله دون أن تعتبر القلة منه والكثرة، ومن ثم عاب ابن الرشيق القيرواني: قوله:

غيري جنى وأنا المعاقب فيكم فكأننـي سبابـة المتندم

وقد ادّعى الإبداع، وقال أخذت من النابغة حيث خاطب النعمان:

كلفتني ذنب امرئ وتركته كذي العُرِّ يُكْوَى غيره وهو راتعُ

وأفسدت لأن سبابة المتندم أول شيء يتألم منه فلا يكون المعاقب غير الجاني بخلاف الثاني فإن المكوي يتألم وصاحب العر لا.

وقد يعتبر في القسم الثاني مجرد الهيئة دون الأوصاف قال ابن المعتز:

وكأن البرق مصحفُ قارٍ فانطباقاً مَرَّةٍ وانفتاحـا

ولم ينظر إلى شيء من أوصاف المشبه والمشبه به سوى الهيئة من انبساط غِبَّ انقباض، كما اعتبر مجرد الصفة دون المقدار أيضاً في قوله:

والليل كالحُلةّ السوداء لاح به من الصَّباح طرازٌ غير مرقوم

فإن تفاوت المقدار بين الصبح والطراز في الامتداد والانبساط شديد ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالعُرجُونِ الْقَدِيمِ﴾[سورة يس آية: ٣٩] شبه في هيئة نحوله وتقوسه بالعرجون لا في المقدار، لأن في مقدار الهلال عظماً في الحقيقة، أو العرجون في مرآة النظر أعظم منه.

وقولـه تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾[سورة آل عمران آية: ٥٩] من وجه فإن تشبيه عيسى بآدم عليهما السلام فيها في كونهما وجدا من غير أب وهذا القدر لا يمنع من إيراد التشبيه، فإن المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف.

وقد يسمى ملزوم الوجه وجهاً تسهيلاً على المتعاطي، كما إذا شبّه فصيح الكلام بالعسل في الحلاوة، والحجة البينة التأليف بالشمس في الظهور واللازم ميل الطبع وإذابة الحجاب.

الفصل الثالث في الغرض

وهو ما يقصده المتكلم في إيراد التشبيه وذلك عائد إلى المشبه غالباً، وقد يعود إلى المشبه به، فالأول على وجوه:

أ – في بيان حاله كما إذا شبه ثوب بآخر في السواد إذا علم لون المشبه به دون المشبه.

ب– في بيان مقدار حاله في القوة والضعف، قال:

فأصبحت من ليلى الغداة كقابض · على الماء خانته فروج الأصابع

جـــ– في بيان وجوده كما إذا شبه معقول في الذهن بأحد أفراده في الخارج دلالة على وجوده نحو الكلمة كزيد ويسمى مثالاً.

د– في إمكان وجوده كما إذا أريد تفضيل فرد على نوعه وأنه كالممتنع في الظاهر فيجعل من نوع آخر ويستشهد له بالتشبيه، قال أبو الطيب:

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

أي المسك لا يعدّ من الدماء لما فيه من الخصلة التي لا توجد في الدم، أو كما قال ابن الرومي:

كم من أب قد علا بابن ذُرا شرف كما علا برسول الله عدنان

هـــ– تقرير حاله عند السامع قال ابن العميد:

ذي ملة يأتيك اُنبتّ عهده · كالخطّ يُرسُم في بسيط الماء

و- تقرير لحقيقة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾[سورة الأعراف آية ١٧١] قرر ما لم تجر به العادة بما جرت به العادة.

ز- إظهار التزين أو التشويه ليرغب فيه أو عنه، قال ابن الرومي:

تقول هذا مجاج النحل تمدحه ... وإن تعب قلت ذاقئ الزنابير

حـ- قصد استطرافه وذلك أن يكون المشبه به نادر الحضور كما إذا شبه الفحم فيه جمر موقد ببحر من المسك موجه الذهب، أو نادر الحضور مع ذكر المشبه، قال ابن المعتز:

ولا زَوَرْدِّية تزهو بزُرقتها ... بين الرِّياض على حمر اليواقيت

كأنها فوق قامات ضعفن بها ... أوائل النار في أطراف كبريت

ويحكى أن جريراً قال: أنشدني عدي:

عرف الديار توهُّما فاعتادها

فلما بلغ قوله:

تُزْجي أغَنَّ كأنَّ إبرة روقه

رحمته وقلت قد وقع، ما عساه يقول، فلما قال:

قلم أصاب من الدواة مدادها

استحالت الرحمة حسداً؛ لأنه رآه حين افتتح التشبيه بذكر ما لا يحضر له شبه في بدو الفكرة رحمه، وحين رآه ظفر بأقرب صفة من أبعد موصوف حسده.

وعلى منواله نسج ابن المعتز قوله:

قد أطلقت إبر القرون كأنها ... أخذ المراود من سحيق الإثمد

ومنه ما يحكى أن أبا تمام لما انتهى في قصيدته البائية إلى قوله:

يرى أقبح الأشياء أوبة آمل ... كسته يد المأمول حُلةً خائب

ثم قال:

وأحسن من نَوْرٍ تُفَتّحه الصَّبَا

ووقف يردده فإذا سائل بالباب يقول من بياض عطياكم في سواد مطالبنا فقال:

بياض العطايا في سواد المطالب

والثاني: وهو أن يكون الغرض عائداً إلى المشبه به وهو المسمى بالطرد والعكس،

ومرجعه إلى كون المشبه أتمّ من المشبه به في الوجه للمبالغة، لأن المشبه به حقه أن يكون أعرف بجهة التشبيه وأقوى، فإذا عكس كان مبالغة، قال المعري:

ظلمناك في تشبيه صدغيك بالمسك وقاعدة التشبيه نقصان ما يحكي

وقال آخر:

وبدا الصباح كأن غرّته وجه الخليفة حين يُمتَدحُ

فإنه تعمد إلى إيهام أن وجه الخليفة، في الوضوح أتم من الصباح، وقوله حين يمتدح تتميم، قال أبو عبادة:

في طلعة البدر شيء من محاسنها وللقضيب نصيب من تثنيها

فإن العادة أن تشبه حسن الطلعة بالبدر، والقدّ بالقضيب فعكس تفضيلاً لحسن الطلعة على البدر، والقدّ على القضيب، وفي قوله: شيء ونصيب تتميم على خلاف الأول.

وعلى ذا مورد ما يحكيه -عزّ وجلّ- عن مستحلّ الربا: ﴿**إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا**﴾ [سورة البقرة آية: ٢٧٥] في مكان إنما الربا مثل البيع، فجعلوا الربا في الحل أقوى من البيع وأعرف، ومنه قوله تعالى: ﴿**أَفَمَن يَّخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ**﴾[سورة النمل آية: ١٧] بدل أفمن لا يخلق كمن يخلق زيادة للإنكار، كقولهم في التوبيخ: السلطان كالسوقي لمن قل بتشبيهه به، أو المراد بمن لا يخلق العقلاء تعريضاً على تشبيه الأصنام بالله، ويكون قوله: ﴿**أفلا تتذكرون**﴾ تنبيهاً على مكان التعريض.

وربما يعود الغرض إلى بيان الاهتمام بالمشبه به ويسمى هذا إظهاراً للمطلوب، ولا يحسن إلا في مقام الطمع في تسني المطلوب.

وروي أن الصاحب لما مدح قاضي سنجستان بقوله: عالم يعرف بالسجزتي أشار إلى الندماء بالإجازة، فلما انتهت النوبة إلى شريف قال أشهى إلى النفس من الخبز فأمر بإحضار المائدة.

هذا كله إذا أريد إلحاق الناقص بالزائد حقيقة أو ادعاء، فإن أريد مجرد الجمع بين الشيئين، فالأحسن ترك التشبيه إلى التشابه، ويكون كل واحد من الطرفين مشبهاً ومشبهاً به، قال الصابي:

تشابه دمعي إذا جرى ومُدامتي فمن مثل ما في الكأس عيني تسكب

فوالله ما أدري أبالخمر أُسبِلت ... جفوني أم من عبرتي كنت أشرب

ومن الأسلوب قول الفخر عيسى:

قوامك أم غصن من البان ينثني ... وطلعة بدر أم ضيا وجهك السني

وريقك أم خمر يَلَذُّ لشارب ... ونبتُ عذارٍ نمّ أم نَبْتَ سوسن

الفصل الرابع في الأحوال

وهي كيفيات يحصل بها حسن التشبيه وقبحه، وقبوله وردّه، فأما أحوال الحسن فعلى وجوه.

أ - أن يكون التشبيه تفصيلياً؛ لأن المجمل أسبق إلى النفس والشيء بعد الطلب أعزّ من المنساق بلا تعب.

وهو إما تمثيلي، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾[سورة يونس آية: ٢٤].

فإنها تسع جمل متداخلة شبهت حالها العجيبة الشأن في ساعة نقضها وانقراض نعيمها واغترار الناس بها بحال ماء نـزل من السماء وأنبت أنواع العشب وزين بزخرفها وجه الأرض كالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة حتى إذا طمع فيها أهلها وظنوا أنها مسلمة من الجوائح أتاها بأس الله فجأة فكانت كأن لم تغن بالأمس.

أو مركب حسيّ قال ابن المعتز:

كأنّا وضوء الصُّبح يستعجل الدُّجى ... نُطِير غراباً ذا قوادم جُون

شبه ظلام الليل عند انفجار الصبح بغربان لها قوادم بيض، ثم جعل قوة ظهور الضوء ودفعه للظلام كأنه يستعجله، ثم راعى معنى الاستعجال في قوله: نطير غراباً لأن الطائر إذا أزعج كان أسرع منه في الطيران إذا كان عن اختيار منه.

وقد أحسن المتعصم في وصف استتار النجوم بالغيم حيث قال:

وليل كأن نجوم السماء ... به أعين رنقّت للهجُوع

ترى الغيم من دونها حاجباً ... كما احتجبت مُقلة بالدموع

وأحسن منه قول الآخر:

كأن دموعاً قصرت عن مسيلها حذَار الأعادي في جُفُون الجآذر
بقايا رشاش فوق أحداق نرجس تحملنه من صائبات البواكر
إذا فطنوا غيضنها في جفونها وإن غفلوا رقرقنها في المحاجر

وقد أحسن ابن الحجاج في قوله:

يا صاحبي تنبها من رقدة تزري على عقل اللبيب الأكيس
هذي المجرة في السماء كأنها نهر تدفق في حديقة نرجس

أو خيالي، قال ابن هانئ:

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين ناظرات بأحداق لها الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

وكلما كان التركيب أكثر تفصيلاً كان أدخل في الحسن، ومن ثم كان قول بشار:

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

أحسن من قول أبي الطيب:

يزور الأعادي في سماء عجاجة أَسَنَّتُه في جانبيها الكواكب

ومن الآخر:

تبني سنابكها من فوق أرؤسهم سُقفاً كواكبه البيضُ المباتير

لأنهما وإن راعيا التفصيل لكن قصراً عنه، فإنه شبه هيئة استطالة السيوف حين ترسب وتعلو عند اختلاف الأيدي، ولها في التهاوي تواقع وتدافع بهيئة الشهب الثاقبة وحركتها المخصوصة، ويحتمل في الأبيات الترقي ثم التدلّي.

ومن باب ما توهم جار الله أن المعري زعم بقوله:

حمراء ساطعة الذّوائب في الدُّجى ترمي بكل شرارة كطراف

أنه ظفر بتشبيهه على اللون والعظَم وزاد على قوله تعالى: ﴿تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾[سورة المرسلات آية: ٣٢] وليس بذلك؛ لأنه لا يخفى على مثله أن الكلام بآخره، لأن الله تعالى شبّه الشرارة أولاً حين تنقض من النار بالقصر في العظم، وثانياً حين تأخذ في الارتفاع والانبساط فتنشق عن أعداد لا نهاية لها بالجمالات في التفرق واللون والعظم والثقل وخص الحيوان لقصد الحركات، وكل ذلك مفقود في بيته.

ب - أن يكون المشبه به معقولاً أو موهوماً كما مر.

ج - أن يكون نادر الحضور لأن المستطرف مما تستهش إليه النفس ومن ثم كان قول أبي نواس:

كأن صُغْرَى وكُبْرُى من فواقعها   حصباء دُرٍّ على أرض من الذَّهب

أعجب من قول ذي الرمة:

كحلاء في برج صفراء في دعج   كأنها فضة قد مسها ذهب

لأن وجود الدرر وقد نثرن على بساط مذهب أندر وقوعاً من وجود فضة مموهة.

د- أن يكون التشبيه بعيد المتناول لا يدرك في بدو الفكرة؛ لأن المعاني الفائقة لابد فيها من بناء ثان على الأول، قال الصنوبري:

كأن على غدرانها   حواجباً ظلّت تُمدُّ

أراد ما يبدو في صفحة الماء من أشكال أنصاف دوائر ثم تمتد حتى ينقلها من التقوس إلى الاستواء، كذا الحاجب إذا مُدَّ نقص من تقويسه، ومن هاهنا قول بعضهم في الآذريون.

مداهن من ذهب فيها بقايا غالية

أحسن مغزى من قوله فيه:

ككأس عقيق في قرارها مسك

لأن السواد الذي في باطنه ليس شاملاً له وأنه لم يستدر في قعره بل أخذ من سمكه كل الجهات وله في منقطعه هيئة تشبه آثار الغالية إذا أبقت الأصابع منها شيئاً بخلاف قوله: في قرارها مسك؛ لأن من شأن الشيء اليابس إذا حصل في المستدير أن يرسب، وأحسن ما قيل في الهلال قول ابن المعتز:

وجاءني في قميص الليل مستتراً   يستعجل الخطو في خوف وفي حذر

ولاح ضوء هلال كـــاد يفضحه   مثل القلامة إذ قُصَّت مـــن الظُّفر

ولكن قصر فإنه لو قال لم يقص ليكون امتياز الهلال عن التدوير الذي يحس كالقلامة على الظفر كان أدق معنى.

وكذا إذا جعل الوجه في قوله:

وكأن النجوم بين دجاها سُنن لاحَ بينهن ابتداع

الهيئة الحاصلة من حصول أشياء مشرقة في جوانب مظلمة لم يكن في الحسن كما إذا أخذ معه أن سواد الظلام يزيد النجوم حسناً، كما أن الوقوف على عوادي الباطل يزيد الحق نبلاً، وكذا إذا شبه النجوم بالدرر والسماء ببساط أزرق في قوله:

وكأن أجرام النجوم لوامعاً دُررُ نُثِرن على بساط أزرق

لم يقع موقعه، إذا شبهت الهيئة الحاصلة من درر منثورة على بساط أزرق ولا ينطبق معنى البيت الأول إلا على القلب.

والوجه أن يكون عقلياً صرفاً وهو ظهور أمر خفي بحيث لا يلتبس على كل ذي بصر وبصيرة.

هـ - أن يكون سليماً عن الابتذال لا يستعمله العامة كقولهم في السواد كالفحم، والبياض كالثلج؛ لأن تجدد صوره عند النفس أحب من مشاهدة معاد.

وإذا علم أحوال الحسن علم أحوال القبح بالتقابل، وأما أحوال القبول فهي أن يكون التشبيه وافياً بإفادة الأغراض المذكورة بأن يكون المشبه به أعرف بالوجه إذا قصد بيان حال المشبه، ومع العلم به مساوياً له إذا قصد بيان مقداره، وأتم معنى منه إذا قصد إلحاق الناقص بالكامل، أو قصد زيادة التقرير، ومسلم الحكم إذا قصد بيان إمكان الوجود، ونادر الحضور إذا قصد غرابته، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ**﴾[سورة آل عمران آية: ٥٩] يحتمل أن يكون من الوجه الثاني لكونهما وجدا خارجين عن العادة المستمرة فإنهما نظيران في ذلك، ومن الثالث من حيث إن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق، ومن الرابع أيضاً، والمردود بخلافه.

تذييل:

وقد يتصرف في خلاف الحسن بما يخرجه إليه، قال البحتري:

سحاب خطاني جوده وهو مُمْرِعَ وبحر عداني صوبه وهو مُفْعَمُ

وبدر أضاء الأرض شرقــاً مغرباً وموضع رجلي منه أغبر مظــلم

فإن تشبيه الجواد بالسحاب وبالبحر، والحسان بالبدر إجمالي، وكل واحد من القيود يخرجه إلى التفصيلي، قال بديع الزمان:

يكاد يحكيك صوت الغيث منسكباً لو كان طلق المُحيّا يمطر الذّهبا
والدهر لو لم يخن، والشمس لو نطقت والليث لو لم يصد والبحر لو عذبا

والشرط يخرج التشبيهات من الابتذال إلى الغرابة، وكذا عكس التشبيه، وقال الآخر:

فـــوالله ما أدري أزهر خميلة بطرسك أم دُرٌّ يلوح على نحر
فإن كان زهراً فهو صُنْعُ سحابة وإن كان دراً فهو من لُجَّةِ البحر

فإذا نظر إلى تشبيه الخط الحسن بالزهر والدرر كان مبتذلاً إجمالياً وإذا قيد بقوله: خميلة وقوله: يلوح على نحر خرجا إلى الغرابة والتفصيل لكن يقرب تعاطيهما، فإذا أخذ معهما معنى حسن التعليل الذي يلوح من قوله صنع سحابة ولجة البحر بعدا وزادا في الحسن.

ومثله:

إن كـــان خطكُ دراً فليس ذلك نكـــــراً
لأن كفــك بـــحــر والبـــحـــر يقــذف دُراً

وكذا قول يزيد:

وملتقيات في النّقاب كأنّما هززن سيوفاً وانتضين خناجرا
سفرن بـــدوراً، وانتقبن أهلّـــة ومسن غصونـــاً والتفتن جاذرا

فإذا أخذ مع التشبيه في البيت الثاني معنى كل قيد من القيود زاد التشبيه كمالاً، وكساه جمالاً، وقد يعتبر الحسن بالجمع بين عدة تشبيهات قال ابن سكرة[1]:

أنا من خده وعينيه والثغر ومـــن ريقه البعيـــد المرام
بين ورد ونـــرجـــس وتلألؤ أقحـــوان وبـــابـــليٍّ المُـــدام

---

(١) أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد، شاعر ماجن، ذكره الثعالبي. اليتيمة جـــ ٣ ص ٤.

الفصل الخامس في الأداة

وهي ما يتوصل به إلى وصف المشبه بمشاركة المشبه به في الوجه، وهي الكاف، وكأن، ومثل، وشبه، وما في معناهما كحكى ونحوه، وأخ، وأما نحو علمت زيداً أسداً فهو إنما ينبني على التشبيه لتقدير حذف الأداة لعدم استقامة المعنى بدونه كنحو زيد أسد وأنه أسد لا أن علمت منبئ عنه.

قال أبو العلاء:

ودُراً خلت أنجمه عليه ... فهلاَّ خِلْتهن به ذُبالا
وقلت الشمس في البيداء تبرٌ ... ومثلك من تخيلّ ثم خالا
وفي ذوب اللـــجين طمعت لمَّا ... رأيت سرابهـــا يغشى الرمالا

وكذا قولك: رأيت بفلان أسداً، ولقيني منه أسد، ولئن لقيته ليلقينك منه الأسد.

هذه كلمات تشبيهات لا فرق إلا في شأن المبالغة، وكذا قوله: ﴿**حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ**﴾[سورة البقرة آية: ١٧٨] يعد تشبيهاً لما عقب بقوله "من الفجر" ولولاه لعدّ استعارة.

والأصل في الكاف ونحوها أن تلي المشبه به، وقد تلي أشياء لا يتأتى التشبيه إلا على تقدير الحذف كقوله تعالى: ﴿**أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ**﴾[سورة البقرة آية: ١٧١] أوقع تشبيه صفة المنافقين بين مثل المستوقدين وبين مثل ذوات ذوي الصيب، وإنما المراد بين صفة أولئك وبين صفة هؤلاء فيقدر مثلهم كمثل ذوي صيب، ومثله في إيقاع التشبيه بين الشيئين قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ**﴾[سورة الصف آية: ١٤] أوقع تشبيه كون المؤمنين أنصار الله بين كون الحواريين أنصار الله وبين قول عيسى لكن التقدير: كونوا أنصار الله مثل كون الحواريين أنصاره وقت قول عيسى، على أن ما مصدرية، وفي نحو قولـــه تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ**﴾[سورة البقرة آية: ١٧١] يقدر المضاف إما عند المشبه نحو: مثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق أو عند المشبه به نحو: مثل الذين كفروا كبهائم الذي ينعق، ولا يستعمل لفظة مثل إلا في حال أو صفة لها شأن وفيها غرابة، وقد يظن في نحو قولـــه تعالى: ﴿**ليس كمثله**﴾ أن الكاف صلة، وليس هناك، وإنما المراد نفي المثل على طريقة الكناية أي: ليس شبه ذاته المستجمعة لصفات

الكمال شيء فاستعمل مثل فيمن لا مثل له، كما استعمل فيمن له مثل وهذه خاصية الكناية، قال صاحب الكشاف ذلك أن تزعم أن التكرار للتأكيد، قال:

بالأمس كانت في رخاء مأمول   فأصبحت مثل كعصف مأكول

ويحتمل أن يكون الغرض فيه إلحاق الناقص بالكامل فنفى المشبه بالمشبه به تعالى، المفروض لينتفي الندّ بالطريق الأولى.

وربما يلحق المشبه به شيء لا يحسن دخول الكاف فيه إلا بعد التغيير: إما لفظاً كقولك: فلان بدر يسكن الأرض، وقوله:

شمس تألق والفراق غروبها   عنّا، وبَدْرُ والصدود كُسُوفه

أي: هو كالبدر إلا أنه يسكن الأرض وكالشمس المتألقة إلا أن الفراق غروبها، وأما معنى قول البحتري:

وبدر أضاء الأرض شرقاً ومغرباً   وموضع رجلي منه أسود مظلم

فإذا رجع فيه إلى التشبيه الساذج حتى يكون المعنى هو كالبدر لزم منه جعل البدر المعروف موصوفاً بما ليس فيه، وإذا قدّر بدر له هذه الصفة العجيبة التي لم تعرف للبدر ثم شبه جاء الحسن.

وكذلك قول أبي الطيب:

أسد دم الأسد الهزبر خضابه   موت فريض الموت منه يرعد

إذا ذهب به إلى مطلق التشبيه لزم التناقض؛ لأن تشبيهه بجنس السبع المعروف دونه أو مثله، وجعل دم الهزبر الذي هو أقوى الجنس خضاب دليل على أنه فوقه وإذا خيل أسد فاق جنسه على أسلوب.

وإن تفق الأنام وأنت منهم(١)

ثم شبه به صح وزاد في الحسن.

خاتمـــة:

والحاصل من مراتب التشبيه ثمان:

أ - ذكر أركانه الأربعة نحو: زيد كالأسد في الشجاعة، ولا قوة لهذه.

---

(١) البيت لأبي الطيب المتنبي: وعجزه فإن المسك بعض دم الغزال.

ب- كالأسد في الشجاعة وهي كالأولى لكون المتروك في حكم الملفوظ.

ج- زيد أسد في الشجاعة، فيها نوع قوة للحمل.

د - أسد في الشجاعة هي كالثالثة.

هـ- زيد كالأسد هي قوية لعموم الوجه ظاهراً.

و- كالأسد هي كالخامسة.

ز- زيد أسد هي أقوى للحمل مع التعميم.

ح- أسد، هي كالسابعة.

واعلم أن التشبيه قد ينتزع من نفس التضاد، فإن كل واحد من الضدين متصف بمضادة صاحبه، فينـزل لذلك منـزلة شبه التناسب بوساطة التهكم، فيقال للجبان ما أشبهه بالأسد، وللبخيل هو حاتم، أو التلميح كما تقول للأسود كافور، وللمهامه البيداء مفازة ومنجاة تفاؤلاً.

الأصل الثاني في المجاز

ويتضمن التعرض للحقيقة، وهي الكلمة المستعملة فيما وضعت له من غير تأويل في اصطلاح التخاطب، ونعني بالوضع تعيين الكلمة بإزاء معنى بنفسها، قولـه: من غير تأويل احتراز من الاستعارة فإنها مستعملة فيما وضعت له ادّعاء، قولـه في اصطلاح التخاطب احتراز عن المجاز الذي هو حقيقة في وضع واضع، كالصلاة مثلاً إذا استعملها الشارع في الدعاء، ودخل المشترك في الحد؛ لأنه إذا استعمل مطلقاً يتبادر إلى الفهم كل واحد من المعاني التي هو موضوع لها غير مجموع بينها.

والتقييد إنما هو للبيان وإزالة الإبهام العارض فيكون دلالته على معناه بنفسه بخلاف المعنى المجازي فإن اللفظ لا يدل عليه إلا مع قرينه، وليس المقصود من وضع كل لفظ فهم مدلوله مفصلاً، بل قد يكون مجملاً كأسماء الأجناس، قال ابن الأثير: الواضع كما وضع الأسماء المتباينة للبيان وضع الأسماء المشتركة لتحسين الكلام.

وأقسام الحقيقة أربعة؛ لأن الواضع إن كان صاحب اللغة فلغوية وإلا فإن كان الشارع فشرعية، وإلا فإن كان معيناً غيرهما فاصطلاحية وإلا فعرفية.

والمجاز: إما لغوي أو عقلي، فاللغوي هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له

بالتحقيق في اصطلاح التخاطب مع قرينة عدم إرادته.

قولـــه بالتحقيق لتدخل الاستعارة؛ لأنه مستعمل فيما وضع له ولكن بالتأويل. واختير اللفظ دون الكلمة لئلا تشذ الاستعارة التمثيلية، وقوله: في اصطلاح التخاطب ليدخل فيه ما إذا اتفق كونه مستعملاً فيما يكون موضوعاً له لكن لا بالنسبة إلى التخاطب كما إذا استعمل اللغوي الغائط مجازاً في الفضلة، والشارع الصلاة في الدعاء، قولـــه مع قرينة عدم إرادته احتراز عن الكناية فإن اللفظ مستعمل في غير ما وضع له لكن لا ينافي إرادة حقيقته.

والحقيقة إما فعيل بمعنى مفعول من حققت الشيء أحقه إذا أثبته فمعناها المثبت.

وإما بمعنى فاعل من حق الشيء إذا وجب فمعناها الواجب وهو الثابت فالكلمة المستعملة فيما هي موضوعة له مثبتة أو ثابتة في موضعها الأصلي، وكذا المجاز مفعل من جاز المكان إذا تعدّاه فاللفظ إذا استعمل في غير ما هو موضوع له فقد تعدى عن موضعه الأصلي.

واعلم أن في اعتبار التناسب بين المسمى والاسم مظنة تأمل، فإذا سمي إنسان له حمرة بأحمر أو وصف به فالتفاوت أن اعتبارها في الأول لترجيح الاسم على غيره لأجل المناسبة، وفي الثاني لصحة إطلاقه عليه، فعلى الأول لا يمتنع إطلاقه على المسمى عند زوال المعنى، ويمتنع في الثاني.

وهذا المجاز على ضربين: مرسل واستعارة؛ لأن العلاقة إن كانت التشبيه فهو استعارة وإلا فمرسل، والمرسل نوعان:

الأول: الخالي عن الفائدة وذلك إن تعدّى الكلمة عن حقيقة يقيد لها بدونه مثل أن تستعمل المرسن في أنف إنسان مجازاً[1]، وأنه موضوع لمعنى الأنف مع قيد أن يكون مرسوناً، قال أبو العلاء:

نواعم يلقين الثقيل من البرى ... ويجعلن في الأعناق مستثقل الإثم

مراسنها أمست لنور مراسياً ... فما تظلم الأبيات إلا من الظُّلم

---

(١) ذهب عبد القاهر إلى أن استعمال المرسن في الأنف استعارة غير مفيدة. ٣٦-٣٧ أسرار البلاغة.

وقال الحطيئة يخاطب الزبرقان:

قروا جارك الغيمان لما جفوته وقلّص عن برْدَ الشراب مَشَافِرُهُ

عنى بالجار: نفسه ورمى الزبرقان بإضاعة الضيف وإسلامه البؤس والمشفر والشفة كالمترادفين، ولذا لم يفد شيئاً.

والثاني: هو المجاز المتضمن للفائدة وهو على وجوه:

أ- إطلاق اسم السبب على المسبب كاليد على النعمة لصدورها عنها:

قال التميمي من أهل الكوفة:

سأشكر عمراً إن تراخت منيتي أيادي لم تمنن وإن هي جَلَّت

ويقال له علي يد، وقال صلوات الله عليه لأزواجه(٢): «**أسرعكنّ لحوقاً بي أطولكنّ يداً**» أي أكثركنّ عطاء، قولــه أطولكن لهذا المجاز كالترشيح للاستعارة، أو على القدرة لظهور سلطانها بها، وقال صلوات الله عليه(٣): «**المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم**» فإن الأصل هم أشداء على من سواهم مبالغين فيها متفقون فيما بينهم لا يسعهم تخاذل بعضهم بعضاً كقوله تعالى: ﴿**أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾[سورة الفتح آية: ٢٩] ويدل على تضمينها معنى غاية الشدة تعدّيها بعلى مجازاً، وإفرادها وهي جارية على الجماعة يدل على اتفاقهم ومن ثم حمل قولهم: أيادي سبأ، والحديث: واجعل الفساق يداً يداً على الشتات والخذلان، وهذا هو الوجه وإن حمل على التشبيه، كقولها:

أسدُ عليَّ وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر

جاز، والحمل على الاستعارة كما ذهب إليه خطأ.

---

(٢) رواه البخاري عن عائشة -رضي الله عنها- أن بعض أزواج النبي ﷺ قلن للنبي ﷺ: أينا أسرع بك لحوقاً؟ قال: أطولكنّ يداً، فأخذوا قصبة يزرعونها، فكانت سودة أطولهنّ يداً فعلمنا بعد إنما كانت طول يدها الصدقة وكانت أسرعنا لحوقاً به.

(٣) سنن أبي داود جـــ٤ ص٢٥٢ ت محمد محيي الدين عبد الحميد وتمام الحديث: "المؤمنون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، ألا لا يقتل مسلم بكافر، ولا ذو عهد في عهده، من أحدث حدثاً فعلى نفسه، ومن أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين".

ونظيره قولهم في راعي الإبل إن له عليها إُصبعاً، أي: أثر حذق لأن الحذق في العمل مستفاد من حسن تصريف الأصابع، وعليه ورد قولــه تعالى: ﴿**بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ**﴾[سورة القيامة آية: ٤] أي: نجعلها كخف البعير فلا يتمكن من الأعمال اللطيفة، وإليه ينظر قولــه صلوات الله عليه[1]: «**قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن**» أي: بين أثرين عجيبين من آثاره وهما داعيتا الخير والشر، أو على التسليم والانقياد، كما يقال: أعطى بيده أي: أظهر الانقياد، ويقال: نــزع يده من الطاعة كما يقال خلع ربقة الطاعة عن عنقه، وقوله تعالى: ﴿**حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾[سورة التوبة آية: ٢٩] يحتمل الثلاثة أي يعطوها إياكم صادرة عن يد، أي: نعمة حاصلة منكم لهم وهي إبقاء أرواحهم وأخذ شيء قليل بدلها، أو يعطوها إياكم صادرة عن يد استيلاء وقدرة وقوة لكم عليهم، كما يأخذ القاهر المستولي من المستولي عليه، أو يعطوها إياكم صادرة عن انقياد وطاعة منهم، ومنه قولهم رعيناً غيثاً، وباب قولــه: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ**﴾[سورة البقرة آية: ١٩٤] سمى جزاء الاعتداء اعتداء؛ لأنه مسبب عنه.

ب - إطلاق اسم المسبب على السبب كقولهم أمطرت السماء نباتاً أي: غيثاً وقول الشاعر:

أسنمة الآبال في سحابة

أي: المطر لأن الأسنمة مسببة عن النبات المسبب عن المطر، وعليه قولــه تعالى: ﴿**وَأَنــزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ**﴾[سورة الزمر آية: ٦] وقوله تعالى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ**﴾[سورة النحل آية: ٩٨] أي: إذا أردت القراءة فاستعذ للسنة المستفيضة بتقديــم الاستعاذة، لأن الفعل يوجد بإرادة الفاعل كما يوجد بقدرته، قال تعالى: ﴿**إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ**﴾ أي: قادرين، ولا تستبعد تقرير الإرادة لما في المستفيض قولهم للحفار: ضيق فم الركية، والتضييق هو التغيير من السعة إليه، وقيل الشروع بحال، ولكن أريد تجويز إرادة التوسعة فينــزل المجوز منــزلة الواقع ثم يؤمر بتغيرها إلى الضيق،

(١) ما رواه أحمد: "قلب ابن آدم على أصبعين من أصابع الجبار" ج ٢ ص ١٧٣، وما رواه ابن ماجه: "إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن عز وجل يقلبها" وفي إسناده ضعف.

ومنه **"إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا"**(١) الحديث.

جـ - تسميته باسم ما يؤول إليه قال تعالى: ﴿**هدىً للمتقين**﴾ [سورة البقرة آية: ٢] أي الضالين الصائرين إلى التقوى، وقال صلوات الله عليه(٢): **"من قتل قتيلاً فله سلبه"** ومنه باب التغليظ نحو قولـــه تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[سورة البقرة آية: ٢٥٤] أي: التاركون الزكاة هم الظالمون، سماهم، عند مشارفتهم لاكتساء لباس الكفر الذي هو منع الزكاة، كافرين تغليظاً، أو الكافرون هم التاركون الزكاة، وصف الكافرين بمنع الزكاة كقوله: ﴿**وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ**﴾[سورة فصلت آية:٦، ٧] تعريضاً، حثاً للمؤمنين وبعثاً على أدائها وتخويفاً شديداً لمن منعها.

د - تسميته باعتبار ما كان قال تعالى: ﴿**وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ**﴾ [سورة النساء آية: ٢].

هـ- تسمية الحال باسم محله قال تعالى: ﴿**فليدع ناديه**﴾[سورة العلق آية: ١٨] ﴿**واسأل القرية**﴾[سورة يوسف آية: ٨٢].

و - تسمية المحل باسم حاله قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ**﴾[سورة آل عمران آية: ١٠٧] أي: في الجنة.

---

(١) «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا وما رياض الجنة قال: حلق الذكر» أحمد والترمذي جمع الجوامع في المادة، الطبراني عن ابن عباس كنـــز العمال ١٣٨/١٠ في كتاب العلم باب لفضل العلم.

(٢) روي عن أبي قتادة ورواه مسلم في كتاب الجهاد ٣٢ ج٢ ص٥٧ وما بعدها وفي سنن أبي داود ج٣ كتاب الجهاد ص٩٤ وما بعدها. وفيه يقول: "خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حنين. فلما التقينا كانت للمسلمين جولة، فضربته على حبل عاتقه، وأقبل عليّ فضمّني ضمة وجدت منها ريح الموت، ثم أدركه الموت فأرسلني فلحقت عمر بن الخطاب فقال: ما للناس، فقلت: أمر الله، ثم إن الناس رجعوا، وجلس رسول الله ﷺ. فقال: من قتل قتيلاً له عليه بينة، فله سلبه، قال فقمت فقلت من يشهد لي، ثم جلست، ثم قال مثل ذلك، فقال فقلت: من شهد لي ثم جلست. ثم قال ذلك الثالثة فقمت فقال رسول الله ﷺ: ما لك يا أبا قتادة؟ فقصصت عليه القصة، فقال رجل من القوم: صدق يا رسول الله، سلب ذلك القتيل عندي. فأرضه من حقه.

ز - تسمية الشيء باسم آلته قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾[سورة إبراهيم آية: ٤] أي بلغته: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾[سورة الشعراء آية: ٨٤] أي: ذكراً جميلاً.

ح - تسميته بدواعيه كقولك: هذا قول الشافعي أي مذهبه واعتقاده.

ط - تسميته باسم جهته كقولك للمطر سماء.

ى - باسم حامله كقولهم للمزادة راوية والراوية الجمل.

ك - باسم محموله كالخفض على البعير وهو الأثاث.

ل - باسم مجاوره نحو سال الوادي.

م - بجزئه والشرط أن يكون أصلاً فيما وقع المجاز بسببه، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾[سورة البقرة آية: ٢٨٣] أي: ذاته كقولهم للربيئة العين، ومنه قوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[سورة المزمل آية: ٢] أي صلِّ.

ن - بكله قال تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم﴾[سورة البقرة آية: ١٩] أي: أناملهم والشرط ما سبق.

ص - باسم ما يجمع بين المختلفين حقيقة ومجازاً قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ﴾[سورة التوبة آية: ٦١] عبر بإيذائهما عن فعل ما يكرهانه وما لا يرضيانه ويسمى بعموم المجاز.

فإذا ارتكب المجاز لمثل تلك العلاقات فليرتكب أيضاً في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾[سورة الأعراف آية: ١٢] بأن يقال ما دعاك إلى أن لا تسجد بقرينة لا إذ بين الصارف عن الفعل وبين الداعي إلى تركه نوع تعلق، وكذا إذا استعمل فعل أو شبهه لجارة مختصة بغيرها فتجعل الجارة قرينة إما للتضمين وذلك بأن يضمن الفعل المذكور معنى فعل يستعمل بها لتعمّ فائدته، كقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾[سورة البقرة آية: ٣٦] أي: أصدر زلتهما عن الشجرة، ضمن أزل معنى أصدر وقرينته عن، أو لأن يجعل مدخولها بمعنى مدخولها الحقيقي كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾[سورة النساء آية: ٥] أي: اجعلوا الأموال مكاناً وظرفاً لرزقهم فتكون النفقة من الربح لا من صلب المال.

ومن أمثلة المجاز، المستثنى منه، وذلك أن من حق المستثنى أن يكون داخلاً في

المستثنى منه قبل إلا، ولكن متى قدر كذا من جهة المتكلم ناقص فيلزم تقديره من جهة السامع، فيكون استعمال المتكلم العشرة في قولـــه: لفلان علي عشرة إلا واحداً مجازاً في التسعة، وقوله إلا واحداً قرينة المجاز ثم يتفرع عليه الحكم بالتغليب نحو قولـــه تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إلاَّ إبْلِيسَ﴾[سورة الحجر آية: ٣٠] والادّعاء في نحو قولـــه تعالى: ﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ. إلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[سورة الشعراء آية: ٨٨، ٨٩] على وجه، والتأكيد كقولهم: ما جاءني زيد إلا عمرو، والمراد منه نفي المجيء عن كل من عدا عمراً ثم أدخل زيد لتأكيد نفي مجيئه، وعليه قولـــه تعالى: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ﴾[سورة النمل آية: ٦٥] ومنه قولـــه تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾[سورة النساء آية: ٩٧، ٩٨] قرن الولدان مع الرجال وإن لم يكونوا داخلين في الوعيد تأكيداً في أنهم صاروا في انتفاء الذنب عنهم كالولدان.

وقد يكتسب أحد المعطوفين من معنى الآخر؛ بسبب اشتراكهما في حكم، قال جار الله في قولـــه تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[سورة آل عمران آية: ١٨١] جعل قتلهم الأنبياء قرينة لقولهم: "إن الله فقير ونحن أغنياء" إيذاناً بأنهما في العظم إخوان، وبأن هذا ليس بأول ما ارتكبوه من العظائم، وعكسه عطف على قولـــه: ﴿وأرجلكم﴾ وهو مغسول على رءوسكم وهو ممسوح.

وإنما كان هذا المجاز مقيداً لتضمنه شبه شاهد كالأسباب للمسببات مثلاً.

والضرب الثاني الاستعارة

وهي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الآخر مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به دالاً عليه بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به من اسم جنسه أو لازمه أو لفظ يستعمل فيه نحو: في الحمام أسد، والمنية أنشبت أظفارها، وفي الصيف ضيعت اللبن وإنما سمي استعارة؛ لأن الشجاع حال كونه فرداً من أفراد الأسد يكتسي اسمه اكتساء الهيكل المخصوص إياه، وهكذا العارية فإن المستعير فيها كالمعير إلا في المكنية، تسمى المشبه به مستعاراً منه واسمه مستعاراً والمشبه يسمى مستعاراً له، ولأن معنى الاستعارة على إدخال المستعار له في جنس المستعار منه تمتنع في الأعلام إلا إذا تضمن نوع وصفية تضمن حاتم

الجود، وما درّ البخل، وقيل الاستعارة مجاز عقلي لأنا لما ادعينا أن المشبه من جنس المشبه به وفرد من أفراد حقيقته لزم أن يكون اللفظ مستعملاً فيما وضع له؛ ولأنه إذا قلنا: رأيت أسداً يعني شجاعاً صحّ أن يقال إنما جعل أسداً لما حصل منه صفته، بخلاف قولنا سميته أسداً، وإذا كان إطلاق الاسم تبعاً لوجود المعنى كان الاسم مستعملاً فيما وضع له.

ولأن التعجب في قول ابن العميد:

قامت تَظَلِّلْني من الشمس ... نفس أعزُّ عليَّ من نفسي
قامت تظللني ومن عجب ... شمسٌ تُظَلِّلْني من الشَّمس

إنما يصحّ إذا كان كذلك.

وأجيب عن الأول أن ادّعاء الأسدية للشجاع لا تخرج اللفظ عن كونه مستعملاً في غير ما وضع له؛ لأن الواضع لم يضع الأسد للشجاعة وحدها، بل لها في مثل تلك الجثة.

وعن الثاني أن لفظ الأسد لو كان تبعاً لتلك الصفة لم يكن اسماً بل كان صفة، وكان استعماله في غاية البطش، كالمتواطئ بل كالمشكك، وعن الثالث أن التعجب لبناء تناسي التشبيه في الاستعارة قضاء لحق المبالغة، فإن قيل: الإصرار على ادّعاء الأسدية للرجل ينافي نصب القرينة قلنا لا منافاة فإن بناء الدعوى على أن أفراد جنس الأسد قسمان: متعارف وهو الهيكل المخصوص مع الجرأة، وغير متعارف وهو الذي له تلك الجرأة لا مع ذلك الهيكل، ونصب القرينة على إثبات غير المتعارف، ولولاها لكان اللفظ دائراً بين مفهوميه، كما مر.

والفرق بين هذه الدعوى والباطلة هو أن المبطل يتبرأ عن التأويل وبين الكذب أن الكذاب لا ينصب دليلاً على خلاف زعمه.

ومن أمثلة البناء على مجرد الدعوى قول الشاعر:

تحيةٌ بينهم ضرب وجيع

جعل بالادعاء أفراد جنس التحية قسمين: متعارف وهي المشهورة وغير متعارف وهو الضرب، ونبأ عنها بأحد قسميها.

ومنه قوله تعالى: **﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾** [سورة الشعراء آية: ٨٨، ٨٩] جعل المال والبنون وسلامة القلب بالادعاء جنساً واحداً ثم أخرج

بالاستثناء أحد نوعيه.

واعلم أن الكلام الذي فيه التشبيه و لم تذكر الأداة لا يخلو من أن يذكر الطرفان أو أحدهما، والثاني الاستعارة، والأول لا يخلو من أن يكون أحدهما خبراً للآخر أو في حكمه أو لا يكون والثاني تشبيه تجريدي والأول تشبيه محض.

وقد يرد في الكلام ما يحمل على أحد القبيلين بأدنى تغيير.

قال البحتري:

إذا سفرت أضاءت شمس دجن ... ومال من التعطف غصنٌ بان

فإن قولـــه شمس دجن وغصن بان تشبيهان لو نصبا، فإن رفعا كما يقال رجعا إلى الاستعارة.

وقرينة الاستعارة إما معنى واحد، قال أبو الطيب:

لما غدا مظلم الأحشاء من أشر ... أسكنت جانحيه كوكبا يقد

أو أكثر، قال:

فإن تعافوا العدل والإيمانا ... فإن في أيماننا نيرانا

قولـــه: تعافوا باعتبار تعلقه بكل واحد من الإيمان، والعدل، قرينة لإرادة السيوف، أو معان مرتبطة قال البحتري:

وصاعقة من نصله ينكفي بها ... على أرؤس الأقران خمس سحائب

يكاد الندَّى منها يفيض على العدا ... مع السَّيف في ثنيي قنا وقواضب

استعار السحاب لأنامله وجعل القرينة صاعقة من نصل سيفه، ثم على أرؤس الأقران، ثم عدّد الأنامل.

ثم الجامع في الاستعارة إما أمر واحد أو في حكم واحد، والأول تتنوع الاستعارة فيه إلى أصلية وتبعية:

والأصلية:

هي أن يكون المستعار اسم جنس نحو: رجل وأسد وقيام وقعود وإنما كانت أصلية، لأن مبنى الاستعارة على التشبيه، والتشبيه وصف كما مر، والأصل فيما يوصف الحقائق نحو: جسم أبيض، وبياض صاف، وأما نحو شجاع باسل فعلى تأويل ذاتٍ لها الشجاعة.

وهي تنقسم إلى مصرّح بها ومكني عنها؛ لأن الطرف المتروك إن كان المشبه فهو المصرّح بها وإلا فهو المكني عنها.

والمصرّح بها على ضربين تحقيقية وتخييلية:

التحقيقية: هي أن يكون المتروك شيئاً محسوساً، كقولك: رأيت أسداً يرمي قال أبو تمام:

كم أحرزت قضب الهندي مصلتة ... تهتز من قضب تهتز في كثب

عنى بالقضب والكثب قدود السبايا وأردافهن.

قال المتنبي:

في الخط إن عزم الخليط رحيلاً ... مطر يزيد به الخدود محولا

وقال أبو الفرج[1]:

فأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت ... ورداً وعضت على العُنَّاب بالبرد

أو معقولاً، كقولك: أبديت نوراً أي حجة، وقوله تعالى: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ أي: دين الإسلام.

التخييلية: هي أن يكون المتروك شيئاً متوهماً محضاً كما إذا شبهت المنية بالسبع في اغتيال النفوس بالقهر والغلبة من غير تفرقة، تشبيهاً بليغاً كأنها هو، ثم يتوهم للمشبه ما به قوام المشبه به من لوازمه المناسبة كالأنياب فيما نحن بصدده، ثم تشبه هذا المتوهم بمثله من المحقق ثم يطلق اسم المحقق على المتوهم، ثم تضيف إلى المشبه الأول لتكون قرينة مانعة، كما تقول أنياب المنية الشبيهة بالسبع نشبت بفلان، أو لسان الحال الشبيه بالمتكلم ناطق بكذا.

فإن قيل: ما الفرق بين إثبات هذا اللازم للمشبه، وبين الترشيح فإن كل واحد منهما إثبات بعض لوازم المشبه به للمشبه.

قلنا: الفرق في غاية الظهور لأن إثبات اللازم في الأولى لحصول الاستعارة، وفي الثانية للمبالغة فيها والتتميم، والأولى بدون هذا تمتنع وتلك بدونه لا تمتنع، وأما قول زهير:

---

(١) محمد بن أحمد الغساني الدمشقي الملقب بالوأواء.

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعُرِّيَ أفراس الصِّبا ورواحلــه

فمحتمل للتحقيقية أيضاً بأن يجعل دواعي النفوس وشهواتها أو الأسباب من المال والمنال هي المشبه المتروك، وكذا قولـــه تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [سورة النحل آية: ١١٢] فيحتمل أن تكون عقلية بأن يستعار اللباس لما يغشى الإنسان والتبس به من بعض الحوادث ثم أطلق اللباس وأريد به ذلك.

وأن تكون حسية بأن يستعار اللباس لما يلبس الإنسان عند جوعه من امتقاع اللون ورثاثة الهيئة.

وقيل يحتمل التخييلية أيضًا، وذلك بعيد.

المكنية: وهي أن يذكر المشبه ويراد به المشبه به دالاً عليه بقرينة نسبة اللازم المساوي له إليه، أو إضافته على سبيل التخييلية، وذلك بأن توهم المشبه مشبهاً به توهماً محضاً، كما توهم اللازم في التخييلية، فيكنى باسم المشبه عن اسم المشبه به المعني به المتوهم، فالمراد بالمنية في بيت الهذلي[1]:

وإذا المَنِيَّةُ أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

عنى الموت قطعاً لا كما ظن، ولما صرح به صاحب الكشاف بقوله: وقد نبهت في قولك شجاع يفترس أقرانه وعالم يغترف منه الناس على الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر.

وإنما سميت مكنيّة لأن المراد من اسم المنية اسم السبع الذي هو اسم لذلك المتوهم، كما يكنى بفلان عن اسم المسمى لا عنه، أو لدلالة اللازم، وهو القرينة على الملزوم وهو المشبه به المتروك، فنقول مخالب المنية نشبت بفلان، طاوياً لذكر المشبه به وهو قولك:

---

(١) أبو ذؤيب الهذلي في قصيدته التي مطلعها:

أمن المنون وريبه تتوجع والدهر ليس بمعتب من يفجع

وقالها في رثاء أبنائه وهي من عيون الرثاء في الشعر العربي.

جعله حسان بن ثابت أشعر هذيل، وجعل هذيلاً أشعر العرب. وهو أحد المخضرمين له ترجمة في الأغاني.

انظر ج٦ ص٢٣٤٤ ط الشعب.

الشبيه بالسبع قال تأبط شراً:

إذا هزةً في عظم قرن تَهلّلت نواجذ أفواه المنايا الضّوَاحِكِ

شبه المنايا عند هزة السيف بالسرور بحصول المراد، وأثبت لها الضواحك وأضافها على سبيل التخييلية، وهي من لوازم السرور؛ لأن كمال الفرح إنما يظهر بالضحك الذي تتهلل النواجذ فيه.

قال العتبي[١]:

ولئن نطقت بشكر بِرِّكَ مرَّةً فلسان حالي بالشكاية أنطق

شبه الحال الدالة على المقصود بإنسان يتكلم في الدلالة، فأثبت لها اللسان الذي به قوام الدلالة في الإنسان، وأضافه إليها، ونسبة (أنطق) إليها كذلك إذا لم يحمل على الترشيح.

قال لبيد[٢]:

وغداة ريح قد كشفت وقرةً إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

شبه الشمال بالإنسان ثم أثبت لها يداً، وحكم الزمام مع القوة حكم اليد مع الشمال.

فإن قلت: أنكرت أولاً أن المستعار له جنس سوى جنس المستعار منه ثم تعترف الآن أنه جنس غيره حيث تذكره باسم جنسه.

قلت: ذكره باسم جنسه ليس للاعتراف، بل لزيادة في المبالغة، بولغ أولاً حيث

---

(١) أبو العضد محمد بن عبد الجبار العتبي ولد بالري، وفارقها إلى خراسان وهو كاتب شاعر رقيق الألفاظ، سهل المأخذ والبيت ثاني بيتين ذكرهما صاحب اليتيمة وهما:

لا تحسبن هشاشتي لك عن رضى فوحق فضلك إنني أتملق

ولقد نطقت بشكر برك مفصحاً ولسان حالي بالشكاية أنطق

اليتيمة ج٤ ص٣٩٧ وما بعدها.

(٢) البيت مذكور في كثير من كتب البلاغة والنقد، وتروى: وزعت ومعناها: كففت، أي: الطعام والكسوة.

سمى مسميان باسم واحد، ثم زيد فيها حتى جعل اسمان لمسمى واحد، ومن الأمثلة قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[سورة البقرة آية: ٧] شبّه قلوبهم بأن لا تقبل الحق بالشيء الموثوق المختوم ثم أثبت لها الختم.

والتبعية:

وهي أن يكون المستعار أفعالاً أو صفات أو حروفاً ولا تكون هذه إلا مصرحاً بها، وإنما سميت تبعية؛ لأن المذكورات لا تقع موصوفات، فتقع في مصادر الأفعال والصفات، وفي متعلقات معاني الحروف ثم تسري منها إليها، ونعني بمتعلقات معاني الحروف ما يعبّر عنها عند تفسيرها، كما تقول: من وكي ولعلّ معناها ابتداء الغاية والغرض والترجّي، فلا يقال نطقت الحال بدل دلّت إلا بعد استعارة نطق الناطق، لدلالة الحال، أي دلالة الحال كنطق الناطق في الوضوح، ثم تستعير النطق للدلالة، فتسري من معنى النطق إلى نطقت، وكذا قوله تعالى حكاية عن قوم شعيب عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [سورة هود آية: ٨٧] بدل السفيه الغوي في التهكمية، استعار الحلم والرشد للسفه والغواية، ثم سرى إلى الحليم الرشيد، وكذا قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[سورة القصص آية: ٩] استعار لام كي التي لترتب وجود بين أمرين، مطلوب الثاني بالأول؛ لترتب العداوة والحزن على الالتقاط، وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[سورة آل عمران آية: ١٣٢] استعار لعل للترتب، لأن أدنى زمرة من مثل الملوك هو العلاقة لحصول غايات الطالب، وكذا قوله تعالى: ﴿تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ﴾[سورة التحريم آية: ٨] للترتب أيضاً لكن جيء على الإطماع لئلا يتكلوا وأما قوله تعالى-: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[سورة طه آية ٤٤] فعلى التمثيلية أي: باشر الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله وهو يجتهد، مع العلم بأنه لن يؤمن إلزاماً للحجة، وكذا قوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[سورة الحجر آية: ٣] استعار ربما للتكثير بعد تشبيه التكثير بالتقليل تهكماً أو تلميحاً، أي: كثيراً ما يودّون ذلك وإنما قلل ليفيد معنى توخي فرصة الإسلام أي اغتنموا فرصة الإسلام وسارعوا في تحصيله فإنكم لو كنتم تودّون الإسلام مرة، فبالحري أن تسارعوا فيه، فكيف والحال ما ذكر.

وعلى قول الأخفش أصلية؛ لأنها اسم حمل على كم الخبرية.

ولك أن تعد قولـــه تعالى: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ الآية على رأينا من الباب بأن تجعل ختم استعارة لخلق بعد تشبيه خلق الله الكفر فيهم، بالختم على الشيء، والجامع شدة التمكن أو منع النفوذ.

واعلم أن قرينة التبعية في الأفعال والصفات تعود تارة إلى الفاعل، قال أبو تمام:

نطقت مقلة الفتى الملهوف فتشكت بفيض دمع ذروف

وأخرى إلى المفعول الأول قال أبو العلاء:

القاتل المحل إذ تبدو السماء لنا كأنها من نجيع الجذب في أُزُر

أو إلى المفعول الثاني، قال كعب بن زهير:

نقريهم لِهْذَمِّيات نَقُدُّ بها ما كان خاط عليهم كُلُّ زَرَّاد

أو إلى المفعولين معاً قال الحريري:

وأقرى المسامع إما نطقت بياناً يقود الحرون الشموسا

أو إلى المجرور قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أو إلى الجميع، قال الشاعر:

تقري الرياح رياض الحزن مزهرة إذا سرى النوم في الأجفان إيقاظاً

وقال الشيخ[1]: والأضبط أن تقلب القضية فتجعل القرينة مستعاراً لتكون استعارة بالكناية تعليلاً للاعتبار، وذلك بأن نجعل المحل استعارة عن المقتول ونجعل نسبة القتل إليه قرينة، وأن نجعل اللهذميات استعارة عن المطعومات الشهية على سبيل التهكم، ونجعل نسبة لفظ القرى إليها قرينة، وهذا أولى؛ لأن الاستعارة بالكناية أبلغ من التبعية، وحمل اللفظ على الأبلغ أحرى، وقيل التبعية التي جعلتها قرينة لا يجوز أن تقدرها حقيقة، وإلا انفكت المكنية عن التخييلية وهو ممتنع فيلزم أن يقدّرها مجازاً فحينئذ تكون تبعية فما فررت منه فقد وقعت فيه.

قلنا الشيخ لم يرد بالقلب قلب القرينة حقيقة بل قلبها استعارة وعكسه، فالقرينة في المكنية تبعية تارة كنطقت الحال، وأصلية أخرى كلسان الحال، كما نبه عليه آخراً.

أو يقال نقدرها حقيقة ويخالف الأصحاب وهو أولى لكونه أسهل مأخذاً وأقل

---

(١) السكاكي.

ضبطاً وأبلغ مغزى لتناسي التشبيه رأساً.

القسم الثاني من الاستعارة التمثيلية:

وهو أن يكون الجامع في حكم الواحد، وذلك بأن يأخذ وصف إحدى الصور بين المنتزع من أمور فتشبهه بوصف صورة أخرى تشابهه، ثم تدخل صورة المشبه في جنس صورة المشبه به مبالغة، فتكسوها لفظ المشبه به مبالغة من غير تغيير، كما كتب الوليد إلى مروان وقد بلغه أنه متوقف في البيعة "أما بعد فإني أراك تقدم رجلاً، وتؤخر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت".

فالمستعار إذا كان قولاً سائراً يشبه مضربه بمورده سمي مثلاً، وإلا سمي تمثيلاً، ولورود الأمثال على سبيل الاستعارة لا تجد للتغيير فيها سبيلاً قال الميداني: حقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الأول كما قال كعب بن زهير.

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً وما مواعيدُهُ إلاّ الأباطيل

قولــه مواعيد عرقوب علم لكل ما لا يصح من المواعيد، وربما استعمل المثل في أصله الذي كان له من الصفة قبل النقل، فيقال مثلك ومثل فلان أي: صفتك وصفته، وقال تعالى: ﴿**مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ**﴾[سورة الرعد آية: ٣٥] أي صفتها.

أما المثل فعلى ضربين:

أ - أن يكون المستعار منه شيئاً محققاً واقعاً كقولهم: خذه ولو بقرطي جارية، وكان عليهما درتان كبيضتي الحمام، يضرب في الشيء الثمين، أي لا يفوتنك بأي ثمن يكون، وقوله –صلوات الله عليه–[1]: «**إن من البيان لسحراً**» حين وفد عليه عمرو والزبرقان فسأل عمراً عن صاحبه فقال: مطاع في أدنيه، شديد العارضة، مانع لما وراء ظهره فقال: حسدني وحطني، فقال: إنه لزمر المروءة ضيق العطن أحمق الولد لئيم الخال، والله ما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الآخرة، يضرب في استحسان المنطق وإيراد الحجة البالغة.

---

(١) أخرجه أبو داود من رواية صخر بن عبد الله بن بريدة عن أبيه عن جده، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن من البيان لسحراً، وإن من العلم جهلاً، وإن من الشعر حكماً، وإن من القول عيا" ج١٠ ص ٥٤٠ فتح الباري ابن حجر العسقلاني.

ب - أن يكون مقدراً مفروضاً كقولهم طارت به العنقاء، أي: طالت غيبته وليس للعنقاء عمل فيها، قال البحتري:

أتت دون ذاك الدهر أيام جرهم وطارت بذاك العيش عنقاء مغرب

والأمثال على ألسنة البهائم والجمادات من هذا القبيل كقولهم: لو قيل للشحم أين تذهب فقال: أسوي العوج، يضرب في السليم المعتدل الأعضاء.

وأما التمثيل - وكلام الله وارد عليه – فعلى ضربين أيضاً:

الأول: أن يكون تحقيقاً كقوله تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا**﴾[سورة آل عمران آية: ١٠٣] في وجه شبه استظهار العبد بالله ووثوقه بحمايته، والتجاءه من مكاره الدهر ومكائد النفس إليه، بامتساك الواقع في مهواة مهلكة بحبل وثيق مدلى من مكان مرتفع يأمن انقطاعه، وقوله تعالى: ﴿**لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ**﴾[سورة الحجرات آية: ١] لما أن التقدم بين يدي الرجل خارج من صفة المتابع المنقاد، جعله تصويراً للهجنة فيما نهوا عنه من الإقدام على ما يحكمان به، وفي القطع للأمر بغير إذنهما، ويقال لمن يتخيل في ميل صاحبه إلى ما كان يمتنع منه: ما زال يفتل منه في الذروة والغارب، أي: لم يزل يرفق بصاحبه رفقاً يشبه من يفتل الشعر في ذروة الجمل الصعب وغاربه حتى يستأنس، ويقال لمن يعمل في غير معمل:

ونار لو نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ في رماد
لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

ولك أن تضم قوله تعالى: ﴿**ختم الله على قلوبهم**﴾ إلى هذا بأن يمثل قلوبهم حيث لم يستنفعوا بها في الأغراض الدينية التي كلفوا بها بأشياء محققة ضرب حجاز بينها وبين الاستنفاع به بالختم والتغطية.

الثاني: أن يكون تقديرياً، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾[سورة الأحزاب آية: ٧٢] الآية في وجه، مثلت حال التكليف في صعوبتها وثقل محملها بحالة مفروضة لو عرضت على السموات والأرض، ولك أن تقيس عليه قوله تعالى: ﴿**ختم الله على قلوبهم**﴾ على أصول المعتزلة بأن تضرب الجملة كما هي،

مثلاً مثّلت حال قلوبهم فيما كانت عليها من التجافي عن الحق بحال قلوب مفروضة ختم الله عليها حتى لا تعي شيئاً ولا تفقه كقلوب البهائم.

تقسيم آخر:

وتنقسم الاستعارة أيضاً باعتبار الطرفين والجامع إلى ستة:

أحدها: استعارة محسوس لمحسوس بوجه حسي، قال تعالى: ﴿**وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ**﴾[سورة الكهف آية: ٩٩] فإن المستعار منه حركة الماء على وجه مخصوص والمستعار له حركة القوم والجامع ما يشاهد من شدة الاضطراب، وقال تعالى: ﴿**وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا**﴾[سورة مريم آية: ٤] فالمستعار منه هو النار والمستعار له الشيب والجامع الانبساط، وقيل: هذا ليس مما نحن فيه، ولا فيه تشبيهان كما قدّره صاحب الكشاف، بل هو من التبعية بأن يجعل المشبه انتشار الشيب في الشعر والمشبه به اشتعال النار، والجامع فُشُوُّ الشيء في الشيء، ورد بأن هذا الاعتبار لا يمنع من الاعتبار الأول، وأن مرجع التشبيهين في قول صاحب الكشاف إلى الاستعارة التمثيلية، وذلك بأن شبه الشيب وفشوه في الرأس وأخذه منه كل مأخذ بشواظ النار واشتعاله في الحطب، فيسرع فيه الإحراق، والجامع سرعة انبساط بياض في سواد مع تعذر التلافي.

والثانية: استعار محسوس لمحسوس بوجه عقلي قال تعالى: ﴿**وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ**﴾[سورة يس آية: ٣٧] فالمستعار منه كشط الجلد عن الشاة والمستعار له إزالة الضوء عن مكان الليل والجامع ما يعقل من ترتب أمر على آخر، وقال تعالى: ﴿**إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ**﴾[سورة الذاريات آية ٤١] المستعار له الريح والمستعار منه المرأة والجامع المنع من ظهور النتيجة، وقيل: فيه نظر؛ لأن العقيم صفة للمرأة لا اسم لها، وكذلك جعل صفة للريح لا اسماً.

والحق أن المستعار منه ما في المرأة من الصفة التي تمنع من الحمل، والمستعار له ما في الريح من الصفة التي تمنع إنشاء مطر وإلقاح شجر.

ورد بأن النظر مبني من انقلاب التبعية مكنية ودونه خرط القتاد.

وثالثها: استعارة معقول لمعقول، قال تعالى: ﴿**وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ**﴾[سورة غافر آية: ١٥٤] فالمستعار منه إمساك اللسان عن الكلام، والمستعار له تفاوت

الغضب عن اشتداده إلى السكون، والجامع الإمساك عن الإغراء.

ورابعها: استعارة محسوس لمعقول قال تعالى: ﴿**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ**﴾[سورة الأنبياء آية: ١٨] استعار القذف لإيراد الحق على الباطل والدمغ لإذهاب الباطل، والجامع إيراد الشيء على الشيء، وإزالته عنه.

وخامسها: استعارة معقول لمحسوس، قال تعالى: ﴿**إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ**﴾[سورة الحاقة آية: ١١] فالمستعار منه التكبر والمستعار له كثرة الماء والجامع الاستعلاء المفرط.

وسادسها: استعار محسوس لمحسوس بما بعضه حسي وبعضه عقلي، نحو قولك: رأيت شمساً، تريد إنساناً، والجامع حسن الطلعة ونباهة الشأن ولقول أبي تمام:

كأن بني نبهان يوم وفاته نجوم سماء خر من بينها البدر

شبه الدراج بالبدر في حسن الطلعة وعلو المرتبة ونباهة الشأن.

شرائط وجوه حسن الاستعارة:

أحدها: أن لا تكون مطلقة أي لم تعقب بصفات أو تفريع كلام ملائم لأحد الطرفين، بل تكون إما مجردة بأن يفرّع على المستعار له نحو: ساورت أسداً شاكي السلاح وجاورت بحراً جامعاً للدقائق.

قال كثير[1]:

غمر الرِّدَاء إذا تبسَّم ضاحكاً غلقت لضحكته رقاب المال

استعار الرداء للمعروف؛ لأنه يصون عرض صاحبه، ووصفه بالغمر الذي هو وصف للمعروف، وأنه في الحقيقة وصف للبحر المستعار منه أولاً، فيكون تجريداً غب[2] ترشيح. وإما مرشحة بأن تفرع على المستعار منه نحو: ساورت أسداً عظيماً اللبدتين وحاورت بحراً يتلاطم أمواجه.

ومنه في وجه ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعاً**﴾[سورة آ ل عمران آية: ١٠٣] استعار لعهده أو لكتابه بالحبل، ثم رشحها بقوله: واعتصموا؛ لأنه ملائم للمستعار منه.

---

(١) الديوان ص ٢٨٨ ت. إحسان عباس. ويعني بقوله: غمر الرداء: كثرة العطاء والمعنى أنه يعطي الكثير، ويجود بعين المال لا لونه.

(٢) معناها: بَعْد.

وقال أبو الطيب:

تبل خدي كلما ابتسمت   من مطر برقه ثناياها

وتفسيره: ومن طاعتي إياه أمطر ناظري إذا هو أبدى من ثناياه لي برقاً.

وقد اجتمعتا في قولـــه تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**﴾[سورة البقرة آية: ١٦] فقوله: فما ربحت تجارتهم ترشيح، وقوله: وما كانوا مهتدين تجريد؛ لأنه ملائم للمستعار له، وفي قول زهير:

لدى أسد شاكي السّلاح مُقذّف   لـــه لُبدٌ أظفـــاره لم تُقلَّم

وقول أبي العلاء:

أردنا أن نصيد بها مهاة   فقطّعت الحبائل والحبالا

ونـــم بطيفها الساري جـــواد   فجنبنا الزِّيـــارة والـــوصـــالا

الحبائل والحبالا ترشيح لاستعارة المهاة للحبيبة، ثم قولـــه: ونَمَّ بطيفها، تجريد لها.

والترشيح أبلغ من التجريد لاشتماله على تحقق الاستعارة بأبلغ وجه وتناسي التشبيه وصرف النفس عن توهمه حتى بني على علو القدر، كما يبنى على علو المكان كما فعل أبو تمام، إذ قال:

خدم العلا فخدمنه وهي التـــي   لا تخدم الأقوام ما لم تخدم

وإذا ارتـــقى في قلة مـــن سؤدد   قـــالت لـــه الأخرى بلغت تقدم

وكلما تعددت الاستعارة في التفريع زاد حسنها، ألا ترى إلى الأبيوردي:

وفي الحدوج الغوادي كلُّ غانية   يُروى مُؤزرَّها والخصر ظمـــآن

كيف نبذ استعارة الغصون للقدود وراءه ظهرياً وبنى على الفرع وهو يروى وظمآن.

وكذا قول أبي العلاء في السيف:

ما كنت أحسب جفنا قبل مسكنه   في الجفن يُطْوَى على نار ولا نهر

ولا ظننت صغار النمـــل يمكنها   مشي على اللُّجّ أو سعي على السُّعُرِ

لولا أن طرائق السيف هي الماء والنار ادّعاء لما كان لنفي الحسبان فائدة، وأن فرنده هو النمل بعينه لما صحّ المشي والسعي على اللج والسعر وحسن التعجب منها كما، في

قول الغزي[١]:

فبت ألثم عينيها ومن عجب أني أقبل أسيافا سفكن دمي

وإذا جاز البناء على تناسي التشبيه في الأصل كما في قول الفرزدق:

أبي أحد الغيثين صعصعة الذي متى تخلف الجوزاء والدلو يمطر

فإنه نسي التشبيه وبنى على أن أباه أحد الغيثين اللذين إن أمسك أحدهما أمطر.

وكما قال الآخر:

ومن العجائب أن عضوا واحداً هـو مـنك سهم وهو مني مقتل

فلأن يجوز في فرعه أحرى.

وثانيها: أن لا يشم فيها من جانب اللفظ رائحة التشبيه؛ ولذلك نوصي في المصرحة أن يكون الجامع جلياً بنفسه أو معروفاً، وإلا خرج إلى التعمية والإلغاز؛ كما إذا قيل: رأيت أسداً وأريد إنسان أبخر ورأيت إبلاً مائة لا تجد فيها راحلة، وأريد الناس، وقال:

ينازعني ردائـي عبد عمـرو رويدك يا أخا عمرو بن بكر
لـي الشطر الذي ملكت يميني ودونك فـاعتجر منه بشطـر

استعار الرداء للسيف والجامع هو أن كل واحد يصون صاحبه عن المكروه وهو خفي في السيف، وليس في اللفظ قرينة ولا فيه رائحة التشبيه، وفي التخييلية أن تكون تابعة للمكنية في أن تذكر معها أو لازمها المساوي، فإنه مشروط في المكنية، وإذا لم تكن تابعة، و لم تذكر معها اللازم المساوي كقول الطائي[٢]:

لا تسقني مـاءَ المـلام فإنـني صَـبٌّ قد استعذبت ماء بُكَائـي

وقول أبي الطيب[٣]:

وقد ذقت حلواء البنين على الصِّبا فلا تَحْسبنّي قلت ما قلت عن جهل

استهجنت حتى قال الصاحب وما زلنا نتعجب من ماء الملام فخف بحلواء البنين،

---

(١) أبو إسحاق بن يحيى بن عثمان ترجمته في وفيات الأعيان ١: ٤٨

(٢) الديوان ص ٢٢ ج١ ت. عبد الوهاب عزام.

(٣) من قصيدة يرثي أبا الهيجاء عبد الله بن سيف الدولة.

وأحسن ما قيل في العذر عن الأول قول المرزوقي: إنما ذكر ماء الملام لما قال بعده ماء بكائي على طريقة المشاكلة.

وثالثها: أن تكون التخييلية مؤكدة لمعنى المشاكلة كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ**﴾[سورة الفتح آية: ١٠] أكد بقوله يد الله بعد التخييل، معنى المشاكلة في يبايعون، فإذن بلغ قول الطائي منتهى في الحسن.

ورابعها: أن تكون بعيدة الغور لا تدرك في بدء الفكرة قال بعضهم:

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح

أي: كانت حوائج مني كثيرة كالقربة إلى الله -تعالى- بالحق والرمي والنحر والطواف ومسح الأركان ونحوها، والزلفة إلى المحبوب بالتلاقي والتشاكي، والتعزل والتشبب وشبهها، فلما قضينا أوطاراً التمسناها وأتينا سائرين، أخذنا في أحاديث ذوي المتعة والأهواء والرقة عن التعويض والتلويح والرمز والإيماء، وشغلتنا تلك اللذة عن إمساك أزمة المطايا فأسرعت في السير، وفي لطف الاستعارة أن السرعة كانت في لين الماء وسلاسته، وأن الأباطح سالت بالأعناق على التجريد، أي امتلأت بها وسالت معها، وأن الأعناق سالت دون المطي؛ لأن حركتها أبين في السير من سائر أعضائها، ونبه بذلك على سرعة السير، ووطاء الظهر، ثم على الهزة من نشاط الركبان، ثم على زيادة طيب الحديث.

وخامسها: أن تكون تفضيلية كما في التشبيه.

وسادسها: أن يجتمع في الكلام عدة استعارات، قال تعالى: ﴿**فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ**﴾[سورة النحل آية: ١١٢] استعار القرية للأهل على طريقة المكنية، والذوق للكسوة على التحقيقية وعدل عن كساها؛ لأن الإذاقة أقوى في الإدراك من اللمس، واللباس للجوع لما يغشى عند الجوع والخوف على الاحتمالين، وعدل عن الطعم لبيان عموم الأثر والأظهر أن فيها استعارتين، أولاهما كالتجريد للثانية بعد اشتهارها في معنى الإصابة، كأنه قيل فأصابهم الله غشيان الجوع والخوف، وإذا روعي في الجمع مراعاة النظر لتكون كل واحدة كالترشيح للأخرى كان أحسن، كما في قول امرئ القيس:

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

وصف أحوال الليل الطويل ومقاساته، فاستعار لامتداد وسطه الصلب وجعله

متمطياً، ولضغط صدره الكلكل وجعله ثانياً، ولثقل آخره الأعجاز وجعلها مردفاً فاستوفى في الرعاية أغلب أركان التعبير، ومنه أن آخر الليل، كأنه أضغط لارتداف العجز على الكلكل فإن البعير إذا شخص للثوران بدأ بالعجز.

النوع الثاني من المجاز العقلي

وهو الكلام المحكوم فيه بخلاف ما عند المتكلم بالتأول، كقول الموحد: أنبت الربيع البقل، لما أنه رأى دوران الإنبات مع الربيع وجوداً وعدماً دوران الفعل مع اختيار القادر، حكم أنه من الربيع مبالغة، وقولهم كسا الخليفة الكعبة لما رأوا دوران كسوة البيت مع أمره وجوداً وعدماً أسندوا إليه، وكذا القول في هزم الأمير الجند، ولابد لهذا المجاز من نوع تعلق وشبه للمسند إليه المذكور بالمتروك كما مر آنفاً، فقولنا: بخلاف ما عند المتكلم احتراز من أن يتفوه الدهري المخذول بأنبت الربيع البقل؛ لأنه لم يقصد فيه خلاف ما عنده؛ ولذلك لا ترى العلماء يحملون، نحو: قول الشاعر:

أشاب الصغير وأفنى الكبير ... كر الغداة ومَرُّ العشي

على المجاز، ما لم يعلموا أن قائله ما أراد، أو ما ترى كيف استدلوا على أن إسناد ميزّ إلى الجذب في قول أبي النجم:

قد أصبحت أم الخيار تدَّعي ... عَلَّى ذنباً كله لم أصنع

من أن رأت رأسي كرأس الأصلع ... ميــز عنه قنــزعاً عن قنــزع

جذب الليالي أبطئي أو أسرعي

مجاز، بما أتبعه من قولـــه:

أفناه قيل الله للشمس اطلعي ... حتى إذا واراك أفق فارجعي

وقولنا بالتأوُّل احتراز عن الكذب، وإنما سمي هذا النوع مجازاً لتعدي الحكم فيه عن مكانه الأصلي، فالحكم في أنبت الربيع البقل، مكانه الأصلي أنبت الله البقل وقت الربيع، وفي كسا الخليفة الكعبة كسا الأعوان.

وسمي عقلياً لرجوعه إلى العقل دون الوضع، أي الواضع ما قيد الفعل بأن يستعمل في القادر المختار حتى إذا استعمل في غيره كان مجازاً بل أطلق، وقيل: العقل شاهد بالقيد، ورد بأن الصدور إذا كان لابد لها من قادر مختار فلا يحتاج حينئذ إلى شرط الواضع للعبث، فإن لم تجعل شهادة العقل دليلاً على عدم التقييد فلا أقل من أن لا تجعل دليلاً عليه، وأيضاً يلزم منه أن تكون المصادر المضافة إلى معمولاتها كنحو فعل النار في الماء التسخين مجازاً والضابط في كل كلام عُدِّي الحكم فيه عن مكانه الأصلي أن نجعل العقل حاكماً فيه، فأي شيء ارتضاه فهو ذاك، فقل في نحو: سرتني رؤيتك: سرني الله وقت رؤيتك، وأنبت الربيع البقل: أنبت الله البقل وقت الربيع وقوله(١):

يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته ....

يزيدك الله حسنا في وجهه لما أودعه من الحسن والجمال.

قال جار الله: للفعل ملابسات شتى: يلابس الفاعل نحو: ﴿**خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ**﴾ والمفعول به نحو ﴿**عيشة راضية**﴾[سورة القارعة آية: ٧]، وعكسه سيل مفعم، والمصدر شعر شاعر، والزمان: نهاره صائم وليله قائم، والمكان: طريق **سائر**،ونهر جار ومن الأمثلة ما جاء في المجرور ﴿**فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ**﴾[سورة البقرة آية: ١٦] أي: التاجر في تجارته، والظرف: ﴿**يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا**﴾[سورة المزمل آية: ١٧] أي: في ذلك اليوم، والمفعول به: ﴿**تؤتي أكلها**﴾[سورة إبراهيم آية: ٢٥] أي: يؤتي الله الشجرة ثمرها، والمضاف إليه ﴿**حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا**﴾[سورة محمد آية: ٤] أي:أصحاب الحرب، والمصدر: ﴿**يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً**﴾[سورة النساء آية: ٧٧] إذا كان صفة أي خشية أشد خشية من خشية الله على طريقة نحو قولهم: جد جده، قال الحماسي:

إذا المرء لم يحتل وقد جد جده أضاع وقاسى أمره وهو مدبر

ومنه قوله تعالى: ﴿**وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ**﴾ [سورة هود آية: ٩٩] أي: بئس العون المعان، فإن اللعنة لما تبعتهم كأنها رفدتم على تحصيل ما يستوجبون به العذاب على التهكمية فلما أعينت في الآخر بلعنة أخرى صارت

---

(١) أبو نواس: الحسن بن هاني.

مرفودة، فإذن اللعنة ملعونة، وفي الحقيقة هم الملعونون دنيا وعقبى، ومنه قول أبي تمام:

تكاد عطاياه تجن جنونها إذا لم يعوذها بنغمة طالب

وقد استعمل في الإنشائية أيضاً قال تعالى: ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا**﴾[سورة غافر آية: ٣٦] وقال: ﴿**فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا**﴾[سورة القصص آية: ٣٨] وقال: ﴿**فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى**﴾[سورة طه آية: ١١٧].

وينقسم المجاز باعتبار طرفيه إلى أربعة:

أ – أن يكون حقيقتين وضعيتين نحو: أنبت الربيع البقل.

ب– أن يكون مجازين وضعيين نحو: أحيا الأرض شباب الزمان.

ج – أن يكون المحكوم فيه حقيقة وضعية والمحكوم عليه مجازاً وضعياً، نحو: أنبت البقل الشباب.

د – عكسه نحو أحيا الأرض الربيع.

تذييل:

واعلم أن الشيخ(١) نظم هذا المجاز في سلك الاستعارة بالكناية بأن جعل الربيع استعارة عن القائد الحقيقي بوساطة المبالغة في التشبيه، ونسبة الإنبات القرينة.

وجعل الأمر المدبر لأسباب هزيمة العدو استعارة عن الجند ونسبة الهزم القرينة، وكذا القول في ﴿**يَا هَامَانُ ابْنِ لِي**﴾.

وجار الله سلك هذا المسلك في قولـــه تعالى: ﴿**ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ**﴾[سورة آل عمران آية: ٥٨] حيث قال: والذكر الحكيم القرآن، وصف بصفة من هو بسببه، أو كأنه ينطق بالحكمة لكثرة حكمه.

فعلى هذا يجعل النهار في قولنا: زيد نهاره صائم استعارة من الفاعل الحقيقي وهو كل من قام به الصوم، أو مراداً به زيد المتخيل، وهما غير زيد فلا يلزم إضافة الشيء إلى نفسه كما ظن.

---

(١) الشيخ هو أبو يعقوب السكاكي؛ لأنه جعل جانباً من المجاز العقلي مما أطلق عليه الاستعارة المكنية.

والأوجه أن يقال إن المستعار له هو نهاره، وإتيان الضمير لإيراد لفظ النهار المخصوص الذي هو المستعار له لا النهار المطلق، فيندفع بالأول أيضاً إيراد الظَّان أن جواز التركيب في نحو: أنبت الربيع البقل متوقف على الإذن؛ لأن المنهي هو التسمية، على أن المعتزلة لا تلتزمه وأن نهاره نسبة لذكر الطرفين.

وما ذهب إليه الشيخ هو الحق إذ من شرط هذا المجاز أن تكون العلاقة بين المذكور والمتروك التشبيه، كما سبق وإلا لم يصح كما إذا قيل: أنبت الربيع البقل.

وقال جار الله وقد يسند إلى هذه الأشياء على طريق المجاز المسمى استعارة لمضاهاتها الفاعل كما يضاهي الرجل الأسد، وما هذا شأنه لا يكون إلا استعارة.

هذا ثم جرب ذوقك في قول القائل:

من كان في الدنيا أخا ثقة بها ... والأمن مذهب ليله ونهاره

عطفت عليه من الردى بغوائل ... قد نام عنها ناظر لحذاره

كيف تجده في لطف قوله: والأمن مذهب ليله ونهاره عند الاستعارة، وتفقده عند المجاز العقلي، وكن الحاكم الفيصل دون الشيخ رحمه الله.

الأصل الثالث في الكناية

وهي ترك التصريح بالشيء إلى ما يساويه في اللزوم لينتقل منه إلى الملزوم، كما يقال: فلان طويل النجاد أي طويل القامة، وسميت كناية لما فيها من إخفاء وجه التصريح، ومنه الكنى لما فيها من إخفاء وجه التصريح بالعلم، وهي إما مطلقة أو غير مطلقة.

والمطلقة: هي ما يطلب منه نفس الموصوف، وهي إما لمعنى واحد نحو قولك مضياف كناية عن زيد بسبب اختصاصه به، أو لمعاني مجموعة كقولك: حي مستوي القامة عريض الأظفار وتعني به الإنسان. وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ**﴾[سورة البقرة آية: ٢] أي: عني بالمجموع المتقون، ولاستواء هذه الكناية بين المكني والمكني عنه يتمكن المتكلم من وضع الوصف موضع العلم كقوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ**﴾[سورة الزخرف آية: ٩-١٤] وإنما يكون جوابهم الله فحسب، فوضع الآيات موضعه، والمعنى لينسبن خلقها إلى الذي يوصف بهذه الأوصاف، ومنه

مصداق لقول من ذهب إلى أن اسم الله دال على الذات الجامعة لصفات الإلهية كلها.

وغير المطلقة: تتنوع إلى رمز، وتلويح، وإيماء، وتعريض.

الرمز: هو ما يشار به إلى المطلوب من قرب مع الخفاء ونعني بالقرب أن ينتقل إلى المطلوب من لازم واحد، وبالخفاء ضعف اللزوم، وسمي رمزاً للطف الإشارة وإنما يحسن كل الحسن بأن يجري بين المتحابين، قال زهير:

وللعيون رسالات مرددة … تدري القلوب معانيها وتخفيها

وقال الآخر:

ولما توافقنا غداة وداعنا … أشرن إلينا بالجفون الفواتر

فلم أر شيئاً كان أحضر شاهداً … من اللحظ ينبي عن دخيل الضمائر

والمطلوب في هذا النوع نفس الصفة، وقد يكون المطلوب فيه الإخفاء مراعاة للموصوف، قال صلوات الله عليه لعدي «**إنك لعريض القفا**» كناية عن الحمق، واحترازاً من بشاعة اللفظ، كما في الكناية عن الجماع بالإفضاء والغشيان واللمس قال تعالى: ﴿**أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ**﴾[سورة النساء آية: ٢١] وقوله: ﴿**فَلَمَّا تَغَشَّاهَا**﴾[سورة الأعراف آية: ١٨٩] ﴿**أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ**﴾[سورة النساء آية: ٤٣] وقال امرؤ القيس:

فصرنا إلى الحسنى ورقَّ كلامنا … ورُضتُ فَذلتَّ صعبةً أيَّ إذلال

أو الاستهجان للصفة قال تعالى: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ**﴾ [سورة البقرة آية: ١٨٧] تقبيحاً لما وجد منهم قبل الإباحة كما سماه إتياناً، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ**﴾[سورة الأعراف آية: ١٤] تصويراً لشدة ندمهم فإن من شأن المتندم أن يعضّ يده.

أو المدح للموصوف، قالت الخنساء:

طويل النجاد رفيع العماد … ساد عشيرته أمرداً

عنت بطول النجاد طول قامته، وبارتفاع عماده سيادته، وبقولها ساد عشيرته أمرداً استحقاقه لها بالوراثة أو لم يزل ماجداً، وقال امرؤ القيس:

ويضحي فتيت المسك فوق فراشها … نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

أي: أنها مخدومة مرفهة معطرة؛ لأن وقت الضحى وقت سعي نساء العرب بأن تشد نطاقها للخدمة ولا تنام فيها إلا المخدومة.

والتلويح: وهو ما يشار به إلى المطلوب من بُعْد مع خفاء، يعني بالبعد أن ينتقل إلى الملزوم بوساطة لوازم؛ وسمي تلويحاً لبعد المطلوب، قال الرضي:

وملتبس بالركب بادرت خلفه أُلَوِّح بالأردان وهو يراني

وكذلك هنا المطلوب نفس الصفة، قالت في حديث أم أبي زرع: زوجي رفيع العماد، طويل النجاد، عظيم الرماد، قريب البيت من النار، قولها: عظيم الرماد، يدل على كثرة الجمر، وهي على كثرة إحراق الحطب، وهي على كثرة الطبائخ، وهي على كثرة الأكلة، وهي على كثرة الضيفان، وهي على أنه مضياف، وقولها قريب البيت من النار، يدل على معرفة الناس بمكانه، ثم على كثرة تناديهم إليه، وقصدهم إياه لمهماتهم، ثم على سيادته وتفوقه.

وقال حسان:

يُغْشَوْنَ حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المُقْبِلِ

فإن ترك الهرير يدل على جبنه، وجبنه على مشاهدته وجوهاً إثر وجوه، وهي مشعرة بكثرة تردد الضيفان، وهي بكونهم مضيافين، وقوله لا يسألون، إما تكميل فيكون كناية عن شجاعتهم وشدة جأشهم، أو تتميم فيكون عبارة عن إرادة مزيد سخاوتهم.

قال ابن هرمة:

لا أمتع العوذ بالفصال ولا أبتاع إلا قريبة الآجال

دل بقوله لا أمتع العوذ على أنه لا يبقى له فصيلاً فتنتفع به أو على أنه لا يبقيها فينتفع الفصيل بها، ودل بقوله قريبة الأجل على أنها لا تلبث عنده حية، ودل على أنه ينحرها، ثم على أنه يصرفها إلى قرى الضيفان ثم على أنه مضياف.

ومنه قولـــه تعالى: ﴿**ختم الله على قلوبهم**﴾ على أصول المعتزلة فإن الختم والتغطية مشعران بأن الله -تعالى- لم يقسرهم ولم يلجئهم إلى الإيمان، وترك القسر والإلجاء مشعر بأن الإلجاء والقسر مقتضى حالهم؛ لأن الترك إنما كان ينتقص غرض التكليف وإلا كان الحق أن يقسروا؛ لأنه هو الطريق إلى إيمانهم وكون القصر والإلجاء مقتضى حالهم مشعر بأن الآيات والنذر لا تغني عنهم، والألطاف لا تجدى عليهم، وكون الآيات والألطاف لا تنفعهم مشعر بأن ترامى أمرهم في التصميم إلى أقصى غاياته ومدى نهاياته، والله أعلم.

ومن لطيف هذا الباب ما روي أن امرأة اشتكت إلى بعض ولد سعد بن عبادة قلة

الفأر في بيتها، فقال املأوا بيتها خبزاً وسمناً ولحماً.

الإيماء: وهو الكلام المشار به إلى المطلوب من قريب لا مع الخفاء، يعني بعدم الخفاء قوة اللزوم وسمي إيـــماء؛ لظهور المشار إليه.

وهو إما لتخصيص الصفة بالموصوف، قال زياد الأعجم(١):

إن السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج

فإنه حين أراد أن يخصص الصفات بالممدوح من غير تصريح عرفها تعريف جنس، ثم جعلها مظروفاً للقبة، وجعل القبة مضروبة على ابن الحشرج، وألطف منه قولـــه:

والمجد يدعو أن يدوم بجيده عقد مساعي ابن العميد نظامه

فإنه حين أراد إثبات المجد للممدوح على الاختصاص شبه أولاً المجد بخريدة بديعة الجمال، وأضاف إليه جيداً على سبيل الاستعارة التخييلية، ثم رشحها بالعقد، ثم راعى المناسبة بين العقد والنظام، ثم لما أراد إثبات المجد للممدوح أثبت له مساعي وجعلها نظام العقد على التشبيه، ثم زاد فيه بأن بين أن مناط العقد هو جيد المجد على الكناية، ثم نبّه بتعريف الجنس للمجد وبدعائه دوام التزيّن على الاختصاص، وقول أبي تمام:

إذا العيس لاقت بي أبا دُلَف فقد تقطع ما بيني وبين النوائب

هنالك تلقى الجود في حيث قُطِّعت تمائمه والمجد مُـــرْخَـــى الذوائب

فإنه جعل منشأ الجود ومولده مجلس أبي دلف، ثم لما أراد الزيادة جعل مجلسه مكان تربيته وبلوغ كماله، ثم استزاد بقوله: حيث قطعت تمائمه إنه لا يريد المفارقة عنه، كما قال الأسدي(٢):

أَحَبُّ بلاد الله مـــا بيـــن منعج إلَـــيَّ وسَلْمَى أن يصوب سحابها

بلاد بـــها حَـــلَّ الشباب تمائمي وأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جلدي ترابهـــا

وكذا الكلام في إرخاء الذوائب، ومنه قولهم مجلس فلان مظنة الجود والكرم، وقال:

أو ما رأيت المجد ألقى رَحْلَهُ في آل طلحة ثم لم يتحول

---

(١) شاعر أموي من الموالي. والبيت في الإيضاح ص ٤٦٢ جـــ ٢.

(٢) الرقاع بن قيس الأسدي لسان العرب ٢٩٦/٩.

وقال أبو نواس:

فما جازه جود ولا حلّ دونه ولكن يصير الجود حيث يصير

هذا وفي جانب النفي قال الشنفري يصف امرأة بالعفة[1]:

يبيت بمنجاة من اللؤم بيتها إذا ما بيوت بالملامة حَلَّت

أو لتخصيص الموصوف بالصفة قال:

من نور وجهك تُضْحي الأرض مشرقة ومِنْ بنَانك يجري الماء في العود

أضحت يمينك من جود مُصَوَّرة لا بل يمينك منها صورة الجود

أراد أن يخصص الممدوح بصفة الجود، فجعل يمينه مصورة منه، فإذا صورت منه ميزت عن غيره على طريقة قولها:

فإنما هي إقبال وإدبار

ثم بالغ فيه حيث جعلها منبع الجود ومعدنه، ومنه قولــه تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ**﴾[سورة آل عمران آية: ١٤] جعل المشتهيات عين الشهوات قصداً إلى تجنبها فإن الشهوة، مسترذلة عند الحكماء وإلى التخصيص أشار جار الله بأداة الحصر حيث قال: إن المزين لهم حبه ما هو إلا الشهوات لا غير.

وقول أبي تمام:

ولو صَوَّرت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطِّباع

والمعنى أنك لم تتجاوز عن معنى الكرم إلى صفة أخرى بحيث لو صورت معناك ما زدت عليه.

ومصير قول أبي العلاء:

ويُكْنَى باسمه عن كُلِّ مجد وكُلُّ اسم كنايته فلان

إلى هذا النوع، عنى أن ذاته مجموع معاني المجد؛ لأن اسمه الدال عليه كناية عن أسامي المجد، فإن لم يكن هو حقيقة المجد بأسرها لم يكن اسمه كناية عنه، كما أن فلاناً كناية عن كل اسم دال على معنى، ومن القبيلين قولــه تعالى: ﴿**أولئك هم المفلحون**﴾ بحسب التعريف كما مر، وقولهم المجد بين ثوبيه، والكلام بين برديه لأن حقيقة المجد إذا

---

(١) الشنفري الأزدي، شاعر جاهلي من الصعاليك عداء يضرب به المثل، الإيضاح ص ٤٦٥.

حصلت بين ثوبيه لم يتجاوز إلى غيره وأنه إذا جعل ذاته حقيقة المجد لم يكن هو شيئاً آخر.

أو لإثبات الصفة له بحسب ما وجد في أقرانه، قالوا: مثلك لا يبخل نفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عن ذاته مبالغة؛ لأنهم إذا نفوه عمن هو على أخص أوصافه، فقد نفوه عنه باللزوم، وقد كشف عنه أبو الطيب في قوله:

مثلك يثني الحزن عن صوبه ... ويسترد الدمع عن غربه

ولم أقل مثلك أعني به ... سواك يا فرداً بلا مشبه

ونظيره: غيرك لا يجود، وقال:

وَغَيْرُ من أَنْتَ سوى غيره ... غير سوى غَيْرِكِ غير البخيل

ويقال للعربي: العرب لا تخفر الذمم، أي: أنت لا تخفر.

ويقرب منه العدول عن التعبير بالوصف إلى جعل الموصوف واحداً ممن اشترك فيه، كالعدول من نحو فلان عالم إلى: هو من العلماء، إيذاناً بأن له مساهمة معهم في العلم وأن الوصف كاللقب المشهود له كقوله تعالى: ﴿**إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ**﴾[سورة الشعراء آية: ١٦٨] ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿**وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ**﴾[سورة الفرقان آية: ٣٧] إنما كذبوه وحده؛ لأن الرسالة وصف جامع فيلزم من تكذيبه تكذيبهم إن حمل اللام على الاستغراق، وعكسه إن حمل على الحقيقة نحو فلان يركب الدواب وما له إلا دابة.

أو لإثباتها لمجرد التحسين قال الحماسي:

أبت الروادف والثُّديُّ لقُمْصِها ... مَسَّ البطون وأن تمس ظهوراً

عنى بها أنها ناهدة الثديين، دقيقة الخصر لطيفة البطن عظيمة الكفل، فالثدي تمنع القميص أن يلتصق ببطنها، والردف يمنعها أن تلتصق بظهرها فبين في عجز البيت ما لفَّه في صدره، وعبر عن تلك الألفاظ بأحسن العبارات، وقد كنى السيد الرضي عن العفة والنزاهة بقوله:

أحن إلى ما تضمن الخمر والحلى ... وأصدف عما في ضمان المآزر

ومن الأمثلة نفي الشيء بنفي لازمه، قال تعالى: ﴿**أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ**﴾[سورة يونس آية: ١٨] أي بما لا ثبوت له ولا علم الله متعلق به، إذا لو ثبت لتعلق العلم به

لشمول علمه جميع الكائنات.

وقال علي ﷺ في صفة مجلس رسول الله ﷺ: لا نثني فلتاته: أي لا فلتات فيه ولا انثناء.

قال ابن الأثير:

أَذْئَيْنَ جلباب الحياء فلن يــرى لذيولهن على الطريــق غُبــارُ

ليس المراد أنهن مشين هوناً فلا يظهر لذيولهن غبار، لكن أنهن لا يجررن ذيولهن على الأرض حتى يكون لها غبار.

وقال:

ولا ترى الضَّبَّ بها ينجحر

أي: لا ضب ولا انجحار، وأنشد الواحدي للأعشى:

لا يغمز الســاق من أين ولا وصب ولا يعــض على شَرْسُوفه الصفن

قال ليس لساقه أين ولا وصب فيغمرها، ومعناه ليس هناك تعب رأساً؛ لأنه لو وجد لوجد الغمز لكونهم مرفهين محذوفين، وعليه قولــه تعالى: ﴿**يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ**﴾[سورة البقرة آية: ٢٧٣] وصفوا بالتعفف عن السؤال بحيث لا يعلم حالهم إلا صاحب فراسة، ولما أريد المبالغة والتتميم قيل لا يسألون الناس إلحافاً، أي ليس لهم سؤال فيكونوا ملّحين فإذًا لا سؤال بتاً، أو ليس لهم سؤال في حالة الاضطرار، فانتفاؤه في غيرها بالطريق الأولى أي لو وجد منهم سؤال لم يكن إلا على ذلك التقدير فأفاد أنهم يشرفون على الهلاك ولا يسألون، وقوله تعالى: ﴿**مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ**﴾[سورة غافر آية: ١٨] والغرض نفي الشفيع، وإنما ضمّت إليه الصفة ليؤذن بأن انتفاء الموصوف أمر محقق لا نــزاع فيه وبلغ في تحقيقه إلى أن صار كالشاهد على نفي الصفة، وعكسه: ﴿**يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ**﴾[سورة غافر آية: ٥٢] لأن الأصل ليس لهم معذرة نافعة فجعل انتفاء النفع دليلاً على انتفاء العذر، أي إذا لم تحصل ثمرة العذر فكيف يقع ما لا ثمرة له، فينتفي النفع وبالطريق البرهاني؛ لأن الصفة لا تتأتى بدون موصوفها، وكذلك قولــه تعالى: ﴿**وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ**﴾[سورة المرسلات آية: ٣٦] ومنه قولهم: لا أرينك ههنا، ينهى نفسه أن يرى المخاطب هناك، والمراد نهيه عن أن يكون بحيث يراه، وعليه قولــه تعالى: ﴿**فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ**﴾

[سورة الأعراف آية: ٢٠] أي: الحرج لو كان مما ينهى لنهيناه عنك، فانته أنت عنه بترك التعرض له.

والتعريض: وهو الكلام المشار به إلى جانب، وإيهام أن الغرض جانب آخر، وسمي تعريضاً لما فيه من التعوج عن المطلوب، ويقال نظر إليه بعرض وجهه: أي جانبه، ومنه المعاريض في الكلام وهي التورية بالشيء عن الشيء، وفي المثل إن المعاريض لمندوحة عن الكذب.

ويذكر هذا إما لتنويه جانب الموصوف، كما يقال أمر المجلس السامي نفذ والستر الرفيع قاصد، وقد أشار إلى المعنى زهير، حيث قال:

فَعرِّضْ إذا ما جئت بالبيان والحِمىَ ... وإياك أن تنسى وتذكر زينبا

سيكفيك من ذاك المسُميَّ إشارةٌ ... فدعه مصونا بالجلال مُحَجَّبا

وكما سئل الحطيئة عن أشعر الناس، ذكر زهيراً والنابغة، ثم قال: لو شئت لذكرت الثالث، أراد نفسه ولو صرح لم يفُخَمَّ، كأنه قال الذي تعورف واشتهر به، وعليه قوله تعالى: ﴿**وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ**﴾[سورة الأنعام آية: ١٦٥] أراد به محمداً -صلوات الله عليه- إعلاء لقدره، أي أنه العلم الذي لا يشتبه والمتميز الذي لا يلتبس.

أو ملاطفة به كما يقول الخاطب: إنك لجميلة صالحة، وعسى الله أن ييسر لي امرأة صالحة، عملاً بقوله: ﴿**وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ**﴾[سورة البقرة آية: ٢٣٥] أو استعطافاً منه كما يقول المحتاج: جئتك لأسلم عليك ولأنظر إلى وجهك الكريم، وقال:

أروح لتسليم عليك وأغتدي ... فحسبك بالتسليم مني تقاضيا

ومن أحسن التعريضات ما كتبه عمرو بن مسعدة إلى المأمون في أمر بعض أصحابه: أما بعد فإن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين وفي ابتدائي بذلك في حق فلان تعدي طاعته، فَوَقَّع، فقد عرفنا تصريحك لفلان وتعريضك لنفسك وأجبناك إليهما.

أو احترازاً عن المخاشنة، كما يقول في عرض ما يؤذي المؤمن: المؤمن هو الذي يصلي ويزكي ولا يؤذي أخاه المسلم، ويتوصل به إلى نفي الإيمان عنه وعليه قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ في وجه.

أو إهانة له وتوبيخاً قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾[سورة التكوير آية: ٧] وقال تعالى لعيسى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ﴾[سورة المائدة آية: ١١٦] أو استدراجاً له وهو إرخاء العنان مع الخصم ليعثر حيث يراد تبكيته وهو من مخادعات الأقوال حيث يسمع الحق على وجه لا يزيد غضب المخاطب، وقال تعالى: ﴿قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[سورة سبأ آية: ٢٥] وقال: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾[سورة سبأ آية: ٢٤] يبعثهم على الفكر في حال أنفسهم وما هم عليه من العبث والفساد وعبادة الأصنام وحال نفسه والمؤمنين وما هم عليه من الإصلاح وعبادة الملك العلاّم، ليعلموا أن المسلمين على أعلى العليين وهم في أسفل السافلين.

وأكثر مخاطبات الأنبياء مع القوم على هذا.

تنبيه: وههنا كناية استنبطها صاحب الكشاف وقال: هي أن تعمد إلى جملة معناها على خلاف الظاهر فتأخذ الخلاصة منها من غير اعتبار مفرداها بالحقيقة والمجاز فتعبّر بها عن مقصودك، كما تقول في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[سورة طه آية: ٥] إنه كناية عن الملك فإن الاستواء على السرير لا يحصل إلا مع الملك فجعلوه كناية عنه وكذا قوله تعالى: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[سورة الزمر آية: ٦٧] فالزبدة هي تصوير عظمته وكنه جلاله من غير ذهاب بالقبضة واليمين إلى جهتي حقيقة أو مجاز.

والظاهر أن هذه الكناية من نوع الإيماء.

واعترض الإمام[1] عليه وقال إن هذا يفتح باب تأويلات الباطنية، لأن المراد حينئذ من قوله تعالى: ﴿فاخلع نعليك﴾[سورة طه آية: ١٢] الاستغراق في الخدمة من غير تصور نعل وخلعه، وكذا نظائره.

وأجيب عنه أن هذا التأويل مستقر في الجملة المستلزمة للمحال ظاهراً وتلك ليست كذا.

ولك أن تأخذ الزبدة من قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ

---

(١) الإمام هو الفخر الرازي.

﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[سورة البقرة آية: ١٧] وهي تصميمهم على الكفر والإصرار عليه، وهذه لمعة من بوارق خواطر شيخنا العلامة الذي:

له نار تُشَبُّ بِكُلِّ وَادِ ... إذ النِّيران ألبست القناعا

ولمحة من إشارته الخفية التي تكاد تتأبى على ذوي الأبصار والأريحية، وذلك قوله في فاتحة كتابه.

وهذا النوع، أعني نفث الكلام لا على مقتضى الظاهر، يسمى في علم البيان كناية وله أنواع تقف عليها، زادنا الله اطلاعاً على رموز إشاراته وعثوراً على ما استودع فيه من نكاته.

خاتمـــة:

اعلم أن التشبيه أوكد في طرقي الترغيب والتنفير من سائر الصفات فانظر إلى البحتري كيف بالغ في تشبيه الورد بقوله:

أما ترى الورد يحكي خجلة ظهرت ... في صَحْن خَدٍّ من المعشوق منعوت

كأنه فوق ساق من زبرجدة ... نثر من التبر في مُحْمَرٍّ ياقوت

حيث صوره بصورة خد المعشوق وعند الخجلة ومثله بالتبر والياقوت والزبرجدة فأثبت في النفس خيالاً في نهاية من الحسن يدعو إلى الترغيب فيه.

وعكسه فعل ابن الرومي حيث قال:

وقائل لم هجرت الورد مقتبلاً ... فقلت من سخفه عندي ومن غمطه

كأنه سُرْم بُغَلٍ حين أخرجه ... عند الخِراءِ وباقي الروْث في وسطه

وأثبت في النفس خيالاً في غاية القبح يدعو إلى التنفير عنه، ولولا التوصل بطريق التصوير لما أمكنهما ذلك.

واتفقوا أن التشبيه إذا جاء في أعقاب المعاني أفادها جمالاً وزادها كمالاً، قال:

وأشد ما لاقيت من ألم الهوى ... قرب الحبيب وما إليه سبيل

كالعيس في البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول

البيت الأول كاف في بلوغ الغاية في الوصف، والثاني زاده تصويراً وتخييلاً وبلغ به غاية المطلوب؛ ولأن الأمثال هي الطريق إلى استخراج المعاني المحتجبة في الاستتار، قال

تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[سورة العنكبوت آية: ٤٣] والمجاز أبلغ من الحقيقة، لأنك فيه كمدعي الشيء ببينة لشهادة وجود الملزوم لوجود اللازم، والاستعارة أقوى من التشبيه؛ لأن فيه اعترافاً بالنقصان وهو منتف فيها ومن سائر المجاز للادعاء.

والكناية أقوى من التصريح؛ لأن الانتقال من اللازم إنما يتم فيها بشرط المساواة فيكون كالادعاء بالبينة، ولما فيها من تصوير حال المكني عنه، كما في قولك: فلان كثير الرماد كناية عن الجود.

والفرق بين المجاز والكناية هو أن الكناية لا تنافي إرادة الحقيقة فلا يمتنع في قولك فلان طويل النجاد أن يراد طول النجاد مع طول القامة والمجاز ينافي ذلك.

وقد جمع الأصول الثلاثة قولـــه تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[سورة الأنعام آية: ١٢٢].

فإن التشبيه فيه تمثيلي، وكلاً من المشبه والمشبه به استعارة تمثيلية، ولفظ مثله كناية عن ذات من شبه به على نحو مثلك يجود.

- تم قسم البيان بحمد الله تعالى -

علم البديع

وهو معرفة تحسين الكلام.

والتحسين إما راجع إلى المعنى أو إلى اللفظ أو إليهما جميعاً، والبحث عن القسم الثاني وظيفة الفصاحة، وعن الأول والثالث وظيفة البلاغة، فهنا بابان:

الباب الأول

في التحسين الراجع إلى المعنى وهو أنواع

الالتفات:

وهو الانتقال من إحدى الصيغ الثلاث أعني الحكاية والخطاب والغيبة إلى الأخرى منها لمفهوم واحد رعاية لنكتة وهي على أقسام:

أولها: الانتقال من الغيبة إلى الخطاب، قال تعالى: ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ إلى قولـــه: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾.

والنكتة فيه أن العبد إذا قدّر مثوله بين يدي مولاه فمن حقه أن يكون حاضر القلب يقظان النفس، درّاك اللمحة، سيما إذا افتتح بالتحميد ليستحضر ينبوع نعمائه جلائلها ودقائقها، فإذا انتقل منه إلى اسم الذات يستجدّ لنفسه هيبة الجلال والكبرياء، ثم إذا انتقل منه إلى معنى الربوبية والمالكية يستزيد المحرك، وإذا ارتقى منه إلى كونه شمل الرحمة دنياها وعقباها يتضاعف المحرك، ثم إذا آل الأمر إلى أنه مالك الأمور في العاقبة ثوابها وعقابها يصير ذلك المحرك إلى حدّ لا يتمالك معه أن لا يقبل على معبوده ومعينه الحاضر المشاهد ولا يقول إياك نعبد وإياك نستعين.

ثانيها: من الخطاب إلى الغيبة قال تعالى: ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ**﴾[سورة الأنبياء آية: ٩٢، ٩٣] نعى الله تعالى عليهم فعلهم إلى غيرهم وقال ألا ترون إلى هؤلاء وعظيم ما ارتكبوه في دين الله فجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً، أي: اختلفوا فيه، وقال تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم**﴾[سورة يونس آية: ٢٢] أراد أن يُعَجِّبَ من حالهم غيرهم كالمخبر لهم، ويستدعي منهم الإنكار عليهم.

وثالثها: من الحكاية إلى الغيبة، قال تعالى: ﴿**حـــم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ**﴾ إلى قولـــه: ﴿**إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾[سورة الدخان آية: ١ - ٦] واللطيفة أن عظمة الربوبية والرحمة السابقة تقتضيان إرسالك بهذا الكتاب المبين والعلم المحيط بكل الأشياء اقتضى كلاءتك وحفظك، وإذا كان الحافظ والناصر هو الرب السميع العليم تمّ الحفظ وصحّت النصرة فلا تبال أحداً وأدِّ رسالتك، كما قال تعالى في

حق موسى وأخيه –عليهما السلام–: ﴿**لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى**﴾[سورة طه آية: ٤٦].

ورابعها: من الغيبة إلى الحكاية، قال تعالى: ﴿**فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ**﴾[سورة فصلت آية: ١٢] والرمزة أن كل سماء مخصوص بأمر، ألا ترى أن هذه الأولى كيف قدّرها العظيم الشأن ذو السلطان القاهر مزينة بهذه المصابيح، وكذا قولـــه تعالى: ﴿**وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ**﴾[سورة فاطر آية: ٩] أي مثل هذه الآية الباهرة الدالة على القدرة الربانية لا يقدر عليها إلا ذو قدرة كاملة.

ومن القبيلين قوله: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ**﴾ إلى قوله: ﴿**إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[سورة الإسراء آية: ١].

وخامسها: من الخطاب إلى الحكاية، قال امرؤ القيس:

تطاول ليلك بالإثمد ... ونام الخلّي ولم ترقد

وبات وباتت له ليلة ... كَلَيْلَة ذي العائر الأرمد

وذلك من نبإ جاءني ... وخُبِّرْته عن أبي الأسود

الخطاب تجريد؛ لأن نفسه كان من حقها أن تبتصر وتثبت في المصائب فعل أمثالها من الملوك، فحين لم تفعل جرّدها وخاطبها تأنيباً، وحين رأى أن التحزن تحزن صدق جعله كالغائب، فلما حقق أن الحزن مخصوص به لا يتعداه بنى على الظاهر. ومن الباب تلوين الخطاب كقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ**﴾ إلى قولـــه: ﴿**ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾[سورة النساء آية: ٢٣٢] الخطاب بذلك إما للرسول ﷺ وهم المرادون على منوال: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ**﴾[سورة الطلاق آية: ١] تعظيماً له أو لكل واحد تعظيماً للأمر فلا يختص بواحد، أو لهم على تأويل القبيل تعليلاً كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَؤُلاَءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ**﴾ [سورة الشعراء آية: ٥٤] تنويهاً بجلالة المتكلم.

وسادسها: من الحكاية إلى الخطاب كقوله تعالى: ﴿**وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾[سورة يس آية: ٢٢] لما يؤدي التعريض الاستدراجي إلى مالكم لا تعبدون الذي فطركم، وقولهم: أما أنا فأفعل كذا أيها الرجل.

التجريد:

وهو أن ينتزع من متّصف بصفة آخر مثله فيها مبالغة في كمالها فيه كقولهم: مررت بالرجل الكريم والنسمة المباركة، جرّدوا من الرجل الكريم آخر مثله متصفاً بصفة البركة، وعطفوه عليه كأنه غيره وهو هو، وعليه قوله تعالى: ﴿**ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ**﴾ [سورة ص آية: ١] على إرادة أقسم بالسورة الشريفة، وهو إما واقع على سبيل المجاز في الخطاب بأن يجرد المتكلم نفسه من ذاته ويجعلها شخصاً آخر ثم يخاطبه، والغرض منه إما توبيخاً، كما مر في أبيات امرئ القيس، وإما نصحاً في قول ابن الإطنابة:

أقول لها وقد جشأت وجاشت رويدك تحمدي أو تستريحي

إنه لما أراد أن يوطّن نفسه على احتمال المكروه جرّدها مخاطباً لها نصحاً، قال معاوية: عليكم بحفظ الشعر فقد كدت أن أضع رجلي في الركاب يوم صفين فما ثبت مني إلا هذا القول.

وإما تحريضاً، قال أبو الطيب:

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

واجز الأمير الذي نعماه فاجئة بغير قول ونعمى القوم أقوال

أو تعريض بآخر كما في قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ**﴾[سورة الزخرف آية: ٢٨، ٢٩] على قراءة الفتح، اعترض سبحانه وتعالى على ذاته، فقال: بل متعتهم حتى شغلهم عن كلمة التوحيد، مثاله أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه، ثم أقبل على نفسه فيقول: أنت السبب في ذلك لمعروفك، والغرض توبيخ المسيء لا تقبيح فعله وهذا من التعريض المجازي.

أو لأن يتمكن المتكلم من إجراء الأوصاف على نفسه قال:

إلام يراك المجد في زي شاعر وقد نحلت شوقاً فُرُوع المنابر

أمـــا وأبيك الخير إنـــك فارس المقال ومحيي الدراسات الغوابر

وعلى هذا حكاية الله عن نفسه على لفظ الغيبة؛ بنحو: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ و﴿**اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ**﴾[سورة البقرة آية: ٢١] الذي إيذانا منه أن الذي يستوجب الحمد ويستحق العبادة هو الذي له هذه الصفات الفائقة والفضائل الناهة

ونحو هذا أدخل في الإذعان وأسرع إلى القبول.

أو على طريق التشبيه كما تقول: لئن لقيت فلاناً لتلقين به الأسد، ولئن سألته لتسألنّ منه البحر، أي كالأسد وكالبحر، فانتزع من المشبه نفس المشبه به كأنه هو، وهو أبلغ أنواع التجريد، لأن التجريد بعد التشبيه، وقال:

دعوت كليباً دعوةً فكأنما ... دعوت به ابن الطود أو هو أسرع

جرد من كليب شيئاً يسمى بابن الطود وهو الصدى أو الحجر إذا تدهده يريد سرعة إجابته، قال أبو العلاء:

ماجت نمير فهاجت منك ذا لبد ... واللَّيثُ أفتك أفعالاً من النَّمِر

وقال آخر:

وبي ظبية أدماء ناعمة الصِّبا ... تحار الظباء الغيد من لفتاها

أعانق غصن البان من لين قدها ... وأجني جَنِيَّ الورد من وجناها

وعن طريق الكناية وكقراءة من قرأ: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا* يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾[سورة مريم آية: ٥، ٦] أي: يرثني به أو منه وأرث وهو الوارث نفسه، فكأنه جرّد من الولي وارثاً. وقال[1]:

فلئن بقيت لأرحلنَّ بغزوة ... تحوي الغنائم أو يموت كريم

جرد من نفسه صفة الكريم وقال أو يموت كريم، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[سورة الأحزاب آية: ٢١] جرد من نفسه الزكية -صلوات الله عليه- قدوة، كما يقال في البيضة عشرون رطلاً حديداً وهي في نفسها هذا المبلغ، وأنشد أبو علي:

أفاءت بنو مروان ظُلماً دماءنا ... وفي الله إن لم يعدلوا حكم عدل

وقوله:

يا خير من يركب المطيَّ ولا ... يشرب كأساً بكفِّ من بخلا

ليس من التجريد في شيء وإنما هو كناية عن أن الممدوح ليس يبخل؛ لأنه لا يشرب الكأس بكف البخيل لكنه يشربها بكفه فأفاد أنه ليس ببخيل.

---

(١) قائله قتادة بن سلمة الحنفي.

والخطاب العام:

وهو ما يخاطب به غير معين للإيذان بأن الأمر لعظمته وفخامته حقيق بأن لا يختص بأحد دون أحد، قال الأعشى:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقَّى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزوَّدا

ندمت على أن لا تكون كمثله ... وأنكَّ لم تُرصْد كما كان أرصدا

وفي التنـــزيل: ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ**﴾[سورة السجدة آية: ١٢] قصد إلى تفظيع حالهم وأنها تناهت في الظهور حيث لم تختص برؤية راء، بل كل من يأتي منه الرؤية داخل في الخطاب، وفي الحديث[1] «**بشر المشائين إلى المساجد في الظلام بالنور التام يوم القيامة**» وربما يخاطب واحد بالتثنية، قال امرؤ القيس:

خـــليلـــّي مرا بي على أمِّ جُنْدبُ ... لنقضي حاجات الفؤاد المعذب

ألـــم تر أنـــّي كُلّما جئت طارقاً ... وجدت بها طيبـــاً وإن لم تطيب

فقال خليلي، ثم قال: ألم تر تلويناً، والسبب فيه أن أقل الأعوان اثنان وأقل الرفقة ثلاثة، فجرى الخطاب على مرو ألسنتهم.

والتغليب:

وهو ترجيح أحد المعلومين على الآخر وإطلاق لفظه عليهما قال تعالى: ﴿**فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ**﴾[سورة الحجر آية: ٣٠] وقال تعالى: ﴿**بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾[سورة النحل آية: ٥٥] بالتاء، غُلِّبَ المخاطبون على الغُيَّب، وقال تعالى: ﴿**جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ**﴾[سورة الشورى آية: ١١] يذرأكم حكم شامل للعقلاء المخاطبين والأنعام غلب فيه المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل، هذا هو المقتضى لا كما في المفتاح[2] ومنه قولهم عمران وقمران، وقريب منه قولـــه تعالى: ﴿**يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ**﴾[سورة الرحمن آية: ٢٢] فإنهما يخرجان من البحر المالح دون العذب، وقد ينـــزلون غير العقلاء منـــزلتهم إذا وصفوه بما هو مختص بهم قال تعالى: ﴿**وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾[سورة يوسف آية:

---

(١) رواه أنس بن مالك. وابن ماجه كتاب المساجد ١٤ حديث رقم ٧٨١.

(٢) لم يذكر السكاكي هذا النوع من البديع.

٤] لما وصفهم بالسجود أجرى عليهم حكمهم، وجعلها كأنها عاقلة، ويحتمل المعنيين قولــه: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ إذا فسّر العالم بكل ما علم به الخالق.

والتجاهل:

وهو سوق المعلوم مساق غيره وذلك إما لتحقير الشأن، كما يقول هل لكم في حيوان يقول: كيت وكيت، فلا تسميه وهو مشهور قال تعالى: ﴿**هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾[سورة سبأ آية: ٧] كأنهم لم يعرفوا -منه صلوات الله عليه- إلا أنه رجل ما.

أو للاستدراج كما في قولــه تعالى: ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ**﴾[سورة محمد آية: ٢٢] فلو عدل عن الاستخبار المتضمن للتوبيخ إلى تصريح الإخبار بأنكم إذا توليتم أمور الناس أفسدتم وقطعتم الأرحام للبسوا له جلد النمر، ولكن إذا تأملوا في الاستخبار أنصفوا وأذعنوا للحق.

أو تقريع المخاطب، قالت الخارجية:

أيا شجر الخابور مالك مورقاً ... كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يريد العز إلا مــن التقى ... ولا المال إلا مِــنْ قَنًا وسُيُوف

أو تعظيم شأن، قال ابن نباتة[1]:

فوالله مــا أدري أكانت مُدامةً ... من الكَرْم تُجْنَى أم من الشمس تُعْصَرُ
إذا صبَّهــا جُنح الظَّلام وعبَّهــا ... رأيت رداء الشمس يُطْوى وينشرُ

والأسلوب الحكيم:

وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقب تنبيهاً به على أنه أولى بالقصد قال:

أتت تشتكي عندي مزاولة القِرَى ... وقد رأت الضِّيفان يَنْحُون منــزلي
فقلت كــأني مــا سمعت كلامها ... هُمُ الضيّفُ جدِّي في قِراهُم وعَجِّلي

وقال القبعثري للحجاج لمّا توعده بقوله: لأحملنّك على الأدهم وعنى به القيد: مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب، أبرز وعيده في معرض الوعد، وذمه في معرض المدح

---

(١) ابن نباتة السعدي: اليتيمة ج٢ ص٣٨٢ وهو أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن أحمد المتوفى سنة ٤٠٥هـــ، أنوار الربيع ٥: ١٢٤.

بألطف وجه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ إذا المراد منه التكثير، وحمله ﷺ على العدد في قوله سأزيد على السبعين، قال جار الله إنه ﷺ خيل بما قال إظهاراً لغاية رحمته ورأفته على من بعث إليه.

وقد أحضرت بين يدي معن بن الزائدة جارية من بني قيس فأنشد معن متمثلاً:

ليس بيني وبين قيس عتاب غير طعن الكُلَى وضرب الرقاب

قالت لو اقتصر الأمير على الطعن دون الضرب، فاستحسن منها.

أو تلقيه بغير ما يتطلب قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾[سورة البقرة آية: ١٨٩] لما قالوا: ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يتزايد حتى يستوي ثم ينقص حتى يعود إلى ما بدأ، أجيبوا بأن الذي ينفعكم وأهمّ بحالكم أن تعلموا منها أوقات الطاعات، وألطف منه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ﴾[سورة البقرة آية: ٢١٥] فقال الشيخ: سألوا عن بيان ما ينفقون فأجيبوا ببيان المصرف، ونبهوا بألطف وجه على تعدّيهم عن موضع سؤال هو أليق بحالهم.

وقال جار الله: قد تضمن الجواب وهو قوله: ما أنفقتم من خير بيان ما ينفقونه وهو كل خير، وبني الكلام على ما هو أهم وهو بيان المصرف؛ لأن النفقة لا يعتدّ بها إلا أن تقع موقعها، أو يقال إن جزاء الشرط مبني على الإخبار المتضمن للرد كما سبق، فالمعنى سؤالكم هذا يوجب أن يرد عليكم وأن تخبروا بأن النفقة المعتدّ بها ما تصرف إلى هؤلاء، فالواجب أن تسألوا عن النفقة وعن مصرفها لا عنها فقط، وفي المثالين إيماء إلى إبطال علم النجوم.

وقال تعالى حكاية عن قوم صالح سألوا مؤمنيهم: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أجابوا ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾، أن إرساله أمر معلوم مكشوف لا كلام فيه، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به.

وفي عكسه جواب نمرود: أنا أحيي وأميت، عن قوله عليه السلام: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[سورة البقرة آية: ٢٥٨] فهو من الانتقال من الحجة بعد تمامها إلى الأخرى لدلالة جوابه على إلزامه، ولهذا قال جار الله لما سمع جوابه الأحمق فلا يكون انتقالاً من مثال إلى آخر، كما ظنوا بل هو ابتداء احتجاج، قال الراغب السؤال ضربان جدلي وتعليمي، وحق الأول مطابقة الجواب من غير زيادة ولا نقصان، والثاني حقه أن

يتحرى المجيب الأصوب كالطبيب الرفيق يتوخى ما فيه شفاء العليل طلبه أم لا.

وقلت مثاله من غلبت عليه السوداء إذا طلب الجبن فقيل عليك بما فيه، وعليه سؤال الأهلّة ومن قهرته الصفراء إذا اشتهى العسل قيل مع الخل وإليه ينظر سؤال النفقة.

والإيهام:

ويسمى التورية أيضاً وهو أن يطلق لفظة لها معنيان قريب وبعيد ويراد بها البعيد منها، قال:

نقَلَ الأَراكُ بأنَّ ريقة ثغرها من خمرة مُزجَت بماء الكوثر

قـد صـح ما نقل الأراك لأنَّهُ يرويه نقلاً عن صِحَاح الجوهري

وقال الآخر:

هويتها طفلة دقَّت محاسنها فَطَرْفُهـا نـرجس والخد تفُاحُ

يتيمة الدَّهر نثر الدُّرَّ من فمها والعقد في جيدها والوجه مصباح

وقال الآخر:

سألتك يا عود الأراك بما الذّي رقيت مكاناً غيرك الدَّهر ما رقى

وصلـت إلى ثغر منيع حِجَابةُ تمر عليه في العذيب وفي النَّقَـا

وقال الفخر عيسى(١):

لو لم يكن سفاح جَفْنِك ناصراً ما كُنْتَ للعُشّاق يوما مُقتضى

وقال الآخر:

فُوهُ عين الحياة شارِبهُ خضر لم يصل إلى الظُلَمِ

وقال الصاحب عطا ملك في امرأة يهواها:

يا حَبَّذا شجر وطيب نسيمها لو أنها تُسْقَى بماء واحد

وقال ابن سرايا في عينين تجريان على صخرة صماء:

وواد حكى الخنساء لا في شُجُونه ولكن له عينان تجري على صخر

---

(١) الفخر عيسى: أبو منصور عيسى بن مودود بن علي بن عبد الملك بن سعيد، من أتراك الشام، كاتب شاعر، تولى إمارة تكريت، قتله أخوه سنة ٥٨٤ هـ وفيات الأعيان ٣: ١٦٦، كشف الظنون سنة ٨٠٤.

والتوجيه:

وهو إيراد كلام محتمل وجهين مختلفين، قال تعالى حكاية عن اليهود: ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا﴾ [سورة النساء آية: ٤٦] قولـــه غير مسمع يحتمل الذم أي اسمع منا مدعواً عليك بلا سمعت واسمع كلاماً لا ترضاه، والمدح أو غير مسمع مكروهاً من قولك: أسمعت فلاناً أي سببته، وكذا قولـــه: راعنا أي: ارقبنا أو كلمة سريانية للسب.

ومن لطيف هذا النوع مع توخي الصدق قول الصديق ﷺ حين المهاجرة وقد سئل عن رسول الله ﷺ وهو رديفه: هذا رجل يهديني السبيل.

وذكر شريح عند رسول الله –صلوات الله عليه– فقال: لا يتوسد القرآن، فيحتمل أنه لا ينام الليل حتى يتوسد من القرآن، فيكون مدحاً، أو ينام ولا يتوسد معه أي لا يحفظه.

وذكر عند عبد الملك عمر بن الخطاب ﷺ فقال: أقصر من ذكره فهو طعن على الأئمة وحسرة على الأمة، وسأل حجاج بن جبير عن نفسه فقال: أنت قاسط عادل، قالوا: أحسن والله، فقال يا جهلة إنما سمّاني ظالماً مشركاً ثم تلا: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[سورة الجن آية: ١٥] و﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[سورة الأنعام آية: ١] ورُفع غلامان إلى بعض الولاة فاستحسن سمتهما فسأل عن نسبهما فقال أحدهما:

أنا ابن من ذَلتّ الرقابُ له ... من بين مخزومها وهاشمها
تأتيه طوعاً إليه خـــاضعـــة ... يأخذ مـــن مالها ومن دمها

وقال الآخر:

أنا ابن الذي لا ينـــزل الأرض قدره ... وإن نـــزلت يوما فسوف تعود
ترى الناس أفواجاً إلى ضوء ناره ... فمنهـــم قـــيـــام حـــولها وقعود

فسأل عنهما بعد ذهابهما، فقيل ابنا حجام وطباخ فتعجب.

واللغز:

وهو الأحجية أيضاً والمعمي، قال ابن الزبلاق في اليراع وضمن فيه مصراعاً من الحماسة:

وناطقة خرساء باد شحوبها ... تكـــنّفها عشـــرٌ وعنهـــنّ تخبـــر

يَلَذُّ إلى الأسماع رجعُ حديثها إذا سُـدَّ منهـا مُنخرٌ جاش منْخَرُ

فأجابه بعضهم وضمن مصراعاً آخر من تلك القصيدة:

نَهاني النُّهي والشيب عن وصل مثلها وكم مثلها فارقتها وهي تصغر

وقال الآخر في القلم[1]:

وذي شحوب راكع ساجد أخي نحـول دَمْعُهُ جاري
مـلازم الـخمس لأوقاتـهـا معتكف في خدمـة الباري

وقال الآخر فيه:

وبيت بعليـاء الفنـاء بنيتـه بأسمر مشـقوق الخياشم يرعـف

وقال الآخر في الميزان:

وقاضي قضاة يفصل الحق ساكتا وبالحق يقضي لا يبوح فينطق
قضى بلسان لا يميل، وإن يمـل على أحد الخصمين فهو مُصَدَّقُ

وقال الآخر فيه:

وما حاكم أعمى وفصل قضاؤه ولو كان ذا عين لما قام بالفصل

وقال ابن دريد في الزند:

ومنتـجُ أُمُّ أبيـه أُمُّـه لم يتخونٌ جسمه مَسُّ الضَّوى
أفـرسته بنت أخيـه فانثنـت عن ولد يُورِىَ به ويُشْـترى

وقال الآخر في أحمد:

أحاجيك في اسم الحبيب الذّي هويت وأنـت إمـام البلـد
حروف الهجاء لـه أربـع إذا زال حـرف فتبقى أحـد

وقال زهير في مدينة يافا:

وَحقّك خَبِّرني عن اسم مدينة يكون رُبَاعياً إذا ما كتبته
على أنـّه حـرفان حين تقوله ولكنـه حـرف إذا مـا قلبته

ومما جاء في المسائل الفقهية:

---

(١) نسبه صاحب حسن التوسل إلى شرف الدين بن الحلاوي المتوفي سنة ١٥٦ هـ. ونصف البيت المضمن لتأبط شراً وهو: "وكم مثلها فارقتها وهي تصغر" الديوان ص ٩٠.

ولي خالة وأنا خالها ولي عمة وأنا عمها
فأما التي أنا عم لها فإن أبي أمه أمها
أبوها أخي وأخوها أبي ولي خالة هكذا حكمها

قولــه ولي خالة: صورتها رجل له امرأتان أولد واحدة بنتاً وأخرى ابناً ثم زوج بنته من أبي امرأته التي ولدت ابناً فجاء ببنت وهي خالة ابنه وهو خالها.

وأما العمة فصورتها رجل له ابن ولابنه أخ من أمه فَزوَّجَ أخاه أُمَّ أبيه فجاء ببنت وهي عمته وهو عمّها.

والإبداع:

وهو أن يخترع المتكلم معاني لم يسبق إليها، قال عبد الحميد كاتب مروان: خير الكلام ما كان لفظه فحلاً ومعناه بكراً، وهو ضربان أحدهما: ما يبتدع عند الحوادث المتجددة، كما بنى عبد الملك باباً للمسجد الأقصى، وحجاج آخر بإزائه، فاحترق باب عبد الملك بالصعقة دونه، فشق عليه، فكتب إليه الحجاج، وما مثلي ومثلك إلا كمثل ابني آدم إذا قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر فَسُرِّيَ عنه.

ولما عصفت الريح بخيمة سيف الدولة تطيّر، فقال أبو الطيب:

تضيق بشخصك أرجاؤها ويركض في الواحد الجحفل
فــلا تنكــرنّ لها صرعة فمــن فرح النَّفْس ما يقتل
ولـمــا أمــرت بتطنيبها أشيــع بأنــّك لا تــرحل
فما اعتمــد الله تقويضها ولكــن أشــار بمــا تفعــل

أي أشار بما تفعله من الارتحال.

وكان الإمام الداعي إلى الله فخر الدين الرازي -رحمه الله- يجلس للوعظ إذ أقبلت حمامة، وخلفها صقر فألقت نفسها في حجر الإمام فقال ابن عنين:

جَاءَتْ سليمــانَ الزَّمــان حمامة والموت يلمح من جناحي خاطف
من نبــأ الــورقــاء أن محلّكم حَرَمٌ وأنّــك مــلجأ للخــائف

وحضر ابن عنين مجلس الأشرف ثم خلا بالساقي وأخذ بدبوقتيه فلمح الأشرف فبهت ابن عنين ثم قال:

لو كنتَ ثالثنَا والكأس في يدي اليمنى ويسراي في دبوقة البَقَش
لكنت تعجب من صفراء صافية ورياقها جسر الحاوي على الحنش

واستجار سيف الدولة أبا الطيب بهذا البيت:

رَأى خلُتي من حيث يخفى مكانها فكانت قَذَى عينيه حتى تجَلّتِ

فقال:

لنا ملك ما يطعم النوم همه مماتٌ لحَيٍّ أو حياة لميت
ويكبر أن تقذى بشيء جفونه إذا ما رأتــه خَلَّــةٌ بك فَرَّتِ

وقد استجير أيضاً بقوله:

جاءنا في الظَّلام يطلب ستراً فافتضحنا بنوره في الظلام

وعنده ابنه محمد، قال له جاءك بالشمال فأته باليمين فقال محمد:

فالتجأنا إلى حنادس شعر سترتنا عن أعين اللُّوَّام

وقال في أسد قتله بدر بن عماد وفر منه أسد آخر:

تَلَفُ الذي اتخذ الجراءة خَلَّةً وَعَظَ الذي اتخذ الفرار خليلا

قال ابن جني هذا من حكمه التي يرسلها:

وقال أبو الحسن دخلت على المرتضي فأراني أبياتاً قد عملها، وهي:

سرى طيف سُعدى طارقاً فاستفزني هبوباً وصحبي بالفلاة هجود
فلما انتهينا للخيال الذى سرى إذا الأرض قفر والمزار بعيد
فقلت لعيني عاودي النوم واهجعي لعل خيالاً طــارقــاً سيعــود

فلما عرضت الأبيات على أخيه الرضى، قال بديهاً:

فَرَدَّت جواباً والدُّموع بوادر وقد آن للشَّمل الُمشتِّ ورود
فهيهات من ذكرى حبيب تعرَّضت لنا دون لقياه مهــامــه بيــد

فعدت إلى المرتضي بالخبر فقال: يعز عليَّ أخي، قتله الذكاء، فما كان إلا يسيراً حتى مضى.

روى المرزوقي أن أبا تمام أنشد المعتصم قصيدته التي فيها:

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

قال إسحق الكندي: أمير المؤمنين أكبر في كل شيء ممن شبهته به فزاد بديهياً:

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لـنوره مثلاً عن المشكاة والنبـراس

فتعجب الحاضرون من فطنته وذكائه.

ثانيها: ما يبتدع من غير شاهد حال، وأبو الطيب هو العَلَم فيه:

كَتَمْتُ حُبَّك حتىَّ منك تكرمة ثم استوى فيك إسراري وإعلاني
كأنه زاد حتى فاض من جسدي فصار سُقْمي به في جسم كتماني

أي صار سقمي بالحب في جسم الكتمان أي سقم كتماني، فصح الاستواء، وقال في كافور:

فجاءت به إنسان عين زمانه وخلّت بياضاً خلفها ومآقيا

وقال:

صَدَمْتَهم بخميس أنت غُرَّتهُ وَسَمْهَرِيَّتُهُ في وجهه غمم
وكان أثبت ما فيهم جسومهم يسقطن حولك والأرواح تنهزم

وقال التهامي:

ألا إن طياً للمكارم قِبْلَةٌ وحسان منها رُكْنُها ومَقَامُها
تزاحم تيجان الملوك ببابه ويكثر في يوم السلام ازدحامها
إذا عاينته من بـعيد ترجلت وإن هي لم تفعل ترجل هامها

وجاء قول بعض المغاربة في الخمر أبدع ما يكون:

ثقلت زجاجات أتتنا فرغا حتى إذا ملئت بصرف الراح
خفت فكادت أن تطير بما حوت وكذا الجسوم تخف بالأرواح

روي أن أبا نواس مر على أديب يفيد الناس بشعره فلما افتتح قولـه:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً إن أمكن الجهر

وقف وقال: انظر ما عساه يقول، فقال أشار الشاعر بقوله: وقل لي هي الخمر إلى حظ السمع ليحظى بتمام حسه، فتعجب منه وقال ما هجس هذا المعنى في خلدي وقال الأصمعي: قال لي الرشيد: قد أحسن الأخطل في قولـه:

تدب دبيباً في العظام كأنها دبيب نمال في نقى يتهيل

فقلت: أحسن منه قول أبي نواس:

إذا ما أتت دون اللهاة من الفتى دعا هَّمه من صدره برحيل

فصل في بدائع النحويين:

دخل رجل مجلس كافور، وقال: أدام الله أيام سيدنا بكسر الميم ففطن الناس فقال:

لا غرو أن لحن الداعي لسيدنا أو غص من دهش بالريق والبهر
فإن خفض الأيام عن غلط في موضع النصب لا عن فكره النظر
فقد تفاءلت عن هذا لسيدنا والفأل مأثورة عن سيد البشر
بأن أيامه خفض بلا نصب وأن أوقاته صفو بلا كدر

وقال أبو الطيب:

حولي بكل مكان منهم حِلَقٌ تُخطي إذا جئت في استفهامها بمن

وقال:

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً مضى قبل أن تُلقَى عليه الجوازم

أي إذا نوى أمراً يفعله مضى قبل أن يقال لا تفعل، ولم تفعل؛ لأنه لم يسبق إلى ما يهم به نهي وفتور.

وقال الآخر:

كأنَّ النوَّى إذا نادت الدمع رخّمت ولا أثر فيها أجار على العين

وقد أوضح المعنى من قال:

قد كان عيني بغير دمع فصار دمعي بغير عين

وقال الآخر:

طيب الهواء ببغداد يشوِّقني قدْمًا إليها وإن عاقت معاذيري
فكيف صبري عنها الآن إذ جمعت طيب الهواءين ممدود ومقصور

وقال ابن عنين:

مال ابن مازة دونه لعفاته خرط القتادة أو مناط الفرقد
مال لزوم الجمع يمنع صرفه في راحة مثل المُنَادَى المفْرد

وقال أيضاً في مصروف عن ولايته:

لا تغضبَنَّ إذا ما صُرِفْتَ فلا عدل فيك ولا معرفة

وقال ابن أبي الإصبع:

أيا قمراً من حسن وجنته لنا وظل عذاريه، الضحُّى والأصائل
جعلتك بالتمييز نصباً لناظري فهلا رفعت الهجر والهجر فاعل
تنقلت من طرف لقلب مع النوًى وهاتيك للبدر التَّمام منازل

وقد أبدع أيضاً في قوله من طرف لقلب؛ لأن الطرف والقلب منزلان من منازل القمر وأن الطرف رائد القلب، وقال الآخر:

عَرِّج بنا نحو طلول الحِمَى . فلم تزل آهلة المرْبَع
حتى نطيل اليوم وقفاً على الساكن أو عطفاً على المْوِضعِ

وقيل مرض ابن عنين، فاستعاد بعض الملوك بقوله:

أنا كالذي، أحتاج ما تحتاجه فاغنم دعائي والثناء الوافي(١)

فجاءه بألف دينار وقال هذه الصلة، وأنا العائد.

ومن نوادر الباب أن أبا نواس كتب على جدار:

لقد ضاع شعري على بابكم كما ضاع در على خالِصَةْ(٢)

والخالصة جارية للخليفة كان يهواها ثم بلغه أن الخليفة وقف وغضب عليه، فعمد إلى إبدال العينين بالهمزتين، وحين عوتب قال: لعل غير ذلك يا أمير المؤمنين، فلما أعاد الخليفة النظر إلى المكتوب، قال لله: بيت قلعت عيناه فأضاء، وقيل مرض نصر فعاده أبو صالح وقال مسح الله ما بك، قال نصر: قل مصح بالصاد، فقال السين تبدل من الصاد في الصراط وصقر، فقال إذاً أنت أبو سالح، يريد النَّحْو، ولقي بعض الملوك حيان النحوي في سكة، فقاد الملك أحيان منصرف أم لا؟ فقال: إن أحياه فمنصرف وإن حينَّه فغير منصرف.

واستأذن رجل سيبويه فلم يأذن له وقيل ينصرف، فقال الرجل اسمي أحمد وهو لا ينصرف، فقيل: أحمد في المعرفة لا ينصرف وأما في النكرة فمنصرف.

---

(١) الديوان ص ٩٢، وقبله هذا البيت:
انظر إليّ بعين مولى لم يزل يولي الندي وتلافِ قبل تلافي
(٢) هذا البيت لم نعثر عليه في الديوان.

المذهب الكلامي:

وهو أن يورد البليغ حجة على ما يدّعيه على طريقة المتكلمين قال تعالى: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[سورة يس الآيتان: ٧٨، ٧٩]. أفحمهم بدليلي القدرة والعلم.

وقال صلوات الله عليه: «**يا معشر قريش لو قلت لكم إن خيلاً تطلع عليكم من وراء هذا الجبل أكنتم تصدقوني**[١] **قالوا نعم قال: إني لكم نذير بين يدي عذاب شديد**» فلما أقرّوا بصدقه أنذرهم.

وقال علي ﷺ يوم السقيفة لما قالت الأنصار منّا أمير ومنكم أمير: هلاّ احتججتم عليهم بوصية رسول الله ﷺ بأن نحسن إلى محسنهم ونجاوز عن مسيئهم، لو كانت الإمارة فيهم لم تكن الوصية بهم وقال الوليد لابن الأقرع أنشدني قولك في الخمر فأنشده:

كُمَيْتٌ إذَا شُجَّتْ فَفِي الكَأسْ وَرْدُها لها في عظَامِ الشَّارِبين دَبيبُ
تُريك القَذَى مِن دَنِّها وَهْيَ دُونَه لِوَجْـهِ أَخِيها في الإِنَاءِ قُطُوبُ

فقال الوليد: شربتها وربّ الكعبة، فقال لئن كان وصفي لها رابك لقد رابني معرفتك.

وقصد شاعر أبا دلف فقال مَن أنت؟ قال من تميم فقال:

تَميمٌ بِطَرْقِ اللُّؤْمِ أَهْدَى مِن القَطَا وَلَوْ سَلَكَتْ طُرْقَ المَكَارِمِ ضَلَّت[٢]

فقال نعم بتلك الهداية جئتك، فخجل واستكتمه وأجازه.

وقال آخر[٣]:

دَعِ النَّجُومَ لَطُرقيٍّ تَعيشُ به وبالعَزَائم فَانْهَض أَيُّها المَلكُ
إن النبيَّ وأَصْحَابَ النَّبي نَهَوْا عن النُّجومِ وقَدْ أَبْصَرْتَ مَا مَلَكُوا

حسن التعليل:

(١) رواه البخاري كتاب التفسير جـ١٨ ص ٢١٥.
(٢) البيت قائله الطرماح في الديوان ص ٥٩ بتحقيق د. عزة حسن دمشق ١٩٦٨.
(٣) الطرقي الذي يتحدث في النجوم والتنجيم.

هو أن تدعى لأمر علة مناسبة باعتبار لطيف، قال أبو هلال العسكري:

زعَمَ البَنَفْسَجُ أنَّه كَعِذَارِه حُسْنًا فَسلُّوا من قفَاه لِسَانَه[1]

وقال الشيخ جمال الدين الجبلي:

نَظَرَ الصَّبَاحُ إلى صَفَاء جَبِينه فَتعلَّقَت أَنْفَاسُه الصُّعَدَاءُ

واللَّيلُ فكَّر في سَوادِ فُرُوعِـه فَتشَبَّثتْ بِمزاجِه السَّوْدَاءُ

وقال أيضًا:

ولمـا نَضَا وَجْهُ الربيعِ نقايَـةً وفَاحَتْ بأَطْرَاف الرِّيَاضِ النَّسَائمُ

فَطَارَ عُقُولُ الطَّيْرِ لَمَّا رَأَيْنَـه وقـد بُهِتَتْ من بَيْنهِنَّ الحَمـائمُ

خَشِينَ جُنُونًا بالرِّيَاض وحُسْنِها صَدَحْن وفي أَعْنَاقِهِـنَّ التَّمائـمُ

وقال الحافظ في الآذريون:

عُيونُ تِبْرٍ كَأَنَّها سَـرَقَت سَـوادَ أَحْدَاقِهَا من الغَسَقِ

فإنْ دجَى لَيْلُهـا بظُلْمَتِـه ضَمَمْنَ من خوْفِها عَلَى السَّرَقِ

وقال آخر:

لا تَضَعْ من عَظِيم قَوْمٍ وإنْ كُنْـ ـتَ مُشَارًا إِلَيه بالتَّعْظِيمِ[2]

فـالعَظيمُ الشَّرِيفُ يَصغُر قَدْرًا بالتَّجَنِّي على الشَّرِيف العَظِيمِ

وَلَـعُ الْخمْـر بالعُقُـولِ رَمَى الْخمْرَ بِتَنْجِيسهـا وَبالتّحْرِيـمِ

وعلّل بعضهم حين أراد افتضاض بكر فمنعه طريان العذر بقوله:

وفـارسٍ ماضٍ بِحَرْبَته حَاذِق بالطَّعْنِ في الظُّلَمِ

رَام أَنْ يُدمي فَرِيسَتَـه فاتَّقَـتْـهُ مِـن دَمٍ بِـدَمِ

وقال ابن نباتة في فرس أغر محجل:

فَكَأَنَّما لَـطَم الصَّبَاحُ جَبِينَه فاقْتَصَّ منه وخَاضَ في أَحشَائه[3]

لا يُكْمِلُ الطَّرْفُ المَحَاسِنَ كُلَّهَا حتى يكونَ الطَّرْفُ مِنْ أُسَرَائِه

(١) أسرار البلاغة ص ٢٦٤، والبيت منسوب في خاص الخاص لأبي العباس الضبي، ص١٦٦.

(٢) في المثل السائر بدون عزو، جـ٢ ص٢٣١.

(٣) اليتيمة جـ٢، ص ٣٩٢، ٣٩٣ وأنوار الربيع ٥: ٢٥٨.

وقال ابن الرومي:

رَأَيْتُ خِضَابَ المَرْءِ بعد مَشِيبِه حِدَادًا على شَرْخِ الشَّبِيبة يُلبسُ

وقال:

وَغزَالٌ ترى على وَجْنَتَيْه قَطْرَ سَهْمَيْه منْ دمَاءِ القُلُوب[1]

جَرَّحَتْه العُيونُ فاقْتَصَّ منْها بِجَوِيٍّ في القُلُوبِ دَامِي النُّدُوب

وأخذه من أبي تمام:

أَدْمَيْتُ باللَّحظَاتِ وَجْنَتَه فاقْتَصَّ نَاظِرهُ من القَلْبِ[2]

قال الآخر في العذار والخال:

لـَهيبُ الخَدِّ حين بَدَا لِعَيْني هَوَى قَلْبي عضلَيه كالفَرَاشِ

فَأَحْرَقَــه فَصَار عليــه خَالاً وَهَا أَثَرُ الدُّخَانِ عَلَى الحَوَاشِ

قال ابن حمديس الصقلي في الخال وأجاد:

يَا سَالبًا قمرَ السَّماء جَمالَه أَلْبَسْتَني في الحُزْن ثَوْبَ سَمَائه[3]

أَشْعَلْت قَلْبــي فارْتَمى بِشَــرَارةٍ عَلِقَتْ بِخَدِّك فانْطَفَتْ من مَائِه

وقال الآخر فيه:

لا تَقُولَنَّ خالَه نقطُ مسْك زَادَ في الوَجْه بَهْجةً وجَمَالاَ

ذَاكَ ماءُ بِوجهه رقَّ حَتّى صَارَ إنْسَانُ عَيْن رَائِيه خَالاَ

وقال أبو حبيب المغربي:

مُجْرِي جُفُونِي دمَاءً وَهْوَ نَاظِرُها ومُتْلفُ القلب وَجْدًا وَهْوَ مَرْتَعهُ

إذا بَدَا حَــال دَمْعي دُونَ رُؤْيَته يَغَــار مِنّي عليــه فَهْوَ بُرْقُعُــهُ

وقال الآخر:

يَا وَاشِيًا حَسُنَتْ فِينا إسَاءَتهُ نَجّى حِذَارُك إنْسَانِي من الغَرقِ

وقال قيس بن الملوّح:

---

(١) الديوان جــ١ ص ١٦٤ وبين البيتين ثلاثة أبيات.

(٢) غير موجود بالديوان.

(٣) المثل السائر جــ٢ ص ٣٢، والديوان ص ٥٣٧ الذيل من تصحيح إحسان عباس بيروت.

وَلَقَد هَمَمْتُ بِقَتْلِها مِــن حُبِّها كَيمَا تَكُونَ خَصِيمَتي في المَحْشَر
حتى يَطُولَ على الصِّراطِ وُقُوفُنا وتَلَذَّ عَيْني مِــن لَذِيــذِ المَنْظَــرِ

وقال المطراني:

ظِباءٌ أَعَارَتْها المها حُسْنَ مَشْيِهَــا كما قد أعارتْها العُيُونَ الجآذِرُ[1]
فَمِنْ حُسْنِ ذَاكَ المَشْيِ جاءَت فَقَبَّلَت مواطِــيءَ من أَقْدَامِهِنّ الضَّفَائِرُ

وقال ابن الخازن:

لَوْ فَاخَرَتْ ذاتُ العمَاد بُيُوتَها عَادَتْ مُقَوَّضَةً بغير عمَاد [2]
لا تَكْذِبَنَّ فَمَــا لَهَــا دارٌ إذَا أَنْصَفْتَني إلاّ صَمِيــمُ فُؤَادي
إلاّ بَــرَدْنَ حَــرَارَةَ الأَكْبَــادِ فَلِذَاك لا تَسْقِي السحائبُ أرضُها

وقال كثير:

وحَقِّك إنَّ الجزْعَ أَضْحَى تُرَابُه عَبيرًا وكَافُورًا وعدَائُه رَنْدا
ومَــا ذَاكَ إلاّ أَنْ مَشت بِجَنَابِه أُمَيْمَةُ في سِرْبٍ وجَرَّتْ به يُرْدَا

وقال السيد الرضي:

يا رَوْض ذي الأَثْلِ من شَرْقِيٍّ كاظمة قد عَاوَدَ الْقَلب من ذِكْرَاكَ أحْزانا[3]
أَشُمُّ مِنْكَ نَسِيمــًا لَســْتُ أَعْرِفُهُ أَظُنُّ لَمْياءَ جَرَّت فِيــك أردَانــا

وقال الصاحب عطا ملك:

كالصَّبح قد وَافَى رَسولُك فانْجَلَى لِيــلُ الهُمومِ وذَاكَ فَــأْلٌ نَاطــقُ
فَعَلِمــتُ أَنَّك لا مَحَالَةَ زَائِــرِي أَبَدًا رَسُولُ الشَّمْسِ صُبْحُ صادقُ

وقال الآخر:

صَبَّحْتُه عند المَسَاء فَقَال لي مَاذَا الكَلاَمُ وَظَنَّ ذَاكَ مزاحَا
فَأَجَبْتُه إشراقُ وَجْهك غَرَّني حتى تَوَهَّمْتُ المَسَاءَ صَبَاحَــا

---

(١) زهر الآداب ص ٦٥١، واليتيمة ٤: ٨.

(٢) اليتيمة جـ ٣ ص ٣٣١. أبو الفضل أحمد بن محمد بن الفضل بن عبد الخالق المعروف بابن الخازن وهو والد أبي الفتح نصر الله الكاتب المشهور توفي سنة ٥١٨- وفيات الأعيان ١: ١٤٩.

(٣) الديوان ص ٤٧٤، جـ٢.

وقال أبو الفتح البستي:

إذا غَدَا مَلِكٌ باللَّهْوِ مُشْتَغِلاً ... فاحْكُم على مُلْكِه بالوَيْلِ والحَرَبِ[١]

أَمَا ترى الشَّمسَ في المِيزَانِ هَابِطَةً ... لَمَّا غدا بُرْجُ نَجْمِ اللَّهْوِ والطَّـــربِ

وقال ابن مطروح:

رَأَيتُ بِخَدَّيْه بَيَاضًا وحُمْرَةً ... فَقُلْتُ لِي البُشْرِيَ اجْتِمَاعًا تَوَلَّدَا

المراجعة:

وتسمي السؤال والجواب وهي ضربان:

أحدهما: أن يكون بين اثنين: كتب عبد الله بن الدمينة إلى أمامة:

وأنتِ التي كلَّفْتني دَلَج السُّرَى ... وسِرْبُ القَطَا بالجَهْلَتَين جُثُوم[٢]

وأَنْتِ التي قَطَّعت قَلْبِي حَزَازَةً ... وفَرَّقْتِ قَرْح الْقَلْب وهو كُلُوم

فأجابت:

أَنْتَ الذي أخْلَفْتَني ما وَعدْتَني ... وأَشْمَتَّ بي مَنْ كان فيكَ يَلُومُ[٣]

وأَبْـــرَزْتَني للنَّاسِ ثـــم تَركْتَني ... هم غَرَضًا أُرْمَى وَأَنْتَ سَليـــمُ

فلو أَنَّ قَوْلاً يَكْلِمُ الجِسْمَ، قد بدا ... بِجِسْمِيَ من قَوْل الوُشَاةِ كُلُومُ

وكتب بعض الفضلاء إلى الصاحب قوام الدين القمي:

أَفْدى الَّذين بِوادِي الجِزْعِ منـــزِلُهم ... وإن هُمُوا نَقَضُوا العَهْدَ الَّذي سَبَقا

ماراسَلُونِي ولا رَاعُـــوا ولا كَتَبُوا ... أظنُّ ما كَانَ مِنْهم بِالحِمىَ مَلَقـــا

فأجابه:

والله ما كان نَقْضُ العَهْدِ لي خُلُقًا ... ولا رَأَى قَطُّ مِنِّي صاحبُ مَلَقـــا

بَلْ كُنْتُ ما كنتُ أَوْفَى بالعُهُودِ وإنْ ... خان الصَّديقُ وأَمْسى حَبْلُه خَلَقَا

وكتب ابن المطروح إلى زهير المصري يطلب منه دَرَجَ وَرَقٍ ومدادًا:

أَفْلَسْتُ يا سيدي من الوَرَق ... فابْعث بدَرَجٍ كَغمركْ اليقق

---

(١) زهر الآداب ص ٤٤٩.

(٢) أمالي القالي جـ ٢ ص ٣٣، الأغاني جـ ١٨ ص ٦٣٨٣، ديوان الحماسة ٢: ١٤٦.

(٣) الأغاني جـ ١٨ ص ٦٣٨٣، ديوان الحماسة ٢: ١٤٦.

وإنْ أتَـى بالمِداد مُقْتَرِنـاً فَمرْحَبًا بالخُدُودُ والحَـدَق

ومن ظرفه أنه فتح الراء من الورق وكَسرَها وكتب عليها معًا فَسَيَّر إليه مِدادًا ودَرَجًا وكتب:

مَوْلايَ سَيَّرتُ ما أمرْتَ به وَهْو يَسيرُ المدَاد والوَرَق[1]

وعزَّ عندي تَسْيير ذَاكَ وَقَدْ شَبَّهتَـه بالخُدُود والحَدَق

وثانيها: أن يحكي محاولة جرت بين اثنين، كما فعل الصاحب:

وقَـائلة لِمَ عَرَتْكَ الهُمُومُ وأمرُك مُمْتثِلٌ في الأمَمْ

فَقُلْتُ ذَرِيني علـى غُصَّتي فإنَّ الهُمومَ بِقَدْرِ الهِمَمْ[2]

وقال الآخر:

وقائلـة خَلِّ التـصابي لأَهْـلِهَا فإنَّ الصِّبَا عنْد المشيب جنونُ

فقلتُ لهاً: كُفِّي عن اللَّوم واقْصِري لَذِيذُ الكَرَى عِنْد الصَّبَاحِ يَكُون

وقال الآخر:

إذا قُلْتُ أَهْدَى الهجرُ لي حُلَلَ البلَى تَقُولين لَولا الهجرُ لم يَطِب الحبُّ

وإنْ قُـلْتُ كَرْبي دائمٌ، قُلْت إنما يُـعَدُّ مُحِّباً مَنْ يَدُومُ له كَرْبُ

وإنْ قُلتُ مَالِي الذنبُ، قُلْت مُجِيبَةً حَيَاتُك ذنبٌ لا يُقَاس بـه ذَنْبُ

والإغراق:

وهو أن تدَّعي لشيء وصفًا بالغًا حدَّ الاستحالة وهو مقبول ومردود فالمقبول قول امرئ القيس:

مِن القَاصِرَات الطَّرْف لو دبَّ مِحْولٌ من الذر فَوْق الإتْب منها[3] لأثَّرا

وقول المتنبي:

وَلوْلا أَنَّني فِي غيرِ نَوْمٍ لَكُنْت أُظنني مِنِّي خَيالاً[1]

---

(١) غير موجودين بالديوان.

(٢) اليتيمة جـ٣ ص ٢٧٤، الديوان ص ٢٨٠ تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين طبعة ثانية سنة ١٩٧٤.

(٣) الديوان ص ٦٨.

وقول الماهر:

وَمَا أَبقَى الهوَى والشَّوقُ مِنِّي … سوى رُوحٍ تردَّد في خَيَـالِ
خَفيتُ عـن المنّية أَنْ تَرَانـي … كَأَنَّ الروحَ مِنِّـي في مُحَالِ

وقول الآخر:

فَلَو أَنَّ مَا بي من جوَى وصبَابة … على جمَل لم يَبْقَ في النَّارِ كَافِرُ

وقول شمس الدين الكيشي:

فَلَوْ رَفَعْت عنها السُّتورَ ضياؤها … يُري الْكُمْه نارًا أُسْكِنَتْ دَاخِلَ الزَّنْدِ
ولَو حَملَت من أرضها الرِّيحُ نَفْحَةً … ومَرَّت بِعَاد أَنْطَقَتْهُم من اللَّحْدِ

وقال أبو نواس:

فلمَّا شَرِبْنَاهَا وَدَبَّ دَبيبها … إلى مَوْضع الأسرارِ قلتُ لَها قفي
مَخَافَةَ أن يَعْلُو عليَّ شُعَاعُها … فَيطْلُعُ نُدَمَائِي على سَرِّي الخَفِي

وقال أيضًا:

وأخَفْت أَهلَ الشِّركِ حَتى إنَّه … لَتخَافُك النطفُ التي لَم تُخلق(٢)

وقال المتنبي:

فمَا تَقفُ السِّهامُ عَلَى قرارٍ … كَأنَّ الرِّيشَ يَطْلب النِّصَالا (٣)

والمردود هو الذي يخرجه إلى حد الكفر ويسمى الغلو، قال عضد الدولة:

لَيْس شربُ الكَأْسِ إلا في المَطَر … وغناءٌ من جَوَارٍ في سَحَر
غـانيات سـالبات للنُّهَى … ناغمات في تَضَاعيف الوَتَر
مُبْرِزَات الكَأْسِ من مَطْلَعها … سَاقِيات الرَّاح من فَاق البَشَر
عضدُ الدَّولَةِ وابـنُ رُكْنِهـا … مَلِك الأَمْـلاَك غَلاَّبُ القَدَر

روي أنه لم يفلح بعد هذا القول، وكان لا ينطق لسانه إلا بقوله تعالى: ﴿ما أغني عَنيِّ ماليه هلك عني سلطانيهْ﴾.

=

(١) العرف الطيب ص ١٤٠.
(٢) الديوان ص ٤٥٢ من قصيدة يمدح فيها الرشيد.
(٣) العرف الطيب ١٤٣.

وقال ابن دريد:

وَلَو حَمى المِقْدَارُ عنه مُهْجَةً لَـرامَها أو يَستَبيحُ مــا حَمَى
تَغْــدُو المَنَايَــا طَائِعَاتٍ أَمْرَه تَرْضَى الّذي يَرْضى وتَأْبَى ما أَبَى

والكلام الجامع:

وهو أن يحلّي المتكلم كلامه بشيء من الحكمة والموعظة وشكاية الزمان والإخوان.

فمن الحكمة قول الشافعي رضي الله عنه:

تَعَلَّم يا فَتى والعُودُ رَطْبٌ وطينُــكَ لَيِّن والطَّبْع قَابلْ[١]
فإنَّ الجَهَل واضعُ كلِّ عالٍ وإنَّ العِلْمَ رافعُ كلِّ خَــاملْ
فَحسْبُك يا فتىً شَرَفاً وعِزّاً سُكُوتُ الحَاضِرِين وأَنْت قَائِلْ

وما كتب الصاحب بهاء الدين الجويني إلى ابنه الصاحب شمس الدين- طاب ثراهما:

بُنَيَّ اجْتَهِد في اقْتِنَاء العُلُوم تَفُزْ باجتناء ثِمَار المُــنى[٢]
ألم تَــرَ فــي رُقْعَة بَيْدَقــاً إذا جَدَّ في سَيْره فَرْزَنــا
فَأَجْدادُنا الغرُّ قــدْ أَسَّسُوا من المَجْد شُمَّ المَبَاني لَــنَا
فإن لم نُشِدْها بِمَجْهُودِنــا سَتَنهارُ والله تِلْــكَ البُنــى

وقول أبي تمام:

وإذا أَراد اللهُ نَــشْر فَضيلَــةٍ طُويت أَتاحَ لَها لِسَانَ حَسُودِ[٣]
لولا اشتعالُ النارِ فيما جَاوَرتْ ما كان يُعْرَف طِيبُ عَرْف العُودِ

وقال الآخر:

من عَاشَرَ الشُّرَفَاءَ شَرَّفَ قَدْرَه ومُعَاشِرُ السُّفَهَاء غَيْر مُشَرَّف
فانظُر إلى الجِلْــدِ الحَقِيرِ مُقَبَّلاً بالثَّغْر لَمَّا صار جار المُصْحَف

وقال ابن الروميّ:

---

(١) الأبيات مشهور نسبتها للشافعي وهي غير موجودة بالديوان. وفي أنوار الربيع بدون عزو ٢: ٣١٨.

(٢) أنوار الربيع جـ ٢: ٣١٩.

(٣) الديوان ص ٣٩٧ جـ ١.

وما الشَّرَفُ المَوْرُوثُ لا دَرَّ دَرُّه بمُحْتَسب إلاَّ بآخر مُكْتَسَبْ[١]
إذا الغُصْن لم يُثمر وإنْ كان شُعْبَةً من المُثمِرَات اعْتَدَّه الناسُ في الحَطَبْ

وقال التهامي:

لا تَحْسَبَنَّ حَسَب الآبـاء مَكْرُمَةً لمن يُقَصِّر عن غايات مَجْدهم[٢]
حُسْنُ الرِّجَال بِحُسْنَى لا بحُسْنِهم وَطُولِهم في المَعَالـي لا بَطُولهمِ

وقال أبو فراس:

كانت مَوَدَّةُ سَلْمَانٍ له نَسَبًا ولم يَكُنْ بين نُوحٍ وابْنِه رَحِمُ[٣]

وقال الآخر:

سأُنْفِقُ رَيْعَـان الشَّبِيبَة آنفًا على طَلَب العَلْيَاء أو طَلَب الأَجْرِ
أَلَيْس من الخُسـران أَنَّ لَيَالِيـا تَمُر بلا نَفْعٍ وتُحْسَبُ من عُمْرِي

وقال الآخر:

على المَرْءِ أن يَسْعى لما فيه نَفْعُه وليس عليه أن يُساعدَه الدهرُ[٤]
فإن نال بالسَّعي المُنى تَمَّ أمرهُ وإن عَرَض المَقْدُورُ كان له عُذْرُ

وقال الآخر:

غرستُ غُرُوسًا كُنْتُ أَرْجُو لقَاحَها وآمل يَوْمًا أن تَطيب جَنَاتُها
فإِنْ أَثْمَرتْ لي غيرَ ما كُنْتُ آملاً فلا ذَنْبَ لي إن حَنْظَلَت نخلاتها

وقال الآخر:

حَاوِلْ جُسَيْمَات الأُمُور وَلا تَقُل إنَّ المَحَامد والعُلَى أَرْزَاق[٥]
فارْغَب بِنَفْسك أن تَكُونَ مُقَصِّرًا عن غـايَة فيها الطُّلاَّب سِبَاقُ

وقال العتابي يخاطب محبوبته [٦]:

---

(١) الديوان ص ١٢٤ جـ١.
(٢) غير موجودين بالديوان.
(٣) الديوان ١٣٠، وفي الديوان له رحما بولاق له نسبا.
(٤) أنوار الربيع بدون عزو: ٢: ٣٢٠.
(٥) أنوار الربيع بدون عزو ٢: ٣٢٠.
(٦) محاضرات الأدباء ١: ١٨٩، خاص الخاص ١١٢.

تُحِبِّين أنّي نلتُ ما نال جعفرٌ من المُلْك أَوْ مما نَال يَحْيى بن خالد

فقالت نعم فقال:

وأنَّ أميــرَ المــؤمنين أحلَّني مَحلَّهُما بالمُرْهَفات البَوَادر

دعيني تَجِئني مِيتَتي مُطْمَئنةً ولم أتَجشَّم هولَ تلك المَوَارد[1]

فإن جَسيماتِ الأُمُورِ مَنُوطَةٌ بمُسْتَوْدَعاتٍ في بُطُونِ الأَسَاوِدِ

ومن الموعظة قول ابن الرومي:

لما تُؤْذِن الدُّنْيا به من صُرُوفِها يكونُ بُكاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يُولَدُ[2]

إذا أَبْصَر الدُّنْيا اسْتَهَلَّ كأنَّــهُ بما هــو لاَقٍ من أَذاها يُهَدّدُ

وإلاَّ فما يُبْكيه مِنْهــا وإنَّهــا لأَوْسَع ممَّا كَان فيه وأَرْغَــدُ

وقال الصعلوك:

ألا إنما الدنيا غَضَارةُ أيكة إذا اخْضَرَّ منها جَانبٌ جَفَّ جَانب[3]

فلا تَكْتَحِل عَيْنَاكَ فيها بعَبْرةٍ على ذَاهِبٍ منها فَإنَّكَ ذَاهِبُ

وقال ابن المعتز:

نَسير إلى الآجَال في كُــلِّ سَاعَة وأَيّــامُــنا تُطوى وَهُنَّ مَرَاحِلُ[4]

وما أَقْبَحَ التَّفريط في زَمَن الصِّبَا فَكَيْف به والشيبُ في الرَّأْسِ شَاعل

تَرَحَّلْ عن الدنيا بِزَادٍ من التُّقَى فعُمْــرُك أيّــامٌ تُعــدُّ قــلائــلُ

وقال الآخر:

وما اللَّيْلُ والأَيَّامُ إلا مَنَازلٌ يُسيرُ بها سار إلى الموت قَاصِدُ

فَيَا عَجَبًا منها وذَاكَ عجيبةٌ مَنَازل تَسْرِي والمُسَافِر قَاصِدُ

وقال ابن هانئ المغربي:

---

(١) العتابي أديب تغلب د. أحمد النجار ط أولى سنة ١٩٧٥ القاهرة وبه البيتان الأخيران.

(٢) الطراز جـ٢ ص ٤٠٢.

(٣) أنوار الربيع ٢: ٣٢٨.

(٤) لا يوجد إلا البيت الأخير بالديوان ص ٣٨٩.

وما النَّاسُ إلا ظاعنٌ ومُودِّع وثاوٍ قَريحُ الجَفْن يَبْكي لِرَاحِلِ[1]
وما هذه الأَيَّامُ إلا كما تَرىَ وهل نحن إلا كالقُرون الأَوَائل
نُسَاقُ من الدُّنيا إلى غَيْرِ دَائم ونَبْكي من الدنيا إلى غَيْر طَائِلِ
فما عاجلٌ نَرْجُوه إلا كَآجِلِ وما آجلٌ نَخْشَاه إلا كعَاجِلِ

وقيل عاش عبيد الجرهمي ثلاثمائة سنة، وأدرك من زمن معاوية، قال له معاوية حدّثني بأعجب ما رأيت، قال: مررت ذات يوم بقوم يدفنون ميتًا فاغرورقت عيناي، وتمثلت بقول الشعر:

يا قَلْبُ إنَّك من أَسْمَاءَ مَغْرُورُ فاذْكُرْ وهل يَنْفَعْكَ اليومَ تَذْكِيرُ
فلسْتَ تَدْرِي وما تَدْرِي أَعَاجِلُها أَدْنى لِرُشْدك أم ما فيه تأخيرُ
واستَقْدر الله خَيْرًا وارْضَيَنَّ بِه فبينما العُسْرُ إذ دارت مَيَاسيرُ
وبينما المرءُ في الأَحْيَاء مُغْتبطًا إذ صَار في الرَّمْس يَقْفُوه الأعاصيرُ
يَبْكِي الغَرِيبُ عليه ليس يَعْرِفُه وذو قَرَابتِه في الحَيِّ مَسْرُورُ

فقيل لي: أتعرف قائلها؟ قلت: لا، قيل: هذا المدفون وأنت الغريب تبكي عليه، وهذا الذي خرج من قبره أمسُّ الناس رحمًا به وأَسرُّهم بموته فقال معاوية: لقد رأيت عجبًا فمن الميت قلت: عثمان بن لبيد العذري، وأنشد بديع الزمان في مقاماته لزين العابدين رضي الله عنه[2]:

هُمُ في بُطُون الأَرْضِ بَعْدَ ظُهُورِها مَحَاسِنُهم فيها بَوَالٍ دَوَاثِرُ
خَلَتْ دُورُهم منهم وأَقْوَت عِراصهُم وسَاقَتهم نحو المَنَايا المقادِرُ
وأَضْحَوْا رَميمًا في التُّراب وأَقْفَرَتْ مَجالسُ منهم عُطِّلَت ومَعاصِرُ
وحَلُّوا بدُورٍ لا تَزَاوُرَ بَيْنَهم وأَنَّى لسُكَّان القُبورِ تَزَاوُرُ
ثَوَى مُفْرَدًا في لَحْده وتَوَازَعَتْ مَوَارِيثَه أَرْحَامُهُ والأَوَاصِرُ
وأَنْحَوْا على أَمْوَاله يَهْضِمُونَها ولا حامدٌ منهم عَلَيْها وَشَاكِرُ

---

(١) شرح الديوان ص ٥٨٧ القصيدة الثانية والأربعون بشرح الدكتور زاهد علي المسند سنة ١٣٥٢هـ.

(٢) مقامات بديع الزمان الهمذاني: المقامة الوعظية ص ١٦٨ بتحقيق محمد محيي الدين.

فيا عاقِرَ الدُّنيا ويا سَاعياً لــهـا ... ويا آمنًا من أن تَدُورَ الدَّوَائِرُ
على خَطَرٍ تَمْشِي وتُصْبِحُ لاهيًا ... أتَدْرِي بماذا لو عَقَلْتَ تُخَاطِرُ؟
تُخَرِّبُ ما يبْقى وتعْمُرُ فَانِيَــا ... فلا ذاك مَوْفُورٌ ولا ذاك عَامِرُ
أتَرْضَى بأن تَفْنَى الحياة وتَنْقَضِي ... ودِينُكَ مَنْقُوصٌ ومَالُك وافــرُ
وكيف يَلَذُّ العيشَ من هو مُوقِنٌ ... بمَوْقِفِ عَدْلٍ يوم تُبْلَى السَّرَائِرُ
وإنَّ امْــرءاً يَسْعَـــى لِدُنْياه دَائِبًــا ... ويَذْهَلُ عن أُخْرَاه لا شَكَّ خَاسِرُ

وقال العلوي الكوفي:

مَرَرْتُ بدُورِ بَنِــي مُصْعَبٍ ... بــدُورِ السُّرُورِ ودُورِ الفَرَحِ
فَشَبَّهْتُ سُرْعَــةَ أيَّامـــهِم ... بسُرْعَةِ قَوْسٍ يُسَمَّى قُــزَحِ
تَلَــوَّنَ مُعْتَرِضًا في السَّمَـــاءِ ... فَلَمَّا تَمَكَّــنَ منهـــا نَــزَحِ

ولما دنف المأمون أمر أن يفرش له حِلْس وجعل يتمرغ فيه، ويقول: يا من لا يزول ملكه ارحم مَن قد زال ملكه.

ومن الثالث قول أبي العلاء في التشبيب:

منك الصُّدُودُ ومنِّي بالصُّدُود رِضَى ... من ذا عليَّ بهذا في هَوَاكَ قضى[1]؟
بِي مِنْكَ ما لَوْ غدا بالشَّمْسِ ما طَلَعَتْ ... من الكآبة أو بالبرْق ما وَمَضَا
إذا الفتى ذَمَّ عَيْشًا في شَبيبتـــه ... فما يقول إذا عَصْرُ الشباب مَضَى
وقد تعوضت من كل بمشتبهه ... فما وَجَدْتُ لأيَّامِ الصِّبَى عِوَضَا

وقال السيد الرضي منه:

واهًا على عَهْدِ الشَّبابِ وطيبِـــه ... والغُصْن من ورق الشَّباب الناضرِ[2]
واهًـــا لهـــا ما كان غير دُجُنَّـــة ... قَلَصَـــتْ ضُبَابَتها كَظلِّ الطَّائـــرِ
وأرى المنايا إن رأت بـــك شيبَةً ... جـــعلتْك مَرْمَى نَبْلِها المُتـــواتـــرِ
كان السَّوَادُ سَـــوادَ عَـــيْنِ جبينه ... فغدا البياض بياض طَرْفِ النَّاظـــرِ

---

(١) سقط الزند ص ٢٠٨
(٢) عبقرية الشريف جـــ ٢ ص ١٧١ اليتيمة جـــ ٣ ص ١٥١.

لو يُفْتَدى ذاك السـوادُ فـدَيْتُه بسوادِ عَيْني بل سوادِ ضمائـِري
أبياضُ رأسٍ واسْوِدَادُ مَطَالِـبٍ؟ صَبْرًا على حُكْمِ الزَّمَـان الجَائِرِ

إيراد المثل:

وهو أن يورد المتكلم مثلاً في كلامه، قال أبو فراس:

ونحن أُنَاسٌ لا تـوسُّطَ بَيْنَنا لنا الصَّدر دُونَ العَالَمين أو القبر[1]
تَهُون عَلَيْنا في المعالي نُفُوسُنا ومن خَطَب الحَسْنَاء لم يغْله المَهْرُ

وقال أبو العلاء:

فإن كُنْتَ تَهْوَى الْعَيْشَ فابْغِ تَوَسُّطًا فَعِنْدَ التَّنَاهي يَقْصرُ المتطاول[2]
تـوَقَّى البُدُورُ النَّقْصَ وهي أَهِلَّةٌ ويُدْرِكُها النُّقْصانُ وهي كَوَامِلُ

وقال ابن نباتة:

وهل يَنْفَعُ الفتْيَانَ حُسْنُ جُسُومهم إذا كانت الأعْرَاضُ غير حِسَان[3]
فلا تَجْعَل الحُسْنَ الدَّليلَ على الفتَى فما كلُّ مَصْقُـولِ الحـديدِ يَمَان

وقال المتنبي:

وحيدٌ من الخُلاَّن في كلِّ بَلْدَة إذا عَظُم المَطْلُوبُ قَلَّ المُسَاعدُ[4]
بِذَا قَضَت الأَيَّامُ ما بَيْنَ أَهلِهاً مصائبُ قـومٍ عِنْدَ قَوْمٍ فَوَائـدُ

أو مثلين:

قال زهير بن أبي سلمى:

ومن يَغْتَرِبْ يَحْسبْ عَدُوًّا صَديقَه ومن لا يُكَرِّمْ نفسَه لا يُكَرَّم[5]
ومن لا يَذُدْ عن حَوْضه بسلاَحِـه يُهَدَّم ومن لا يَظْلِم الناسَ يُظْلَم

---

(١) الديوان ص ١٤ – دار إحياء التراث العربي – بيروت.
(٢) سقط الزند ص ١٩٦.
(٣) اليتيمة جـ٢ ص ٣٨٨.
(٤) البيت الأول في الديوان ص ٣٩٣ والبيت الثاني في ص ٣٩٩.
(٥) شرح القصائد العشر الطوال ص ١٩٦، ١٩٧.

ومن يَجْعَل المَعْرُوفَ من دونَ عِرْضِه يَفِرْهُ ومن لا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَم

وقال لبيد:

ألاَ كُلُّ شَيْءٍ ما خَلاَ اللهَ بَاطِلُ وكلُّ نَعِيمٍ لا مَحَالَةَ زَائِلٌ (١)

وقال المتنبي:

وَأَتْعَبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لا تُجِيبُهُ وأَغْيظُ من عاداك من لا تُشَاكِلُه (٢)

---

(١) شرح ديوان لبيد ص ٢٥٦- تحقيق إحسان عباس.

(٢) الديوان جـ٣ ص ٢٣٧ بشرح البرقوقي.

الباب الثاني

في التحسين الراجع إلى اللفظ والمعنى وهو على أنواع

منها المطابقة: وتسمى التضاد والطباق وهي الجمع بين اللفظين الدّالين على المعنيين المتضادين حقيقة أو تقديرًا.

فمن الأول: قوله تعالى: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ**﴾[سورة آل عمران، آية: ٢٦] وقوله -صلوات الله عليه- للأنصار: «**أنتم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع**»[١] وقول علي لعثمان- رضي الله عنهما: إن الحق ثقيل مريّ والباطل خفيف وبيّ، وأنت رجل إن صُدِقت سخطت وإن كُذبْتَ رضيت.

وشهد رجل عند شريح فقال: إنك لسبط الشهادة، فقال: إنها لم تجعد عني.

وقال المنصور لابن عمران: إنك بخيل، قال: ما أجْمُد في حق ولا أذوب في باطل.

وقال ابن الرشيق:

وقد أطْفَأُوا شَمْسَ النَّهارِ وأَوقدُوا ... نُجومَ العَوَالي في سَماءِ عِجَاجِ[٢]

وقال أبو الطيب:

كَأَنَّ سُهَادَ اللَّيلِ يَعْشَقُ مُقْلَتِي ... فَبيْنَهُما في كُلِّ هَجْرٍ لَنا وَصْلُ[٣]

وقال:

كَأَنَّ الحُزْن مشغوفٌ بِقَلْبِي ... فَسَاعَةُ هَجْرِها يَجد الوِصَالاَ[٤]

وقد يكون بالحروف كقوله تعالى: ﴿**لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**﴾ [سورة آل عمران، آية: ٢٦]. ويحكى أن المأمون مَدَّ يده لأعرابي ليقبلها، فامتنع، فقال أتتقزز منها؟ فقال: بل أتقزز لها.

---

(١) رواه البخاري الجمعة ٢٩، مناقب ٢٥، مناقب الأنصار١١.

(٢) الإيضاح ج٢ ص ٤٧٩.

(٣) الديوان ٣: ٣٠٠.

(٤) العرف الطيب ١٤٠.

وقال:

على أنّني راضٍ بأَنْ أَحْمِلَ الهَوَى وأخلُصَ منه لا عَليَّ ولاَ لِيَا

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ* يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [سورة الروم، آية: ٦، ٧].

وقال:

خُلقوا وما خُلقوا لمكـــرمة فكَأَنَّهم خُلقوا وما خُلقوا

رُزِقُــوا وما رُزِقُوا سَمَاح يَدٍ فكَأَنَّهـــم رُزِقُوا وَمَا رُزِقُوا

ومن القبيلين قول بعضهم: ظلام الليل يهديني إلى باب من أَوَدُّه، وضوء النهار يضل بي عن باب من لا أوده.

ومن الثاني قول الحماسي:

لهم جُلُّ مَالِي إنْ تَتَابَع لِي غِنىً وإن قَلَّ مَالِي لم أُكَلِّفْهُم رِفْدَا [١]

فيجعل قوله تتابع لي غنى بمعنى كثر مالي ليطابق قوله قل مالي، وقوله لهم جل مالي بمعنى إيثاره لهم ليطابق لم أكلفهم فإنه في معنى عدم إيثارهم له، وقول أبي الطيب:

لِمَنْ تُطْلَبُ الدُّنْيا إذَا لَم يُرد بِها سُرُورُ مُحِبٍّ أَوْ إساءَةُ مُجْرِمِ [٢]

قابل المحب بالمجرم، والسرور بالإساءة، والمقابل الحقيقي البغض والحزن ومن القبيلين قول الحماسي:

يَجْزُونَ من ظُلْم أَهْلِ الظُلْم مغفرةً ومن إساءَةِ أَهْلِ السُّوءِ[٣] إحْسَانَا

قابل الإساءة بالإحسان وهو حقيقة، والظلم بالمغفرة وهي غير حقيقية، وفي قيدي أهل الظلم وأهل السوء تتميم في غاية الحسن.

وقال أبو تمام:

مها الوَحْشِ إلاّ أنَّ هاتا أوانِسُ قَنَى الخطِّ إلا أنّ تلك ذوَابِلُ[٤]

---

(١) قائله المقنع الكندي، ديوان الحماسة لأبي تمام بشرح التبريزي ج٢: ٣٩.

(٢) الديوان بشرح البرقوقي ج ٤: ٢٧١.

(٣) قائل البيت قريط بن أنيف أحد بني العنبر، ديوان الحماسة جـ١: ٥ التبريزي.

(٤) الديوان، والإيضاح جـ ٢: ٤٨٠.

قال صاحب اللمع[١]: طابق هاتا وتلك أحدهما للحاضر والآخر للغائب، فكانا نقيضين في المعنى.

ومن التضاد الذي يدهش العقول قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [سورة التوبة، آية: ١٠٩] قوبل على تقوى من الله، المراد منه قصد المؤمنين في تأسيسهم المنجح لمقاصدهم من الظفر والنصرة في الدنيا، والفلاح في العقبى المعبر به عن الحق الذي شبه بالقاعدة المحكمة، ثم خيل أنه هي، ثم أطلق عليها اسم المعبر عن المشبه وهو التقوى على سبيل الاستعارة المكنية بقوله شفا جرف هار المعبر به عن القاعدة الواهية المستعار للباطل الذي هو عزم المنافقين فيما أضمروا في تأسيسهم من الكيد بالمؤمنين، ثم خيبتهم فيما عزموا عليه، ثم فرع على المستعار له الرضوان تجريدا، كما فرع على المستعار منه الانهيار ترشيحا، وكلا التفريقين منبئان عن أقصى درجات الجنان وأبعد دركات النيران، وقوبل فيهما بالواو والفاء وكلاهما مسببان للدلالة على أن التقوى تقتضي مسببات خارجة عن الإحصاء على أسلوب قوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾[سورة الزمر ، آية: ٧٣] ثم في كل من المتقابلين إطلاق وتقييد قيد التقوى والرضوان بكونهما من جهة الله وتوفيقه، وأطلق ما يقابلهما ليكون على وزان ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ * غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة الفاتحة: ٦، ٧] وقيد شفا الجرف بالهور والانهيار في جهة ليفيد التصوير والتهويل، وأطلق ما يقابلهما عن التصوير ليدل بالإيهام على أنه مما لا يدخل تحت وصف، وجعل الجامع بين الحق والباطل الخيرية لضرب من المبالغة نحو الصيف أحر من الشتاء.

ومن أسرار هذا الأسلوب تقييد كل من المتقابلين بما يضاد معنى صاحبه، نحو ما رواه مسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان[٢] ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر**» فإن الإيمان أشار إلى أن الكبر من صفات الكافرين المتمردين فيجب أن يجتنب عنه وأن الكبر لمح إلى أن التواضع من سمات المؤمنين المخبتين فينبغي أن يرغب فيه.

---

(١) كتاب اللمع في العربية لابن جني.

(٢) ابن ماجه باب ٩ رقم ٥٩.

والمقابلة:

وهي أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر، وبين ضديهما ثم إذا شرطت هنا شرطا شرطت هناك ضده، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [سورة الليل آيات من ٥-١٠]، وقوله صلوات الله عليه[1]: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا الخرق في شيء إلا شانه**».

وقال الشاعر:

إذا جادت الدنيا عَلَيْك فَجُدْ بها ... على الخَلْق طُرّاً إنّها تَتَقَلّبُ

فلا الجودُ يُغْنِيها إذَا هِي أَقْبَلَت ... ولا البُخلُ يُبقيها إذا هِي تَذْهَبُ

وقال الآخر:

يفر جبان القوم من ابن أمه ... ويحمي شجاع القوم من لا يناسبه

ويرزق معروف الكريم عدوه ... ويحرم معروف البخيل أقاربه

وقال الثعالبي وقد اجتمع خمس مقابلات في بيت من قوله:

عَذِيري من الأيام مدت صروفها ... إلى وجه مَنْ أَهْوىَ يدُ النَّسخ والمحو

وأبدت بوجهي طالعات أرى بها ... سهام أبي يحيى مسدَّدةً نحوي

فذاك سواد الخط ينهى عن الهوى ... وهذا بياض الوَخْط يأمر بالصحو

والمشاكلة:

وهي ذكر الشيء بلفظ مصاحبه لوقوعه معه، وهو إما حقيقي، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[سورة الشورى آية: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [سورة المائدة آية: ١١٦] وقول ابن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا[2]

---

(١) أبو داود باب الجهاد ١، أحمد ٦، ٥٨.

(٢) شرح القصائد العشر الطوال: ٣٦٦ للتبريزي.

ولا يلزم تقديـــم المصاحب لمجيئه مؤخرا، كما في قول أبي تمام:

من مُبْلِغُ أفناء يَعْرُبَ كُلِّها   أني بنيتُ الجار قبل المنـــزل(١)

وقوله أيضا:

لا تسقني ماء المُلام فإنني   صبٌّ قد استعذبت ماء بكائي(٢)

أو تقديري: كقوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ جيء به وإن لم يصحبه لفظ الصبغ ولكن سبب النـــزول دال عليه، وكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً﴾[سورة البقرة آية: ٢٦] وقولك لمن يغرس الأشجار: اغرس كما يغرس فلان تريد: رجلا يصطنع الكرام.

والمزاوجة:

وهي أن تزاوج بين معنيين في الشرط والجزاء قال البحتري:

إذا ما نهى الناهي فلج بي الهوى   أصاخت إلى الواشي فَلَجَّ بها الهجر(٣)

ومراعاة النظير:

ويسمى التناسب والائتلاف، وهي أن تجمع بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد وهي أصناف.

الأول: ائتلاف اللفظ والمعنى، قال زهير بن أبي سلمى:

أثافيَّ سُفْعــاً في معرَّس مِرجَلَ   وَنُؤْياً كجِــذْم الــحوْضْ لم يتَثَلَّم

فلَّما عرفت الدَّار قلت لربعها   ألاَ أَنْعِمْ صَباحاً أيُّها الرَّبْعُ وَاسْلَمِ(٤)

فأتى في البيت الأول لكون معانيه أعرابية بألفاظ غريبة، وفي الثاني لكونها عرفية بألفاظ مستعملة.

والثاني: ائتلاف اللفظ مع اللفظ، وهو أن يكون في الكلام معنى يصح معه معان

---

(١) الديوان جـــ٣: ٤٩.

(٢) الديوان ١: ٢٢بشرح التبريزي تحقيق محمد عبده عزام.

(٣) الديوان ٢: ٨٤٤ من قصيدة يمدح فيها الفتح بن خاقان.

(٤) شرح القصائد العشر: ١٦٥.

فيختار منها ما بين لفظه وبين ذلك المعنى ائتلاف بحسب أسباب مؤدية إلى تقارهما في الخيال، قال البحتري في صفة الإبل الأنضاء:

كالقسِّ المعُطَفات بل الأسهم مبرية بل الأوتاد(١)

وكان يصح التشبيه أيضا بالعراجين والأطناب فاختار الأسهم والأوتاد والترقي فيه. وأحسن منه قول ابن رشيق:

أصَحُّ وأقوى ما سمعناه في النَّدى ... من الخبر المأثور منذ قديمِ
أحاديث ترويها السيول عن الحيا ... عن البحر عن كف الأمير تميمِ(٢)

لما فيه من المناسبة بين الصحة والقوة والسماع والخبر المأثور، ثم بين السيل الحياء والبحر وكف تميم، مع ما فيه من حسن الترتيب في الترقي مع رعاية العنعنة.

قال ابن الخشاب في المستضيء(٣).

ورد الورى سلسال جودك فارتووا ... ووقفت دون الورد وقفة حايم
ظمآن أطلب خفة من زحمة ... والورد لا يزداد غير تزاحم

انظر إلى هذين البيتين فإنهما كادا يجريان مع الماء في السلاسة، مع أن قائلهما لم يتجانف فيهما عن حكاية الماء وما يناسبه حتى عد فيها ائتلاف عشر، وقال أبو الطيب:

ورب جواب عن كتاب كتبته ... وعنوانه للناظرين قتام
حروف هجاء الناس فيه ثلاثة ... جواد ورمح ذابل وحسام(٤)

فإنه لما سمى الجيش جوابا جعل حروفه جوادًا ورمحًا وسيفًا، واللطف فيه أنه أشار بها إلى لفظ الأجل، ومثله قول السلامي:

---

(١) الديوان ٢: ٣٠ من قصيدة يمدح فيها جعفر بن حميد.

(٢) الإيضاح ج٢: ٤٨٩ والأمير تميم هو المعز بن باديس من أمراء الدولة الصنهاجية بإفريقيا، وابن رشيق هو الحسن بن رشيق القيرواني مولى الأزد، شاعر، أديب، نحوي، لغوي، توفي بالقيروان سنة ٤٥٦هـ، معجم الأدباء ٨: ١١٠.

(٣) ابن الخشاب: عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن نصر القاضي كان نحويا في درجة أبي علي الفارسي متعدد التأليف توفي سنة ٥٦٧هـ، معجم الأدباء ١٢: ٥٢.

(٤) الديوان ٤: ١٣بشرح البرقوقي.

والنَّفع ثوب بالنُّسور مُطرَّزٌ   والأرض فرش بالجياد مخُملَّ
وسطـور خيلك إنما ألفاتها   سمـرٌ تُسقطَّ بالدِّماء وتشكل[(١)]

وقول أبي العلاء:

فَهُنَّ أقلامك اللاتي إذا كتبت   مجدًا أتت بمدادٍ من دَم هَدْر[(٢)]

والضمير في «فهنَّ» للرماح.

وقال الآخر وراعى المطابقة أيضا:

وكُنَّا وليلى في صعود من الهوى   فلما تراقينا ثَبتُّ وزلَّـت
وكنا شددنا عصمة الوصل بيننا   فلما تواثقنا عقَدْتُ وحَلَّتُ

ولهذا عيب كميت قوله:

أم هل ظعائنُ بالعلياء رافعةٌ   وَإِنْ تكامَلَ فيها الدَّلُّ والشَّنَبُ[(٣)]

حيث جعل الدل والشنب في قرن واحد فإن الدل إنما يذكر مع الغنج، والشنب مع اللعس، وكذا فعل أبو نواس في قوله:

بِرَبِّ زمزم والحوض والصَّفا والمُحَصَّب

فإن ذكر الحوض غير مناسب للمذكورات.

والثالث: ائتلاف المعنى مع المعنى، وهو قسمان:

أحدهما: أن يشتمل الكلام على معنى يصح معه معنيان أحدهما ملائم بحسب نظر دقيق والآخر ليس كذلك فيقرن بالملائم، قال أبو الطيب:

فالعُرْبُ منه مع الكُدْريِّ طائرة   والرُّوم طائرة منه مع الحَجَلِ[(٤)]

والكدري: من طير السهل والعرب، بلادها المفاوز، والحجل من طير الجبل، والروم بلادها الجبال، أي: العرب تفر منه مع القطا في السهل، والروم مع القبيح في الجبل، وعليه

---

(١) للسلامي خبر في اليتيمة ج٤: ٩٥ والبداية والنهاية ١١: ٣٣٣ وهو أبو الحسن محمد بن عبد الله.

(٢) سقط الزند: ٧٠.

(٣) البيت غير موجود بالديوان.

(٤) العرف الطيب: ٣٥٢، الديوان ج٣ ص ٢٠٧ بشرح البرقوقي.

قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ﴾[سورة البقرة آية: ٥٤] ناسبت هذه التوبة لفظ البارئ دون غيره من الأسماء؛ لأن البارئ هو الذي خلقهم أبرياء من التفاوت، وهي نعمة جسيمة وكان من حق الشكر أن تخصوه بالعبادة فلما عكسوا وقابلوها بالكفران، حيث عبدوا ما لا تمييز له أصلا استرد منهم تلك النعمة بالقتل والانفكاك.

ومنه قوله تعالى: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾ [سورة الأنعام، آية: ١٠٣] فإن اللطيف يناسبه ما لا يدركه بالبصر، والخبير تناسب من يدرك شيئا. ومن خفي هذا القسم قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [سورة المائدة، آية: ١١٨] فقوله إن تغفر لهم يوهم أن الفاصلة الغفور الرحيم، لكن المناسب أنه يغفر لمن يستحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه ومن يعلم الحكمة فيما يفعله وإن خفيت على غيره.

ومنه قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة، آية: ١١، ١٢] اختلفت الفاصلتان لأن أمر النفاق وما فيه من البغي المؤدي إلى الفتنة والفساد في الأرض أمر دني مبني على العادات؛ فهو كالمحسوس فقيل: لا يشعرون، وأما أمر الإيجاب والوقوف على الحق والباطل فيحتاج إلى دقة نظر وفكر وتأمل فقيل: لا يعلمون، وأيضا في ذكر السفه مع العلم مطابقة معنوية ، فإن السفه في معنى الجهل والعلم في معنى الرشد.

وروي أن قارئا قرأ قوله: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ البَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غفور حَكِيمٌ﴾[سورة البقرة، آية: ٢٠٩] بدل (**عزيز حكيم**)، وسمعه أعرابي فأنكره و لم يقرأ القرآن، وقال إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل؛ لأنه إغراء عليه.

وثانيهما: أن يكون للمعنى وصفان ملائمان، فيختار الأحسن، كما أنشد عبد الملك بن الزيات بين يدي محمد بن عبد الملك قول الفرزدق:

فإنك إذ تهجو تميما وترتشي تباين قيس أو سحوق العمائم

كمهريق مـــاء بالفلاة وَغَـــرَّهُ سَرابٌ أثارتْـــه رياح السمائم[1]

---

(١) الديوان ٢٢٢ وفي الديوان وإنك إذ.

قال محمد هذان البيتان، وبيتا ابن هرمة:

وإنِّي وتَرْكي ندى الأكرمين   وقَدْحي بكفِّيَ زندًا شَحاحاً[١]

كتاركـــةٍ بَيْضَهـــا بالعـــراءِ   وَمُلْحِفَـــةٍ بَيْضَ أُخْـــرىَ جَناحـــاَ

احتاجا إلى تبديل بعضها ببعض فيجعل ثاني كل بيتين في موضع ثاني الآخر؛ ليصح معناهما ويروق نظمهما، وكما قال المتنبي:

وَقفْتَ وما في الموت شَكٌّ لواقف   كأنك في جَفْن الرَّدَى وهو نائم

تَمُـــرُّ بك الأبطـــال كَلْمَى هَزِيمَةً   ووجهك وضّاح وثَغْرُكَ باسُم[٢]

فإن عجز كل من البيتين يلائم كلا من الصدرين، لكنه اختير ذلك لأمرين:

أحدهما: أن قوله كأنك في جفن الردى وهو نائم، سوق لتمثيل السلامة في مقام العطف، وهو أنسب بالوقوف من مرور الأبطال به.

وثانيهما: أن في تأخير قوله: ووجهك وضاح وثغرك باسم تتميم لوصف وتفريع على أصل، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى**﴾[سورة طه، آية: ١١٨، ١١٩] فإنه لم يراع فيه مناسبة الري للشبع والاستظلال للبس بل روعيت المناسبة بين اللبس والشبع في عدم الاستغناء عنهما، وأهما من أصول النعم، وبين الاستظلال والري في كونهما تابعين لهما ومكملين لمنافعهما، وهذا أدخل في الامتنان لما في تقديـــم أصول النعم وارتداف التوابع من الاستيعاب.

ويحكى أن أبا الطيب لما أنشد بين يدي سيف الدولة القصيدة التي فيها البيتان، قال انتقدنا عليك البيتين كما انتقد على امرئ القيس بيتاه:

كأنيِّ لم أرْكَب جوادًا للذة   ولم أتبطنَّ كاعبا ذات خلخال

ولم أسبق الزِّق الرويَّ ولم أقُـــل   لخيلي كُـــري كَرَّةً بعد إجفال[٣]

قال: إن الأمير إنما قرن لذة النساء بلذة ركوب الخيل للصيد، وقرن السماحة

---

(١) الديوان ٨٧. هو إبراهيم بن هرمة الكناني القرشي.

(٢) الديوان ٤: ١٠١، ١٠٢ البرقوقي.

(٣) شرح الديوان ٥٠.

بالشجاعة للائتلاف. وأنا لما ذكرت الموت أتبعته بذكر الردى ليجانسه، ولما كان وجه المنهزم عبوسًا وعينه باكية، قلت: ووجهك وضاح لأجمع بين الأضداد ولا يبعد أن يحمل قول امرئ القيس على التكميل أيضا.

ومما يؤاخي هذه القصة انتقاد الإمام الداعي إلى الله فخر الدين الرازي على أبي العلاء قوله:

أعن وخد القلاص كشفت حالا ... ومن عند الظلام طلبت مالا(١)

قال: كان المناسب أن يضم الكشف مع الظلام والطلب مع الوخد، فيقال غرضه الإنكار على نفسه بإدمان السفر وآداب السير والتأكيد فيه؛ ولأن قوله: -

ودُرّا خلت أنجمه عليه ... فهلا خلتهن به ذبالا(٢)

لا يلتئم إلا على التأليف المذكور، وكذا قول بعضهم:

لما اعتنقنا للوداع وأعربت ... عبـــراتنا عنّا بـــدفع ناطق

فرقـــن بين معاجر ومحاجر ... وجمعن بين بنفسج وشقائق

يحتمل أن يراد بالبنفسج والشقائق عارض الرجل وخد المرأة، ويحتمل أنها حين قامت بالوداع مزقت خمارها ولطمت وجهها أي جمعت بين أثر اللطم وهو شبيه بالبنفسج وبين لون الخد وهو شبيه بالشقائق، لكن الثاني أولى؛ لأن العارض إنما يشبه بالبنفسج عند طريان الخضرة، وليس في الشعر ما يدل على شباب المودع، ومنه ما يحكى أن كثيرا مدح عبد الملك بقوله:

على ابن أبي العاصي دلاص حصينة ... أجاد المُسَدىَّ نَسْجها فأذالها(٣)

فقال: هلاّ قلت، كما قال الأعشى:

وإذا تكون كتيبة ملمومة ... شهباء يخشى الزائدون نـــزالها

كنت المقدم غير لابس جنة ... بالسيف تضرب معلما أبطالها(٤)

---

(١) سقط الزند ٤٧.

(٢) سقط الزند ٤٧.

(٣) الديوان ٨٥ تحقيق إحسان عباس.

(٤) الديوان ١٥٤.

قال: وصفه بالخرق ووصفتك بالحزم.

وعليه قوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [سورة ق، الآية: ٣٣] قال جار الله قرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة للثناء البليغ على الخاشي.

والتكرير: وهو إعادة الشيء لفائدة وهو قسمان:

الأول: أن يكرر ليناط به حكم آخر كقوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الحَقَّ﴾[سورة الأنفال، آية: ٧، ٨] جيء بقوله أن يحق الحق ليمتاز به إحدى الإرادتين وبقوله: ليحق الحق ليظهر الغرض في اختيار ما اختير، وكرر تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [سورة القمر، آية: ٧] ليجدد السامع عند سماع كل نبأ اتعاظًا واستيقاظًا، وقوله تعالى: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ على التنبيه وقرع العصا على ما يتكرر معها من نعمة ليتكرر ما يستوجب من الشكر، وقوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ [سورة الرحمن، آية: ٣٥] ونحوه، يعد من الآلاء لما في الزجر من الترهيب والترغيب فيسمى هذا النوع بالترديد، قال أبو نواس:

صفراء لا تنــزل الأحزان ساحتها ... لو مسّها حجر مسّته سراء[1]

وفيه الاقتباس من قوله تعالى: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾[سورة البقرة، آية: ٦٩].

والعلم في الباب قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الآية[سورة النور آية:٣٥] فإن قوله: مثل نوره مردد على نور السماوات، وقوله: فيهما أي في المشكاة على مشكاة والمصباح على مصباح والزجاجة على زجاجة، وقوله: زيتونة على شجرة لأنها بدل منها، ولو لم تمسسه على زيتها، أعيدت لإناطة كل بما يتبعه من المعنى.

ومنه الترجيع: وهو أن يكون المعنى مهتمًا بشأنه فإذا شرع في نوع من الكلام نظر إلى ما يتلخص إليه، فإذا تمكن من إيراده كر إليه كتكرير قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ﴾[سورة التوبة، آية: ٨٥]، قال جار الله في تجريد النــزول له شأن

(١) الديوان ص ٦.

في تقرير ما نـــزل له وتأكيده، وإرادة أن يكون على بال من المخاطب لا ينساه ولا يسهو عنه لقوته فيما يجب أن يحذر منه، فأشبه الشيء الذي أهمّ صاحبه فهو يرجع إليه في أثناء حديثه ويتخلص إليه.

ب- أن يُعاد ليقرر المعنى قال تعالى: ﴿**يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ* يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ**﴾ [سورة غافر الآيتان: ٣٨، ٣٩] وقال صلوات الله عليه: «**إن بني هشام استأذنوني أن ينكحوا بنتهم عليا فلا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن**..»(١) كرر لما وجد من الغضب في الجمع بين بنت ولي الله وبنت عدوه أبي جهل.

ج- ليقارن به تمام الفصل كيلا يجيء الكلام مبتورا لطوله قال تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[سورة النحل، آية: ١١٩] كرر: ربك دلالة على ترجيح جانب المغفرة. وإن للطول؛ فإن بين اسمها وخبرها فسحة؛ فيعاد لئلا يذهب بالطلاوة، ومنه قوله تعالى: ﴿**أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ**﴾[سورة المؤمنون آية: ٣٥]

كرر أنكم توكيدًا للأولى والمعنى: أيعدكم أنكم مخرون إذا متم، فلما بعدما بين أن الأولى وخبرها أعيد أنكم كقوله: ﴿**أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ**﴾[سورة التوبة، آية ٦٣] المعنى: فله نار جهنم، وقال الحماسي:

أَسِجْناً وقَيْدًا واشتياقا وغربة ونــأي حبيب إن ذا لعظيم

إن امرءا دامت مواثيق عهده علــى مثــل هذا إنه لكريم(٢)

كرر «إنه».

وذهب الزجاج إلى أن الهمزة في أفأنت في قوله: ﴿**أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ**﴾ [سورة الزمر، آية: ١٩] جاءت مؤكدة معادة بين المبتدأ المتضمن للشرط وبين الخبر للطول.

د- أن ينوه بشأن المذكور، كما فعل رسول الله ﷺ «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم**

(١) ابن ماجه كتاب النكاح ٥٦ ويرويه المسور بن مخرمة: إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني البخاري نكاح ١٠٩ حديث ١٣، مسلم: فضائل الصحابة، أبو داود نكاح ١٢.

(٢) الحماسة٢: ١١١ بدون عزو.

يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»[١] أي: هو عريق النسب في وصف الكرم، قال أبو الطيب:

العارض الهتن ابن العارض الهتن ابـــ ـــن العارض الهتن ابن العارض الهتن[٢]

ومنه إيقاع الجزاء نفس الشرط، نحو قولهم: من أدرك الضمان فقد أدرك أي: أدرك مرعى ليس بعده مرعى.

قال ابن الحاجب في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنــزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾[سورة المائدة آية: ٦٧] وضع قوله فما بلغت موضع أمر عظيم، أي: فإن لم تفعل فقد ارتكبت أمرًا عظيمًا.

هـــ- أن يلذ بذكره، كما قيل:

أعد ذكر نُعمان أعِدْ إنَّ ذكره هو المسك ما كَرَّرته يتضوَّعُ

وقال مروان الأكبر:

سقى الله نجدا والسلام على نجد ويا حبَّذا نجد على النَّأي والبعد
نظـــرت إلى نـــجد وبغداد دونها لعلّي أرى نجدًا وهيهات من نجد

والقسم الثاني:

أن يكرر المعنى دون اللفظ تأكيدا وهو نوعان:

أحدهما: أن يقع في غير جملة، كقوله تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ**﴾[سورة سبأ آية:٥] والرجز هو العذاب أي عذاب مضاعف، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي**﴾ كررهما لشدة الخطب النازل.

وثانيهما: أن تقع في الجمل، وهو على وجوه:

أ- أن يؤتى بالخاص بعد العام، قال تعالى: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ [سورة آل عمران آية: ١٠٤] فإن الأخيرين داخلان تحت الدعاء إلى الخير، وقال امرؤ القيس:

---

(١) البخاري أنباء ١٩مناقب ١٣، الترمذي تفسير سورة ١٢، أحمد بن حنبل ٢: ٩٦.

(٢) الديوان ٤: ٣٤٨ البرقوقي.

فيا لك من ليل كأن نجـومه بكل مغار الفتل شدت بيذبـل

كأن الثريا علقت في مصامها بأمراس كتان إلى صم جندل[1]

فإن النجوم تشتمل على الثريا اشتمال يذبل على صم جندل، وكذا قوله بكل مغار الفتل شدت مع قوله علقت بأمراس كتان.

ب-أن يؤتى بالعام بعد الخاص كقول شعيب عليه السلام: ﴿**وَلاَ تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ**﴾ [سورة هود آية: ٨٤] ثم قوله: ﴿**وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾ [سورة هود آية: ٨٥] فإن بخس الأشياء أعمّ من أن يكون في المكيال والميزان، والعثو أعمّ من تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد.

وقال الحماسي:

وإن الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمي لمختلف جدًا

إذا أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدًا

وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم وإن هم هووا غييٍّ هويت لهم رُشدًا[2]

قوله: وإن ضيعوا غيبي شامل للاغتياب المعبرّ عنه بقوله: إذا أكلوا لحمي ولغيره من التخلي عن النصرة وإهمال السعي في كل ما يرومه، ومنه باب التذييل.

جـ- أن يؤتى بالمساوي في المعنى كقول البحتري:

أَلَمّتْ وهل إلمامها بك نافع وزارت خيالا والعيون هواجع[3]

فإن ألمتّ مع قوله: هل إلمامها بك نافع مثل قوله: وزارت خيالا؛ لأن الإلمام غير النافع لا يكون في اليقظة:

وقول أبي الطيب:

تُمْسي الأمانيُّ صَرْعَى دون مبلغه فما يقول لشيء ليت ذلك لي[4]

---

(١) شرح القصائد العشر الطوال ٦٨، ٦٩.

(٢) ديوان الحماسة ٢: ٣٨ أبو تمام بشرح التبريزي واسمه محمد بن ظفر بن عمير ينتهي نسبه إلى كندة.

(٣) الديوان ٢: ١٣٠٢.

(٤) الديوان ٣: ٢٠٦ البرقوقي.

وقول ابن نباتة السعدي:

لم يُبْقِ جُودك لي شيئا أؤمله تركتني أصحب الدنيا بلا أمل(١)

وقد أربى على أبي الطيب في المدح وفي الأدب مع الممدوح حيث لم يجعله في حيز من يتمنى شيئا، ومنه باب الطرد والعكس.

د- أن يكرر رعاية للفواصل الشعرية، قال امرؤ القيس:

وهل ينعمن إلا سعيد مخلد قليل الهموم لا يبيت بأوجال(٢)

فإن من قل همه لا يبيت بأوجال، وقال المنخل:

ولقد دخلت على الفتاة الخدر في اليوم المطير

الكاعب الحسناء تَرْ فُلُ في الدِّمقس وفي الحرير(٣)

---

(١) الديوان٢: ٣٨٩.

(٢) الديوان: ٤٥ دار إحياء التراث سنة ٦٩.

(٣) الأغاني ٢٣: ٨١٥٢ مطبعة: الشعب.

تتميم:

وقد يجيء التكرير للاستيعاب، قال ابن الحاجب: العرب تكرر الشيء مرتين ليستوعب تفصيل جميع جنسه باعتبار المعنى الذي دل عليه اللفظ المكرر كقولك بينت له الكتاب كلمة كلمة أي: مفصلا باعتبار كلماته، وقوله تعالى: ﴿**فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ**﴾ [سورة الملك، آية: ٣، ٤] أي مرة بعد مرة.

ومنه قوله تعالى: ﴿**وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِياً**﴾ [سورة مريم، آية: ٦٢] أراد دوام الرزق ودروره، كما تقول أنا عند فلان صباحا ومساء ولا تقصد الوقتين المعلومين بل الديمومة، وعليه قوله تعالى في وجه: ﴿**يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾[سورة الشعراء، آية: ٨٩]، أي لا ينفع شيء ما إلا سلامة القلب، كقولك: لا ينفع زيد ولا عمرو، على معنى: لا ينفع إنسان ما.

والطرد والعكس:

وهو أن يؤتى بكلامين، يقرر الأول بمنطوقه مفهوم الثاني وبالعكس، كقوله تعالى: ﴿**لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ**﴾ إلى ﴿**ثَلاثُ عَوْرَاتٍ**﴾ [سورة النور، آية: ٨٥] إذا قرئ ثلاث عورات منصوبا؛ ليكون قوله ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن كلامًا مقررا للأمر بالاستئذان في تلك الأوقات خاصة، فمنطوق الأمر بالاستئذان مقرر لمفهوم رفع الجناح وبالعكس، وعليه قول جار الله في الروم وتكرير (الذين آمنوا وعملوا الصالحات)[1] وترك الضمير إلى التصريح لتقرير أنه لا يفلح عنده إلا المؤمن الصالح، وقوله إنه لا يحب الكافرين تقرير بعد تقرير على الطرد والعكس.

وقال ابن هانئ[2]:

فما جازه جودٌ ولا حلَّ دونه ... ولكن يصيُر الجودُ حَيْث يصير

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾[سورة الروم، آية:٤٥] .

(٢) الديوان ٤٨١ من قصيدة في مدح الحصيب.

قال المالكي: حتى انتفى كون الجود يتقدم شخصا أو يتأخر عنه فقد ثبت كونه معه وبالعكس، وقال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة التحريم، آية: ٦] وقول الموحد: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ومنه قوله تعالى: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [سورة الإسراء، آية: ٨١].

والتشبيب:

وهو أن يقدم قبل الشروع في الكلام ما يمهد المرام، وهو على وجوه:

أ - التغزل قبل المدح.

ب- التثبت على الخطاب الهائل تلطفا، قال تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [سورة التوبة، آية: ٤٣] بدأ بالعفو قبل إبداء الذنب؛ إذ لولا تصدير العفو في الثابت لما قام لصولة الخطاب، ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [سورة التحريم، آية: ١].

ج- التنبيه على إلقاء السمع للخطاب الخطير وشهود القلب لما يعني به من الخطب الجليل، قال ثعلب: حروف التهجي في الفواتح بمنـزلة ألا، كمن أراد الإخبار بمهم، حرك الحاضر بيديه أو صاح به مرة ليقبل بكله إليه.

د- الإيذان على مكانة ما يمهد له كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [سورة الأحزاب، آية: ٥٧] ومنه قول المستفيدين بين يدي المفيد ﷺ، ومن الباب باب الإبدال والإجمال والتفصيل.

التذييل:

وهو أن يقطع الكلام بما يشتمل على معناه توكيدًا لا محل له وهو على أقسام.

أ-أن يعقب بجملة تخرج مخرج المثل، قال الذبياني:

ولست بمستبق أخا لا تلُمّه   على شعث أيُّ الرجال المهَذَبُ[1]

فإن صدر البيت دلَّ بمفهومه على نفي الكامل من الرجال فحقق ذلك بعجزه. وقال الحطيئة:

(١) الديوان ٧٤.

نــزورَ فتىً يُعْطى على الحمد ماله ومن يُعْطِ أثمان المكارم يُحْمَد[1]

وقولهم: فلان ينطق بالحق والحق أبلج، وحدث حادث والحوادث جمة.

ومنه قوله تعالى: **﴿إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾**[سورة العنكبوت، آية: ٤١] إذا لم يُعَدَّ من تتمة التشبيه ولم يجعل استعارة ممهدا لها التشبيه، ولم يكن قرينة للتشبيه لإثبات أن دينهم أوهن الأديان على الكناية الإيمائية، وأما قوله: **﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾** فإيغال؛ لأن من وقف على عوادي الباطل ربما نــزع عنه:

ب-أن يعقب بجملة تخرج مخرج التشبيه والتمثيل، قال السري:

أصبحت أُظْهر شُكرا عن صنائعه . وأُضْمر الوُدَّ فيه أيَّ إضمار

كيانع النخل يبدي للعيون ضُحىً طلعا نضيدا ويُخْفي غضَّ جُمّارِ[2]

وقال الآخر:

كم لي أُنبهُ غافلا من نومه يزداد نوما كُلَّما نبهَّته

فكأنــه الطفل الصغير إذا بكى يزداد نوما كُلَّما حرَّكته

ج- أن يعقب بجملة خرجت عن غير مخرجهما، كقوله تعالى: **﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾** [سورة النمل، آية: ٣٤] أي: كذلك عادة الملوك هجِّيراهم[3]، وقوله تعالى: **﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾** [سورة البقرة، آية: ٥١] إذا عنى به: وأنتم قوم عادتكم الظلم، وإذا عنى به: وأنتم واضعون العبادة في غير موضعها فلا؛ لكونه منصوبا على الحالية، ومنه قوله تعالى: **﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾** [سورة سبأ، آية: ١٧] لأن الثاني أعمّ من الأول، وخص الجزاء بالعقاب لاختصاصه به أولا، أو لأن الأصل فهل نجازي إلا العامل فعدل مشاكلة، فالجزاء على عمومه إذًا.

---

(١) الديوان: ٥١.

(٢) اليتيمة ٢: ١٣٦، وهو السري بن أحمد الكندي المعروف بالرفاء من شعراء الموصل وتكسب بشعره، معجم الأدباء ٢٨٢/١١، وفيات الأعيان ٢٤٣، معاهد التنصيص ٢٨٠.

(٣) الهجير: العادة السيئة: المعجم الوسيط، مادة: هـــ.ج.ر.

والتكميل:

وهو أن يؤتى بكلام في فن فيرى ناقصاً فيتمم بكلام آخر. وقال كعب الغنوي:

حليم إذا ما الحلم زَيَّن أهله ... مع الحلم في عين العدو مهيب(١)

فإنه رأى أن الوصف بمجرد الحلم غير واف فكَمَّلَ بقوله: في عين العدو مهيب، وقال تعالى في حق الصحابة: ﴿**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾[سورة المائدة، آية: ٥٤] فلو اكتفى بالقرينة الأولى، لأوهم أن الذلة للعجز فاقترن بما ينبئ على التواضع ولا يؤدي إلى التكبر، وكذا قوله تعالى: ﴿**أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾ [سورة الفتح، آية: ٢٩] فلو لم يؤت بالثانية لأوهم الفظاظة والغلظة فكمل بها.

ولما أنشد النابغة بين يدي سيد المرسلين صلوات الله عليه وسلامه:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له ... بوادر تحمي صفوه أن يُكَدَّرا

ولا خير في أمر إذا لم يكن له ... حكيم إذا ما أورد الأمر أصدرا(٢)

قال أحسنت يا أبا ليلى لا يفضض الله فاك فنيف على المائة وكان من أحسن الناس ثغرًا.

وقال الحماسي:

وما مات منّا سيِّدٌ في فراشه ... ولا طُلَّ مِناّ حيث كان قتيل(٣)

فلو اقتصر على وصف قومه بشمول القتل إياهم لأوهم الضعف فيهم فأزاله بوصف انتصارهم من قاتليهم، وقال أبو الطيب:

أشد من الرِّياح الهوج بطشا ... وأسرع في النَّدى منها هُبُوبا(٤)

جمع الشجاعة مع السخاوة و لم يتجاوز عن صفتي الريح، وأخذه من قول أبي تمام:

---

(١) حسن التوسل: ٢٨٧ وأنواع الربيع ٥: ١٨٥ وهو كعب بن سعد بن عمر بن عقبة -شاعر جاهلي يقال له: كعب الأمثلي لكثرة ما في شعره من أمثال، الجمهرة: ٢٤٩.

(٢) هو النابغة الجعدي عبد الله بن قيس وكنيته أبو ليلى شاعر مخضرم، الشعر والشعراء ١: ٢٨٩، الأبيات في الديوان ص ٦٩ طبعة أولى سنة ١٩٦٤.

(٣) هو السموءل بن عادياء، ديوان الحماسة ١: ٢٩ بشرح التبريزي.

(٤) الديوان ١: ٢٦٩ من قصيدة يمدح فيها محمد بن سيار بن مكرم التميمي.

رياح كريح العنبر الغض في الندى ولكنها يوم اللقاء زعازع(١)

وأبو زرعة قابله يقول:

نسيم الصَّبا للطالب العرف ريحه وللكاشحين الخرز نكباء حرجف(٢)

والإيغال:

وهو ختم الكلام بنكتة زائدة قال تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**﴾[سورة البقرة، آية: ١٦] فقوله: وما كانوا مهتدين إيغال؛ لأن مطلوب التجار في متصرفاتهم سلامة رأس المال والربح، وربما يضيع الطلبتان وتبقى معرفة التصرف في طرق التجارة فيتحيل بها لطرق المعاش وهؤلاء قد أضاعوا الطلبتين وضلوا الطرق فدمروا، وقال تعالى: ﴿**اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [سورة يس، آية: ٢١].

وقالت الخنساء:

وإن صخرا لتَأْتَمُّ الهداة به كأنه علم في رأسه نار(٣)

قولها في رأسه نار إيغال، وقول الفرزدق:

لعن الإله بني كليب إنهم لا يغدرون ولا يَفُون لجار

يستيقظون إلى نهيق حمارهم وتنام أعينُهم عن الأوتار(٤)

قوله لا يفون تكميل إذ لو اقتصر على لا يغدرون لاحتمل المدح فقال: لا يفون؛ ليفيد أنه للعجز، وحصل مع ذلك إيغال حسن بقوله لجار؛ لأن ترك الوفاء للجار أشد قبحًا من تركه لغيره، قوله: لا تنام أعينهم تذييل لقوله يستيقظون.

والتتميم:

وهو تقييد الكلام بتابع يفيد مبالغة أو صيانة عن احتمال مكروه، فمن الأول لفظا

---

(١) الديوان ٤ : ٥٨٧ بشرح التبريزي.

(٢) أبو زرعة له خبر في تزيين الأسواق للأنطاكي: ١٧٩.

(٣) الديوان: ٥١.

(٤) الديوان: ٧٩.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون﴾ [سورة الأنعام آية: ١٤٥]، أي على الذي أحسن موسى من العلم والشرائع أي: زيادة على علمه على وجه التتميم وقوله تعالى في وجه: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [سورة الإنسان، آية: ٨] أي مع حب الطعام وهو اشتهاؤه وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [سورة الانفطار، آية: ٦] فقوله الكريم تتميم ومبالغة للتربية، فإن التربية مشعرة بالكرم، ومن ثم قال يحيى بن معاذ: غرني بك برّكُ سالفا وآنفا، وقول امرئ القيس:

حملت رُدَينيا كأنَّ سنانه سنا لهب لم يتصل بدخان[1]

فإن النار الشاعلة إذا لم يتصل بها دخان كانت أشد تقويا، وقول أبي العلاء:

الموقدون بنجد نار بادية لا يحضرون وفقْدُ العزِّ في الحضر

إذا هَمىَ القَطرُ شبَّتْها عبيدهم تحت الغمائم للسَّارين بالقُطُر[2]

فقوله: تحت الغمائم تتميم لإرادة الإيقاد والاهتمام بشأنه، وقوله بالقطر تتميم للتتميم وذلك أن نـزول المطر لا يمنعهم عن الاتقاد، ولا يوقد عنده إلا بالحطب الجزل، وإذا كان هذا الحطب عودا كان نهاية في إرادة المبالغة في الاهتمام.

ويحتمل الاستتباع أيضا؛ لأن صفة السخاوة استتبعت صفة الثروة؛ لأن الوقود إذا كان عودا وكان جزلا دلّ على كونهم لم يكونوا من أوساط الناس.

وقول الآخر:

نظرت إليك بعين جارية حوراء حانية على طفل

شبه عينها بعين الظبية على سبيل التجريد ثم تمم بقوله: حانية على طفل؛ لأن في نظر الظبية إلى خشفها[3] حال إشفاقها عليه شيئا من الملاحة وحسن الفتور ما ليس في غير تلك الحالة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[سورة آل عمران، آية: ١٢٩] والشرط حال ومتعلق بالنهي كالتعليل له على سبيل التتميم وليس

---

(١) الديوان ٤٠٠، تحقيق أبي الفضل إبراهيم/ المعارف ١٩٦٤. ويروى لعميرة بن جعل. الجاهلي- المفضليات ٢٥٩- عبد السلام هارون.

(٢) سقط الزند: ٥٩.

(٣) الخشف: ولد الظبي أول ما يولد.

على حقيقته؛ لأن الخطاب مع رسول الله ﷺ وأصحابه وتسلية لهم لما أصابهم يوم أُحُد، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[سورة الشعراء، آية: ٥١] قال جار الله هو من الشرط الذي يجيء به المدلّ بأمره المتحقق لصحته.

ومن الثاني قول الشاعر:

فسقى ديارك غير مفسدها صوب السحاب وديمةٌ تَهْمى[١]

فقوله: غير مفسدها تتميم للصيانة، وقول أبي الطيب:

وتحتقر الدنيا احتقار مُجُربٍّ ترى كلَّ ما فيها وحاشاك فانيا[٢]

قوله: وحاشاك تتميم في غاية من الحسن وقول الآخر:

لئن كان باقي عيشنا مثل ما مضى فللموت إن لم ندخل النار أَرْوَحُ

قوله: إن لم ندخل النار تتميم ومن أجله مغزى توسيط قوله: ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ**﴾ بين قوله: ﴿**نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ**﴾ وبين قوله: ﴿**وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾ [سورة المنافقون، آية: ١] ولولاه لكان يوهم ردّ التكذيب إلى نفس الشهادة.

ومن التتميم ما يختصّ باللفظ ويسمىٰ حشوًا قبيحًا وذلك إذا روعي الوزن دون المعنى والحسن منه ما روعي فيه لطيفه، قال أبو الطيب[٣]

وخفوق قلب لو رأيت لهيبه يا جنتي لظننت فيه جهنما

فحصل من قوله: يا جنتي للتتميم على طباق حسن، فلو قال يا منيتي لاستهجن كما جاء ذكر البحرين في قول البحتري[٤]:

إذا نَضوْنَ شفوف الريط آونة قشّرن عن لؤلؤ البحرين أصدافا

مستهجنا، شبه أجسادهن إذا خلعن ثيابهن بلؤلؤ قشر عنه الصدف، فتم معنى البيت، و لم يتم وزنه، فجاء بذكر البحرين حشوا.

---

(١) البيت لطرفة بن العبد، انظر الديوان ٨٨.

(٢) الديوان ٤: ٤٢٧ البرقوقي.

(٣) الديوان ج ٤ص ١٤٣شرح البرقوقي. بيروت، من قصيدة قالها في صباه في مدح شخص أراد أن يستكشف مذهبه.

(٤) الديوان ج ٣ ص ١٣٧٦.

وقوله[1]:

ذكرتُ أخي فعاودني صُدَاعُ الرأسِ والوَصَبُ

لأن الصداع لا يكون إلا في الرأس.

والترقي:

وهو أن يذكر معنى ثم يردف بما هو أبلغ منه كقولك: فلان عالم نحرير وشجاع باسل وجواد فياض، وعليه قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ﴾ [سورة الحشر، آية: ٢٤] أي: قدّر ما يوجد ثم ميّزه ثم مثله، وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ اليَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى﴾ [سورة البقرة، آية:١٢٠] معناه: لا يرضى عنك من هو أقرب مودة وهم النصارى فكيف من هو أبعد وهم اليهود، وقوله تعالى: ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ [سورة البقرة، آية: ٢٥٥]كان القياس أن يقال: نوم ولا سِّنة؛ لأنه إذا لم تأخذه السِّنة فكيف النوم، لكن المراد أنه لا توجد السِّنة والنوم أولى على طريقة قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا﴾ [سورة الإسراء، آية: ٢٣] أي: لا تقل عند الضجر أُفٌّ فضلاً عما تزيد عليه، ثم قال ولا تنهرهما تأكيدًا للمنفي ضمنًا، وقال أبو العلاء[2]:

سَرَى بَرْقُ المعرّة بعد وهن فبات برامة يصف الكلالا

شجا ركبا وأفراسا وإبلاً وزار فكاد أن يشجو الرّجالا

وأما قوله: الرحمن الرحيم، فمن باب التتميم للمبالغة فإنه -تعالى- لما ذكر جلائل النعم وعظائمها أراد المبالغة فتمم بما دق منها، أو التكميل؛ لأنه مركوز في الجبلة أن عظائم النعم ليست إلا منه، فلو اقتصر على إلرحمن لاحتشم أن يطلب منه الشيء اليسير فكمل بالرحيم، قال تعالى: يا موسى سلني حتى ملح قدرك، وقوله تعالى: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ المَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلاَ المَلاَئِكَةُ المُقَرَّبُونَ﴾[سورة النساء، آية:١٧٢] لا تفيد الترقي فيه أفضلية الملائكة، كما ذهب إليه صاحب الكشاف؛ لأن النصارى لا يقولون بتفضيلهم عليه، وإنما تنهض الحجة عليهم إذا قالوا به، بل تفيد أنهم في الإتيان بخوارق

---

(١) أبو العيال الهذلي.

(٢) سقط الزند ص ٥١.

العادات أقدر منه، أو أنهم وجدوا من غير أب وأم، ويدل على ذلك سياق الكلام، ويحتمل التتميم أيضًا.

والاعتراض:

وهو أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنى، بجملة أو أكثر، لا محل لها من الإعراب، ومرجعه إلى التأكيد.

فمن الأول قوله تعالى: ﴿**وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ**﴾ [سورة النحل، آية: ٥٧] أكد للتنـــزيه، وقال عوف الشيباني[١]:

إن الثمــانيــن وبُلِّغْتهــا قد أحوجت سمعي إلى تُرْجُمَان

وقال جرير[٢]:

ولقد أراني والجديد إلى بلىً في موكب طرف الحديث كرام

والجديد إلى بلىً اعتراض للتعزيّ عما مضى من لذة عِشرة الأحباب.

وقال كثير[٣]:

لو أن الباخلين وأنت منهم رَأَوْكَ تعلموا منك المطالا

فقوله وأنت منهم من النوادر.

ومن الثاني وجهان، أحدهما ما يقع أكثر من جملة قال تعالى: ﴿**فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ * نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ**﴾ [سورة البقرة، آية: ٢٢٢، ٢٢٣] اعترض بين البيان والمبين قوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾، وقال تعالى: ﴿**قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ**﴾[سورة آل عمران، آية: ٣٦] والتقدير إني وضعتها أنثى وإني سميتها مريم، اعترض كلام الله بين كلامها تعظيما لأمر الموهوب، قال تعالى: ﴿**فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ**﴾ [سورة الواقعة، آية: ٧٥-٧٧] فيه اعتراض في اعتراض؛ فإن قوله: وإنه لقسم عظيم،

---

(١) عوف بن محلم الخزاعي، طبقات ابن المعتز ص ١٨٧ت عبد الستار فراح.

(٢) غير موجود بالديوان.

(٣) الديوان ص ٥٠٧ت. د. إحسان عباس.

اعتراض بين القسم وجوابه مقرر للتأكيد، وتعظيم للمحلوف به، وقوله: لو تعلمون اعتراض آخر بين الصفة والموصوف توكيد لذلك التعظيم أي: لو علم ذلك يوفى حقه من التعظيم.

وثانيها، ما يكون جملة كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾[سورة البقرة، آية: ٧٢، ٧٣] اعترض ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ بين المعطوف والمعطوف عليه؛ ليؤذن أن التدارؤ لم ينفعهم في الكتمان.

وأما قول نصيب[1]:

فكدت ولم أُخلق من الطَّير إن بدا ... سنا بارق نحو الحجاز أطير

فمن الأول؛ لأن التقدير إن بدا سنا بارق نحو: الحجاز فكدت أطير، فالاعتراض ولم أخلق من الطير وهو جملة وقعت بين كلام واحد.

تتميم:

ووجه حسن الاعتراض حسن الإفادة مع أن مجيئه مجيء ما لا يترقب فيكون كالحسنة تأتيك من حيث لا تحتسب، وإذا كان كذلك يسمى حشوا عليما، قال يزيد:

أقول لعيني حين جادت بدمعها ... وإنسانها في لُجَّة الدَّمع مُغْرقُ

خذي بنصيب من محاسن وجهها ... ذَرِي الدَّمع لليوم الذي نَتفرَّقُ

وقال الآخر:

أقول لعيني حين سار أَحِبَّتِي ... وقد قُرِّحت بالدَّمع مني جفونها

أيا عينُ كُفيٍّ من دموعك واقصري ... فقالت لهذا اليوم كنت أصونها

ولم يحسن في قول النابغة قوله[2]: لا أبا لك:

يقول رجال يجهلون خليقتي ... لعل زيادًا لا أبا لكَ غَافِلُ

ويسمى مثل هذا حشوا متوسطًا؛ لأن بدخول الاعتراض لم يكتس الكلام حسنا.

---

(١) من قصيدة قالها في حضرة عبد الملك: شعر نصيب بن رباح- تقديم د. عبد الوهاب سلوم.

(٢) الديوان ١١٩.

وقبح في قول الشاعر:

نظرت وشخصي مطلع الشمس ظله إلى الغرب حتى ظله الشمس قد عقل

أراد نظرت إلى مطلع الشمس وشخصي ظلُّه إلى الغرب حتى عقل ظِلّه الشمس أي حاذاها وفيه من التعقيد أن فصل بمفعول نظرت وهو مطلع الشمس، بين المبتدأ والخبر، وفصل بالمبتدأ- وهو شخصي- بين الفعل ومفعوله ويسمى مثل هذا حشوًا قبيحًا وكانت للأئمة اختلافات، اختير ما كان أقرب إلى التحقيق.

والاستطراد:

وهو أن تكون في شيء من الفنون، ثم سنح لك فن آخر يناسبه فتورده في الذكر، كما إذا تكون في حكاية زيد، ثم سنح لك حكاية أخرى فيه أو في غيره تناسبها فتوردها، مأخوذ من فعل الصائد يطارد صيدًا فيتلقاه آخر فيقصده، وهو نوعان:

الأول: ما يكون التعلق بعيدًا بينه وبين أصل الكلام، وذلك بأن يكون تابعًا للتابع، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾[سورة البقرة، آية: ٦]وبين قوله: ﴿**الـــم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ**﴾[سورة البقرة، آية:١-٣] فإن ذكر الكفار تابع لذكر المؤمنين أي: مستطرد له، وليس بينه وبين ذكر الكتاب مناسبة ففصل، وكذا فصل قوله تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنــزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً**﴾ [سورة الأعراف، آية: ٢٦] عما قبله لكون السابق سيق لبيان إظهار سوءة آدم وحواء، وخصف الأوراق عليهما بسبب العصيان والتالي لبيان إظهار المنة علينا بما خلق من اللباس والزينة، وللإشعار بأن التستر باب عظيم في التقوى.

والثاني: ما يكون التعلق قريبا كما في قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً**﴾[سورة فاطر، آية: ١٢] فعطف ومن كل لكونه مناسبا لأصل الكلام وهو البحران المعنيٌّ بهما الكافر والمؤمن، وكذا قوله تعالى: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير**﴾ جيء به مستطردا بين قوله: ﴿**وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم**﴾ [سورة لقمان، آية: ١٤] وبين قوله: ﴿**يا بني إنها إن تك مثقال حبة**﴾ الآية ولما كان مناسبا

لأصل وصل به. واعترض أيضا في الاستطراد جملة قوله: ﴿**حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين**﴾ بين المفسِّر والمفسَّر.

وفائدة الاستطراد التحريض على قبول موعظة الآباء وأنهم محقوقون بأن يكونوا مشكورين، وفائدة الاعتراض التوكيد في التوصية في حقهم وبالوالدة خصوصًا لما تكابد من مشاق الحمل والرضاع.

والاستتباع:

وهو الوصف بشيء يستتبع وصفًا آخر إما مدحًا أو ذمًا، قال أبو الطيب[١]:

نَهبْتَ من الأعمار ما لو حويته لَهنئتِ الدنيا بأنك خالد

مدحه بصفة الشجاعة على وجه استتبع مدحه بكونه سببًا لصلاح الدنيا حيث جعلت الدنيا مهنأة بخلوده.

وقال أبو بكر الخوارزمي:

سمح البديهة ليس يمسك لفظه فكأنمـا ألفاظه من ماله

مدحه بزلاقة المنطق على وجه استتبع السماحة.

قال ابن الرومي:

نكهتها تقتل جلاسها لقرب مَجْشاها من المِفْساء

هجاها البخر على وجه استتبع ذمًا بالقصر.

والإدماج:

وهو أن يضمن كلام سِيقَ لوصف وصفا آخر، وهو أخص من الأول وأعم من الثاني، قال أبو الطيب[٢]:

أقلّب فيه أجفاني كأني أَعُدُّ بها على الدهر الذُّنُوبَا

ضمن وصف الليل بالطول الشكاية من الدهر.

---

(١) الديوان من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة ويرثي ابن عمه أبا وائل تغلب ابن داود بن حمدان وتوفي بحمص سنة ٣٣٨، الديوان ١: ٣٩٨ البرقوقي.

(٢) الديوان ص ٢٦٧ من قصيدة يـمدح فيها محمد بن سيار بن مكرم التميمي.

وقال ابن نباتة[1]:

فمن لي بَخِلٍّ أُودِعُ الحِلْمَ عِنْدَه فلا بد لي مِنْ جَهْلَةٍ في وصاله

ضمن الغزل الفخر بكونه حليما، وضمن الفخر شكاية الإخوان بقوله: فمن لي بخل، واللطف فيه أنه لم يعزم على مفارقة الحلم لأن الودائع تستعاد، ومن هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿**وَعَلَى المَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ**﴾[سورة البقرة، آية: ٢٣] سيقت لإثبات النفقة وضمنت أن النسب ينتهي إلى الآباء، ومعنى قوله -صلوات الله عليه: «**أنت ومالك لأبيك**».

وقوله تعالى: ﴿**وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً**﴾[سورة الأحقاف، آية: ١٥] سيقت لإثبات منة الوالدة على الوالد، وفيها أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، ويسمى هذا النوع في أصول الحنفية بإشارة النص.

وتأكيد المدح بما يشبه الذم:

وهو أن تثبت لشيء صفة مدح وتعقب بأداة الاستثناء صفة مدح أخرى، قال النابغة[2] الذبياني:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بِهِنَّ فُلُوُل من قِرَاعِ الكتائب

أي: إذا لم يكن العيب إلا الشجاعة وهي من أخص أوصاف المدح فإذاً لا عيب فيهم البتة، وقال النابغة الجعدي[3]:

فتىَ كَمُلَتْ أخلاقه غير أنهَّ جواد فما يُبقْي من المال باقيا

فإنه لما أراد الاستثناء من صفة الكمال أوهم السامع بأنه يرجع إلى النقص فأثبت صفة الجود توكيدًا للمدح، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿**لاَ يَسْمَعُونَ فيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثيماً**﴾ [سورة الواقعة، آية: ٢٥، ٢٦] وقوله تعالى: ﴿**لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا المَوْتَ إلاَّ المَوْتَةَ الأَولَى**﴾ [سورة الدخان، آية: ٥٦] أي: لا يذوقون الموت البتة، يعني إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها فإنهم يذوقونها.

ومن العكس قوله:

---

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٣٨٢.

(٢) الديوان ص ٤٤.

(٣) الديوان ص ١٧٣ منشورات المكتب الإسلامي- دمشق سنة ١٩٦٤.

هو الكلب إِلاَّ أنَّ فيه ملالة   وسوء مراعاة وما ذاك في الكلب

والرجوع:

وهو أن يذكر شيء ثم يرجع عنه، كقولهم ما معه من العقل شيء بلى مقدار ما يوجب الحجة عليه، قال الشاعر(١):

وإخــوان حسبتهم دروعــاً   فكانوهــا ولكــن للأعــادي
وخلتهــم سهامــا صائبــات   وكــانوها ولكن في فــؤادي
وقالوا قد صفت منَّا قلــوب   لقد صدقوا، ولكن عن ودادي

ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْـرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة التوبة، آية: ٦١] كأنه قيل: نعم هو أذن ولكن نِعْمَ الأذن أي: هو أذن كما قلتم إلا أنه أذن خير لا أذن سوء، فسلم لهم قولهم فيه إلا أنه فسر بما هو مدح له وإن كانوا قصدُوا به المذمة، ولا شيء أبلغ في الرد من هذا الأسلوب؛ لأن فيه إطماعًا في الموافقة وكرَّ إلى إجابتهم بالإبطال، وهو كالقول بالموجب في الأصول.

والتفويف:

وهو أن يؤتى بمعان ملائمة في جمل مستوية المقدار من قولهم ثوب مفوف إذا كان فيه خطوط، قال(٢):

ومدامة صفراء في قارورة   زرقاء تحملها يد بيضاء
فالخمر شمس والحباب كواكب   والكف قطب والإناء سمـاء

وقال ابن عنِّين(٣):

دعت في أعالي الصُّغْد يوما حمامة   على فنن فــي ظِــلٍّ ريَّان كالْيم
فَهاجَتْ مَشوقا واستفزت متيمًا   وأبْكت غريبا واستخفَّت أخا حِلْمِ

وقال آخر:

---

(١) تنسب هذه الأبيات لابن الرومي، وللمعري، وذكرها صاحب الإيضاح ج ٢ ص ٥٣٤.
(٢) قائلها أبو بكر محمدٌ الخالدي، يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٩٥.
(٣) الديوان ص٩٠.

فلــو أنَّ مــا بي بالجبــال لهَدَّها وبالــنَّار أطفاهــا وبالماء لم يَجْرِ
وبــالناس لم يحيوا وبالدهر لم يكن وبالشمس لم تطلع وبالنجم لم يَسْرِ

والتطريز:

وهو أن يؤتى في الكلام مواضع متقابلة كأنها طراز، قال أبو تمام:[١]

أعوام وصل كان ينْسِي طيبهُا ذكر الثوَّى فكأنهَّا أيَّامُ
ثم انبرت أيام هجر أعقبت يأسا فخلنا أنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون كأنها وكــأنهَّم وكــأننَّا أحلام

والإرصاد:

وهو أن يؤسس الكلام على وجه يدل على بناء ما بعده، وهو ضربان:

أحدهما: ما دلالته لفظية، قال تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذينَ اتَّخَذُوا من دُون اللَّه أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنكَبُوتِ**﴾[سورة العنكبوت، آية: ٤١] فلو وقف القارئ على قوله: وإن أوهن البيوت، علم السامع أن ما بعده بيت العنكبوت، وكذا قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [سورة العنكبوت، آية: ٤٠] وقول زهير[٢]:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا – لا أبا لك – يَسْأَمِ

وقال البحتري[٣]:

أحلَّت دمي من غير جُرْم وحَرَّمت بلا سبب يوم اللّقاء كلامي
فليس الــذي حَلَّلتــه بِمُحَلَّــل وليس الــذي حَــرَّمته بِــحَرَامِ

وثانيهما: ما دلالته معنوية، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ**﴾ [سورة آل عمران، آية: ٣٣] فإن من لوازم اصطفاء

---

(١) من قصيدة يمدح فيها المأمون مطلعها:
دمن ألم بها فقال سلام كم حل عقدة صبره الإلمام
(٢) شرح القصائد العشر ص ١٩٧.
(٣) الديوان ج ٣ ص ١٩٩٦ تحقيق الصيرفي.

الشيء أن يكون مختارًا على جنسه أو نوعه، وحين بلغت قراءته صلوات الله عليه: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ [سورة المؤمنون، آية: ١٤] قال عبد الله بن أبي سرح: فتبارك الله أحسن الخالقين، فقال: اكتب هكذا نــزل. .

ويحكى أن رجلا من اليمامة مر على الفرزدق «بمربد» فسأله هل علمت من جرير شيئا فأنشده الرجل[1]:

صاح الهوى لفؤادك المهتاجِ

فقال الفرزدق:

فانظر بِتُوضِحَ باكرَ الأحداجِ

فقال الرجل:

ليت الغراب غداة يَنْعِبُ دائبًا

فقال الفرزدق:

كان الغراب مُقَطَّعَ الأوداجِ

فما زال ينشده صدرًا وينشد عجزًا حتى ظن الرجل أنه قالها.

روى ابن الأفلج الكاتب أنه لما أنشد الأصمعي الرشيد قصيدة عدي بن الرقاع التي أولها:

عرف الديار توهُّما فاعتادها   من بعد ما لِبَسَ البلَىِ أَبْلادهَا

أي آثارها، فلما انتهى إلى قوله:

تزجي أغن كأن إبرة رَوْقه

قال الرشيد: أتعرف في هذا البيت ذكرًا؟ قلت: نعم؛ حكى الفرزدق لما أنشد عدي هذه القصيدة: كنت أنا وجرير حاضرين، فلما انتهى إلى قوله: تزجي أغن، قلت لجرير: تراه أي شيء يستلب تشبيها؟ قال جرير:

قلم أصاب من الدواة مدادها

فما رجع الجواب حتى قال عدي:

(١) الديوان ج ١ ص ١٣٦ت. د. نعمان محمد أمين. وهي لجرير.

قلم أصاب من الدواة مدادها

فقلت لجرير كأن سمعك مخبوء تحت فؤاده، فقال إليك عني، شغلني سبك عن جيد الكلام.

والتفسير الخفي:

وهو أن ترى في الكلام لبسا فتعمد بما يوضحه، قال تعالى: ﴿**يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً**﴾[سورة غافر، الآيات ٣٨-٤٠]، أبهم سبيل الرشاد ثم فسرها، فافتتح بذم الدنيا وتحقير شأنها ثم ثنى بوصف نعيم الآخرة وتفخيم أمرها، ثم ثلث بذكر الأعمال سيئها وحسنها، كأنه قال سبيل الرشاد وهو الإعراض عن الدنيا والإقبال إلى الآخرة والامتناع من سيء الأعمال والمسارعة إلى صالحها.

وفائدة هذه الطريق تفخيم أمر المبهم وإعظامه للإجمال والتفصيل.

ومنه باب نِعْمَ وبئس، فإذا قلت: نِعْمَ الرجل، واللام للجنس توجه المدح إلى زيد أَوَّلا مُجْمَلاً ثم إذا قلت زيد توجه إليه ثانيا مفصلا فيتمكن في الذهن فضل تمكن، وكذا نِعْمَ رَجُلا زيد.

وباب التمييز مُزال عن أصله لتوخّي الإجمال والتفصيل، ومن الأمثلة قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً**﴾ [سورة المعارج، الآيات: ١٩- ٢١] سأل ابن طاهر أحمد بن يحيى ما الهلع؟ فما زاد على التلاوة.

واللف والنشر:

وهو أن تضم متعددا ثم تتبعه ما لكل واحد منه من غير تعيين ثقة بأن السامع يرد كُلاًّ منه إلى ما هو له وهو على أقسام:

أ - ما يجيء على الترتيب، قال الله تعالى: ﴿**وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ**﴾ [سورة القصص، آية: ٧٣] وقال أبو تمام(١):

(١) الديوان ج ٣ ص ٧٦، ٧٧ من قصيدة في مدح المعتصم.

وما هو إلا الوحي أو حدُّ مُرْهفٍ تُميلُ ظُباه أَخْدَعي كُلِّ مائلِ
فهذا دواء الدَّاء من كلِّ عالــمٍ وهــذا دواء الدَّاء من كل جاهلِ

وقال الآخر(١):

ليــل وبــدر وغصن شِعْــر وَوَجْـــهُ وقَـــدُّ
خـمــــر ودُرُّ وورد رِيـــقٌ وثَغْــرٌ وخَــــدُّ

ب- ما يجيء من غير ترتيب، قال محمد بن وهيب الحميري:

قسمت صروف الدهر بأسا ونائلا فمالك موتور وسيفك واتر

وقال ابن حَيوُّس:

كيف أسلو وأنت حِقْفٌ وغُصْنٌ وغزال لحظًا وقدًا وردْفًا

وقال تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِه مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِه**﴾ [سورة الروم، آية: ٢٣] والتقدير: منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار، فصل بالقرينتين الأخيرتين الأوليين بإعانة اللف.

وقال تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ**﴾[سورة سبأ، الآية: ٩].

ج- ما يجيء اللف تقديرًا، قال تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى**﴾[سورة البقرة، آية: ١١١] فإن الضمير في قالوا لأهل الكتابين، والتقدير: وقالت اليهود والنصارى لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى.

وقد تحذف إحدى القرينتين من اللف لدلالة النشر عليه، كقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا**﴾ [سورة الأنعام، آية: ١٥٨] على رأينا، إذ التقدير: لا ينفع نفسا إيمانها حينئذ أو كسبها في إيمانها خيرًا لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا من قبل، وقد يعتبر من حيث المفهوم، كما في قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا**﴾[سورة الفرقان، آية: ٦٢] فإن مجرد الانتقال والتغيير من حال

---

(١) تشبيهات القرآن ص ٣٨٤.

إلى حال يدل على ناقل عظيم ومغير عظيم القدرة، وكون ذلك الانتقال مؤديا إلى النفع العظيم من ابتغاء الفعل بالنهار والسكون بالليل يدل على منعم واسع النعم، وهما يوجبان المعرفة والعبادة.

والجمع: وهو أن يجمع متعددًا في حكم واحد قال تعالى: ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ [سورة الكهف، آية: ٤٦] وقال صلوات الله عليه[١]: «**من أصبح آمنا في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**».

وقال[٢]:

إن الشباب والفراغ والجدة ... مفسدة للمرء أي مفسدة

ومنه باب أحكام ذات العلتين، كقوله تعالى: ﴿**جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ**﴾ [سورة الشورى، آية: ١١] والضمير عائد إلى معنى العلتين وهما الجعلان المؤولان بالتدبير المسبب عنه ذرء الحيوان.

والتفريق:

وهو إيقاع تباين بين أمرين من نوع واحد، قال أبو الفرج[٣]:

من قاس جدواك بالغمام فما ... أنصف بالحُكْم بين شكلين

أنت إذا جُدْتَ ضاحك أبدًا ... وهو إذا جَادَ دامعُ العين

والتقسيم:

وهو أن تذكر متعددًا ثم تضيف إلى كلٍّ منها ما هو له قال[٤]:

ولا يقيم على ضيم يراد به ... إلا الأذلاَّن عَيْرُ الحيِّ والوَتِدُ

هذا على الخسف مربوط برمته ... وذا يُشَجُّ فلا يَرْثى له أَحَدُ

وقال الآخر:

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الزهد ٢٤وابن ماجة في الزهد ٩ حديث رقم ٤١٤١.

(٢) أبو العتاهية الديوان ص ٢٩٥.

(٣) الوأواء الدمشقي، وينسبان إلى رشيد الدين الوطواط -الإيضاح ٥٠٥ ويتيمة الدهر ج١ ص ٢١.

(٤) البيتان للمتلمس: جرير بن عبد المسيح. شاعر جاهلي. حماسة البحتري ص ٢٠.

شيئان لو بكت الدماء عليهما عيناي حتى تؤذنا بذهـــاب
لم تبلغا المعشار مـــن حَقّيهما فَقْدُ الشباب وفرقة الأحباب

وقال أبو الفتيان بن حيوس[١]:

ثمانيـــة لـــم تفترق مـــذ جمعتها فما افترقت ما ذَبَّ عن ناظر شَفْرُ
ضميرك والتقوى وكَفُّك والغِنَى ولفظك والمعنى وسيفك والنَّصر

والجمع مع التفريق:

وهو أن تدخل شيئين في معنى واحد ثم تفرق بين جهتي الإدخال، قال البحتري[٢]:

ولما التقينا والتقى موعد لنا تعجب رائي الدر منا ولاقطه
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامهـــا ومن لؤلؤ عند الحـــديث تساقطـــه

وقال مروان بن أبي حفصة[٣]:

تشابه يوماه علينا فأشكلا فما نحن ندري أي يوميه أفضل
أيوم نداه الغمر أم يـــوم بأسه ومـــا فيهمـــا إلا أغـــر محجـــل

وقال الفخر عيسى الأربلي:

تشابه دَمْعَانا غداة فراقنا مشابهة في قِصَّـــة دون قِصَّـــة
فوجنتها تكسو المدامع حمـــرة ودمعي يكسو حمرة اللون وجنتي

وعليه قوله تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾[سورة الزمر، آية: ٤٢] جمع النفسين في حكم التوفّي ثم فرق بين جهتي التوفي بالحكم والإمساك والإرسال، أي الله يتوفى الأنفس: النفس التي تقبض والنفس التي لم تقبض فيمسك الأولى ويرسل الأخرى.

---

(١) الديوان ١: ٢٤٢ بتحقيق خليل مردم.

(٢) الديوان ج ٢ ص ١٢٣٠، ورواية البيتين:

ولما التقينا والنقا موعد لنـــا تعجب رائي الدر حسنا ولاقطه
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تُساقطه

(٣) الديوان ص ٨٩ من قصيدة في مدح معن بن زائدة.

الجمع مع التقسيم:

وهو أن تجمع متعددًا وتقسم، قال أبو الطيب[(١)]:

حتى أقام على أرباض خرشنة تشقى به الرُّومُ والصُّلبانُ والبِيَعُ
للسَّبي ما نكحوا والقتل ما ولدوا والنَّهب ما جمعوا والنَّار ما زرعوا

جمع أولا شقاء الروم بالممدوح ثم قسم ثانيًا وفصله، وفي عكسه قول حسان[(٢)]:

قوم إذا حاربوا ضَرُّوا عَدُوَّهُم أو حاولوا النَّفْع في أشياعهم نفعوا
سَجِيةٌ تلك منهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرهُّا البِدَعُ

قسم أولا صفة الممدوحين إلى ضر الأعداء ونفع الأولياء ثم جمعها في قوله سجية، ومن الجمع التقديري مع التقسيم قوله تعالى: ﴿**لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لله وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا* فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ**﴾[سورة النساء، الآيتان: ١٧٢]. إلى قوله: ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ**﴾ فحذف في الجمع ذكر المؤمنين أي من يستنكف فسيحشرهم لدلالة التقسيم عليه، ومن التقسيم التقديري قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [النساء، الآيتان: ١٧٤، ١٧٥]، فذكر جزاء المؤمن ولم يذكر جزاء الكافر وقريب منه قوله تعالى: ﴿**وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ**﴾ [سورة الأعراف، آية: ٥٠] أي: ألقوا علينا مما رزقكم الله من الطعام، كقوله: علفتها تبنا وماءً باردا، وقول عروة[(٣)]:

عَجِبتُ لهم إذ يقتلون نفوسهم ومقتلهم عند الوغى كان أعذرا

---

(١) الديوان ج ٢ ص ٣٣٤، غرشنة: بلد الروم، والأرباض: ما حول المدينة من العمارة والضواحي.

(٢) شرح الديوان ٣٠٤.

(٣) رواية الديوان:

عجبت لهم إذا يخنقون نفوسهم ومقتلهم عند الوغى كان أعذرا

وهو عروة بن الورد أحد الصعاليك. ص ٤١ صادر.

فإن قيد الوغى يدل على السلم في المشطور الأول.

والجمع مع التفريق والتقسيم:

قوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلاَّ بإذْنه فَمنْهُمْ شَقيٌّ وَسَعيدٌ* فَأَمَّا الَّذينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفيرٌ وَشَهيقٌ * خَالدينَ فيهَا مَا دَامَت السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذينَ سُعدُوا فَفِي الْجَنَّة خَالدينَ فِيهَا**﴾ [سورة هود، آية: ١٠٥-١٠٨]، فالجمع قوله نفس؛ لأنها متعددة معنى؛ لأن النكرة في سياق النفي تعمّ، والتفريق قوله: شقي وسعيد والتقسيم قوله: فأما الذين وأما الذين، وقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكتَابَ منْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكتَاب**﴾ [سورة آل عمران، آية: ٧] فالجمع الكتاب، والتفريق آيات محكمات وأخر متشابهات، والتقسيم فأما الذين الآية، فلا بدّ مِنْ جَعْلِ والراسخون قسيما له؛ لأن التقسيم حاصر، ولما حذف أما حذف ما يقتضيه من الفاء، وهذا يشعر بأن الوقف على إلا الله تام وإليه ذهب أبو حاتم والمحققون، وقال إبراهيم بن عباس[1]:

لنا إبلٌ كُومٌ يضيق بها الفضا ... وتغبُّر منها أرضها وسماؤها

فمن دونها أن تستباح دماؤنا ... ومن دوننا أن تستباح دماؤها

حمى وقرى فالموت دون مرامها ... وأيسر خطب يوم حقٌّ فناؤها

وقال ابن شرف القيرواني[2]:

لمختلفي الحاجات جمع ببابه ... فهذا له فَنٌّ وهذا له فَنّ

فللخامل العليا وللمعدم الغنى ... وللمذنب العُتْبي وللخائف الأمن

وقول ابن نباته[3]:

وكم لليِّل عندي من نجوم ... جَمَعْتُ النثر منها في نظام

---

(١) زهر الآداب ج٤ ص ١٠٩١، الطرائف الأدبية ١٥٣، وإبراهيم بن العباس الصولي أبو إسحاق توفي سنة ٢٤٣ بسامراء، معجم الأدباء ١: ١٦٥.

(٢) الإيضاح، ٥٠٩.

(٣) ابن نباته السعدي. أبو نصر عبد العزيز بن محمد بن نباتة. اليتيمة ج ٢ ص ٣٨٠.

عِتَـــابًـــا أو نسيبا أو مـــديحـــا . لِخِـــلٍّ أو حـــبيبٍ أو هُـــمَـــامِ

ومن الجمع بالاشتراك اللفظي قول التهامي(١):

ألمت وفي جفني وفي جفن منصلي غراران ذا سيف وذاك رقاد

وقد يطوى في التقسيم أحد القسمين لدلالة الجمع والتفريق عليه، كقوله تعالى: ﴿لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ إلى قوله: ﴿فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾[سورة النساء، آية: ٩٥] وقوله ﴿وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِّنْهُ﴾ جمع القاعدين من المؤمنين مع المجاهدين في عدم المساواة، ثم قسم القاعدين إلى أولي الضرر وغير أولي الضرر وطوى ذكر أحد القسمين، ثم فرق بين جهتي نفي المساواة في التقسيم بتفضيل المجاهدين درجة ودرجات.

والجمع مع التقسيم مع الجمع قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [سورة الرعد، آية: ١٧]، جمع أولا الماء والفلز في حكم كونهما جامعين لما ينتفع به، ثم فصل ثانيا حكم كل من اللذين لا نفع فيهما على طريق الجمع في الذهاب، وكل من المنتفع بهما في المكث.

تذييل:

وقد يطلق التقسيم على أمرين آخرين:

أحدهما: أن يذكر أحوال الشيء مضافًا إلى كل حال ما يليق به، قال العباس بن الأحنف(٢):

وِصَالُكُم هجر وحُبُّكم قِلىً وعطفكم صَدٌّ وسِلْمُكم حَرْبُ

قال الغانمي هذا والله أصح من تقسيمات إقليدس.

---

(١) أبو الحسن علي بن محمد بن مهند التهامي توفي سنة ٤١٦هـ من أهل تهامة، والبيت من قصيدة يمدح فيها عليا الطيموم. الديوان٢٢١.

(٢) الديوان ٣٤، صادر، سنة ١٩٦٥، شاعر من شعراء الدولة العباسية توفي ببغداد سنة ١٩٢هـ.

قال ابن الأثير: هذا ليس من التقسيم في شيء، إذ لو قال أيضا:

ولينكم عنف وقربكم نوى وإعطاؤكم منع وصدقكم كذب

إلى غير ذلك لجاز.

والأولى: أن يضاف هذا إلى باب المطابقة أو التفويف.

وقال المتنبي(١):

فنحن في جذل والرُّومُ في وجل والَبرُّ في شُغُل والبحر في خَجَلِ

وقال أيضًا(٢):

ثِقالٌ إذا لاقوا خِفافٌ إذا دُعُوا كثيرٌ إذا شَدُّوا قليل إذا عُدُّوا

وقال ابن الأثير: ومن فساد هذا النوع، قول البحتري(٣):

قِفْ مَشُوقاً أو مُسْعِدًا أو حَزِينًا أَوْ مُعِينًا أَوْ عَاذِرًا أَوْ عذولا

فإن المشوق والمسعد يكونان حزينا ومعينا، وكذا يكون المسعد عاذرًا أو عذولا.

وثانيهما: استيفاء أقسام الشيء بالذكر قال تعالى: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ**﴾ [سورة فاطر، آية: ٣٢] وقال تعالى: ﴿**وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ**﴾ [سورة الواقعة، آية: ٧-١١] والآيتان سيَّانَ في الاستيفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا**﴾ [سورة الإنسان، الآية: ٢٤] إذا أريد بالوصفين العموم، وأو للتنويع أي لا تطع منهم راكبا لما هو إثم أو فاعلا لما هو كفر، فالتقسيم باعتبار ما يدعونه إليه؛ لأن ترتب النهي على الوصفين مشعر بأنه لأجلهما، وأن مطاوعتهما في غيرهما غير محظورة، وأما لو أريد بهما عتبة والوليد، وأو للإباحة وكان النهي لما فيهما من رذائل الأخلاق فلا؛ لأن العمل بالمفهوم في مثل ذلك مهجور، ولكن

(١) الديوان – شرح العكبري ج٣ص ٨٠.

(٢) الديوان– البرقوقي جـ٢ ص ٩٢ من قصيدة يمدح فيها محمد بن سيار.

(٣) الديوان ج ٣ ص ١٧٦٢ شرح الصيرفي من قصيدة يمدح فيها أبا جعفر محمد بن علي بن عيسى القمي.

يلزم الحصر عن طاعة كل واحد وعن طاعتهما معًا بالطريق الأولى، وإليه لمح جار الله بقوله: وإذا قيل لا تطع أحدهما علم أن الناهي عن طاعة أحدهما؛ عن طاعتهما جميعًا أنهى، فعلى هذا في قولك: جالس الحسن أو ابن سيرين أمر بالمجالسة لما فيهما من الخصائل المرضية والخلال الحميدة فليتدبر.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [سورة الرعد، آية:١٢] فإن الناس عند شيم البرق بين خائف وطامع، وقال:

أظلَّت علينا منك يومًا غمامة ... أضاء لنا بـــرق وأبطا رَشَاشُها
فلا غيثها يجلو فييأس طامـــع ... ولا غيثها يهمي فيروي عِطَاشُها

وقف أعرابي في مجلس الحسن، وقال: رحم الله من تصدقَ من فضل وآسى من كفاف أو آثر من قوت، فقال الحسن: ما ترك لذي عذر عذرًا.

وقال يزيد:

تَمتَّع من الدنيا بَساعِتَك التي ... ظَفِرْتَ بها ما لم تَعُقْكَ العوائق
فلا يومك الماضي عليك بعائـــد ... ولا يومك الآتيّ به أنت واثـــق

والتضمين:

وهو أن يضمن الشعر من شعر الغير، والشرط أن يكون المضمن به مشهورًا أو مشارًا إليه وهو على ضروب:

أحدها: أن يكون المضمن به تمام البيت، قال ابن العميد(١):

وصاحب كنت مضبوطًا بصحبته ... فاليوم غادرني فردًا بلا سكن
هَبَّتْ له ريح إقبال فطار بها ... نحو السرور وألجاني إلى الحَزَنِ
كأنه كان مطويا على إحن ... ولم يكن من ضروب الشعر أنشدني
إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكـــروا ... من كان يألفهم في المنـــزل الخشن

وقال الآخر(٢):

---

(١) البيت الأخير لأبي تمام -الإيضاح ص٥٨١ ولم نعثر عليه في الديوان.

(٢) الأبيات لعلي بن أحمد بن علي بن ملك المعروف بالقالق المتوفى سنة ٤٤٨ هـــ، البداية والنهاية =

لما تَبدَّلَتْ المجالس أوجهاً غير الذين عهدت من علمائها
ورأيتها محفوفة بسوى الألى كانوا ولاة صدورها وفنائها
أنشدت بيتا سائرا متقدمًا والعين قد شرقت بجاري مائها
أما الخيام فإنَّها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نسائها

وثانيها: أن يكون المضمّن به مصراعًا، قال بعضهم:

قد قلت لما أطلعت وجناته حول الشقيق الغض روضة آسِ
أعذاره الساري العجول ترفعًا ما في وقوفك ساعة من باس(١)

ضمن المصراع الأخير من قول أبي تمام:

ما في وقوفك ساعة من باس تقضي ذمام الأربعِ الأرداس

وكتب الصاحب بهاء الدين الجويني إلى ابنه عطا ملك:

عطا ملك فديتك إن شوقي إليك يسومني الأشجان سومًا
مطايا طاقتي قد صرن عَجْفَي وأضحت ناقة البرحاء كومًا
فلو أني احتظيت بعيد قرب نذرت الدهر للرحمن صوما
وها أنا منشد شوقا ووجدا عسى الأيام أن يرجعن قوما

وقال صاحب التحبير وقد ضمن المصراعين الأخيرين من قول المتنبي:(٢)

إذا الوهم أبدى لي لَمَاهاَ وثغْرهَا تَذَكَّرت ما بين العُذيب وبارق
ويذكرني مِنْ قَدِّها ومَدامِعي مَجرَّ عَوالِينا ومَجرْىَ السوابق

وقال المطرفي:

ثنى خصره عن ردفه متناهضا إذا عَظَمَ المطلوب قل المساعد(٣)

=

١٢: ٧٠.

(١) الشطر الأخير لأبي تمام مطلع قصيدة يمدح أحمد بن المعتصم ج ٢ ص ٢٤٢.

(٢) الشطران الأخيران في البيتين هما مطلع قصيدة المتنبي في مدح سيف الدولة وهو:

تذكرت ما بين العذيب وبارق مَجرَّ عوالينا ومجرى السوابق

الديوان ج٢ ص ٣١٧ شرح أبي البقاء العكبري.

(٣) للمتنبي وتمامه:

=

وقال:

وفـــرع كان يوعدني بأسر … وكان القلب يسلبه القرار

فنادى وجهه لا خوف واسكن … كـــلام الليل يمحـــوه النهار

وثالثها: أن يضمن بعض المصراع، قال:

إذا مررت بدار كنت ساكنها … وجدت في القلب من ذكراك أحزانا

وإن حللت مكانا كان يجمعنا … سالت دموعي زُرَافَات وَوِحْدَانَا

والاقتباس:

وهو أن يوشح الكلام بشيء من القرآن أو الحديث أو الفقه، لا على أنه منه، فمن الأول قول ابن نباتة في خطبته: فيا أيها الغفلة المطرقون أما أنتم لهذا الحديث مصدقون، ما لكم لا تشفقون، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون.

وقال[1]:

إذا رُمْتُ عنها سلوة قال شافع … من الحب ميعاد السُّلُوِّ المقابر

ستبقى لها في مضمر القلب والحشا … سريرة وُدٍّ يَوْمَ تُبْلى السَّرائِرُ

وقال الآخر:

نواطق بالتوحيد آيات حُسْنِه … بوجهٍ ومنْ وجه دَواعِي إلى الشِّركِ

كأن على ذاك المُقَبلِّ خالــه … ختام على صافي الرحيق من المسك

وقال ابن الحجاج[2]:

يا خالق العرش حملت الورى … لمَّا طغى الماء على الجارية

عبدك هـــذا قد طغى مــاؤه … يــا رب فاحمله على الجارية

=

وجيد من الخلان في كل بلدة

الديوان ج١ ٢٧٠- العكبري.

(١) جاء البيتان بديوان المعاني ص ٢٢٨ غير منسوبين لقائل.

(٢) الحسين بن الحجاج الشاعر الماجن وضمن بيته الآية الكريمة: ﴿إنا لما طغى الماء حَملناكم في الجارية﴾.

وقال الصاحب عطا ملك[1]:

يا طاقة شعرة برأسي انتشبت ... بيضا نضارتي بها قد ذهبت

يـــا واحـــدة سواد قوم نهبت ... كم من فئة قليلة قد غلبت

ومن الثاني قول الصاحب[2]:

قـــال لـــي إن رقيبـــي ... سيئ الخلق فَدَارِه

قلت دعني وجهك الجنـــ ... ـــة حُـــفَّـــت بالمَـــكَارِه

اقتبس من قوله صلوات الله عليه: «**حفت الجنة بالمكاره**»[3].

وقال أيضًا[4]:

أقـــول وقد رأيت له سحابا ... من الهجران مقبلة إلينا

وقد شَحَّـــت عواليها بـــهطل ... حوالينا الصـــدود ولا علينا

من قوله -صلوات الله عليه- حين استسقى ومطر مطرا عظيما[5]: «**اللهم حوالينا ولا علينا**» ومن الاعتبارين قول الصاحب عميد الدين:

ومقلتي مقلت غرقى ذبابتها ... جزاء ما وقعت في كأس حدباء

أما الحديث فمن قوله عليه السلام[6]: «**إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فامقلوه**» وأما الآية فمن قوله عزّ وجلّ: ﴿**وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا**﴾ [سورة الحجر، آية: ٨٨] وأما الحدباء كناية عن الدنيا فقد وردت في بعض كلام الأنبياء، ومن

---

(١) ضمن البيت جزءا من الآية الكريمة: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾.

(٢) اليتيمة ج٣ ص ٢٥٨ وهو للصاحب بن عباد.

(٣) الحديث متفق عليه أخرجه مسلم (٢٨٢٢) وأخرجه البخاري ١١/ ٢٧٤ في الرقاق: باب حفت الجنة بالشهوات.

(٤) للصاحب، اليتيمة ج ٣ص ٢٥٨.

(٥) الحديث رواه أنس بن مالك، وأورده البخاري كاملا في ١١ كتاب الجمعة: ٢٥في باب الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة.

(٦) الحديث أخرجه أحمد ٣/٦٧ وابن ماجه (٣٥٠٤) والطيالسي (٢١٨٨) والنسائي ٧/١٧٨، ١٧٩.

الثالث ما روي عن الشافعي ﷺ(١):

خذوا بدمي ذاك الغزال فإنه رماني بسهمي مقلتيه على عمد

ولا تقتلوه إنني أنا عبده وفي مذهبي لا يؤخذ الحر بالعبد

وقال الآخر(٢):

تمتعتما يا ناظري بنظرة فأوردتما قلبي أَمَرَّ الموارد

أعيني كفا عن فؤادي فإنه من البغي سعيُ اثنين في قتل واحد

وقال الغزي(٣):

إن يكرهوا نظم القريض فعُذْرهُم باد كحاشية الرِّداء المعْلَم

هم محرمون عن المناقب والعُلَى والشِّعرُ طيب لا يحلُّ لمحُرم

والعقد:

وهو أن ينظم نثر إما قرآن أو حديث أو أثر أو حكمة فمن الأول ما روى ابن الضحاك أن أبا نواس سمع صبيًا يقرأ: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٠] فقال: في هذا تجيء صفة الخمر حسنة ثم قال(٤):

وَسَّيارة ضَلُّوا عن القصد بعدما ترادفهم جنح من الليل مظلم

فلاحت لهم منا على النَّأي قهوةٌ كأن سناها ضوء نار تَضَرَّمُ

إذا ما حَسَوْنَاها أناخوا مكانهم وإن مزجت حثُّوا الركاب ويَمَّمُوا

فحدثت محمد بن الحسن فقال: لا ولا كرامة، بل أخذه من قول الشاعر:

وليل هيم كلما قلت غَوَّرَتْ كواكبه عادت فما تتزَيَّل

به الركب إما أومض البرق يَمَّمُوا وإن لم يلح فالقوم بالسَّير جُهَّل

(١) البيتان غير موجودين بالديوان.

(٢) هما للقاضي الأرجاني. تزيين الأسواق بأخبار العشاق- ديوان الصبابة- داود الأنطاكي ص ٧١.

(٣) أبو إسحق، سبقت الإشارة إليه.

(٤) الديوان ص ٥٣٦.

وقال الآخر:

سرقت بالنوم وصلا من خيالكم فصار نومي مقطوعا على السَّرقِ

وقال أبو العلاء في الدرعيات[١]:

وجند سُليمان رأى السَّيف حَوْلَها فحاذر نمـــل دَبَّ فيه من الحطَمْ

يرى السَّيف دون القِرْن من حلقاتها على دمها ما دون يأجوج من رَدْمَ

وقال ابن النبيه في الملك الصالح[٢]:

دمياط مصر ونار الحرب مُسعرةٌ وأنت موسى وهذا اليوم ميقات

فاطرح عصاك تَلَقَّفْ كل ما صنعوا ولا تخــف ما حبالُ القوم حيَّاتُ

وكان أهل دمشق يظنون أن الكامل محمدًا يلي بعد المعظم عيسى؛ فولى الأشرف موسى.

قال ابن عنّين[٣]:

وكنا نُرجِّي بعد عيسى محمدًا ليكشف عنّا شدَّة الضُّر والبَلْوَى

فــأوقعنا في التّيه موسى فَكُلُّنا حيارى ولا مَنٌّ هناك ولا سَلْوَىَ

وقال ابن مطروح:

وذا يا كليم الشوق واد مقدس لدى الحُبِّ فاخلع ليس يمشيه مُحتذيِ

وقفنا وَسلَّمْنا على كلِّ منــزل تَلَــذُّذُ فيــه الــعين أيَّ تَلَــذُّذِ

ومن الثاني قول الشافعي رحمه الله[٤]:

عُمْدُة الخير عندنا كَلماتٌ أربعٌ قالهن خير البَرية

اتق الشبهات وازهد ودع ما ليس يعنيك واعملن بِنَّيِهْ

عقد قوله عليه الصلاة والسلام[٥]: «الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشبهات»

---

(١) سقط الزند ٣٢٨.

(٢) الديوان ص ٣٥٧.

(٣) الديوان ص ١٣٢.

(٤) غير موجودة بالديوان.

(٥) ابن ماجه الفتن ١٤رقم ٣٩٨٤ ص ١٣١٨، عن الشعبي قال: سمعت النعمان بن بشير يقول علي =

وقوله[1]: «وازهد في الدنيا يحبك الله» وقوله: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[2] وقوله: «إنما الأعمال بالنيات».

ومن الثالث: قول المأمون في رسول بعثه إلى المحبوبة[3]:

بعثتك مشتــاقًا ففُزت بنظرة فأغفلتني حتى أسأتُ بك الظّنا

وردَّدْت طرفا في محاسن وجهها ومتَّعْت في استمتاع نغمتها أذنا

أرى أثرًا منها بعينيك لم يكـــن لقد سَرَقَتْ عيناك من وجهها حُسْنَا

عقد قول عثمان ﷺ لأنس وقد وقعت عيناه على امرأة: أراكم تدخلون عليَّ وآثار الزناء عليكم، قال: أوحي بعد رسول الله، قال: لا، ولكن فراسة صادقة وقال الباقر[4]:

عجبت من معجب بصورته وكان من قبل نطفة مَذِرهْ

وفي غد بعد حسن صورته يصير في الأرض جيفة قذره

وهــو عــلى عجبه ونخوتــه مــا بــين ثوبيه يحـمل العَذِرَهْ

عقد قول علي ﷺ: «**ما لابن آدم والفخر، إنما أوله نطفة وآخره جيفة**».

=

المنبر، وأهوى بإصبعيه على أذنيه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلال بينّ والحرام بينّ، وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله في الأرض محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة، وروايته مشتبهات الحلال بيِّن والحرام بيِّن، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه. إلخ.

(١) بقية الحديث: «وازهد فيما في أيدي الناس يحبوك». رواه ابن ماجة زهدًا.

(٢) البخاري: فتح الباري ١/١٢٦ ط. دار المعرفة كتاب الإيمان باب من استبرأ لدينه ومسلم (١٥٩٩) ومشبهات بتشديد العين المفتوحة هي رواية البخاري ومسلم أي شبهت بغيرها وفي رواية الأصيلي «مشتبهات» بوزن مفتعلات، وهي رواية ابن ماجه «٢٤٢٦»، ورواه الدارمي عن أبي نعيم شيخ البخاري فيه بلفظ متشابهات» ٢/٢٥٩.

(٣) أنوار الربيع ٦: ٣٠٤ والمأمون بن هارون الرشيد توفي سنة ٢١٨هـ.

(٤) الأبيات منسوبة لأبي محمد النامي في يتيمة الدهر ٣: ١٢٢، وفي أنوار الربيع ج٦ ص٣٠٠ للباقر.

وقال الآخر[1]:

يا صاحب البغي إن البغي مصرعه فاربَعْ فَخيْر فِعَالِ المرءِ أَعْدَلُه

فلــو بغى جبل يوما على جبــل لانــدك مــنه أعاليه وأسفله

عقد قول ابن عباس رضي الله عنه: لو بغى جبل على جبل لدك الباغي.

ومن الرابع، قول الشاعر[2]:

أصلي وفرعي فارقاني معا واجتث من حبلهما حبلي

فما بقــاء الغصن في ساقه بعد ذهاب الفرع والأصل

عقد قول حكيم: لقد مات أبوك وهو أصلك، وابنك وهو فرعك، فما بقاء شجرة ذهب أصلها وفرعها.

وقول الآخر:

ألم تر أنَّ المرء يُزري يمينه فيقطعها عمدًا ليسلم سائره

عقد قول من سُئِلَ: لم تقطع أخاك وهو شقيقك؟ فقال: إني لأقطع العضو النفيس من جسدي إذا فسد، وقول أبي العتاهية[3]:

كفــى حزنا بــدَفنك ثم إنيِّ نفضت تراب قبرك عن يَديَّا

وكانت في حياتك لي عظات فأنت اليوم أوعظ منك حَيًّا

عقد قول بعضهم في الإسكندر كان الملك أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه بالأمس، وقول أبي الطيب في الحاتمية[4]:

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على النَّاقِل

عقد قول بعضهم: رَوْم نقل الطباع مِنْ رَدِيٍّ الأطماع شديد الامتناع.

وقول أبي الطيب[5]:

(١) البيت الثاني في بهجة المجالس ٤٠٦.

(٢) البيتان منسوبان في الكشول إلى هارون بن علي ٢: ١٨١.

(٣) الديوان ٤٩٢ صادر بيروت.

(٤) الديوان ٣ ص ٢٢ شرح العكبري.

(٥) الديوان ج ٢ ص ٧٨ شرح البرقوقي من قصيدة يمدح بها علي بن إبراهيم التنوخي.

وَأَبْعَدُ بُعْدِنَا بعد التَّداني وقرَّب قُربنا قُرب البِعاد

عقد قوله: أقرب القرب مودات القلوب وإن تباعدت الأجسام، وأبعد البعد تنافر التداني وقال أيضًا[١]:

لا يُعْجِبَنَّ مضيماً حُسنُ بِزَّته وهل يروق دفينا جودة الكَفَنِ

عقد قوله ليس جمال الفتى بنافع له إذا كان ميت الحس من العلم.

وقال أيضًا[٢]:

لعل عتبك محمود عواقبه فربما صحت الأجسام بالعلل

عقد قوله: قد يفسد العضو بصلاح الأعضاء كالكي والفصد، وقال أيضًا[٣]:

يهون علينا أن تصاب جسومنا وتسلم أعراض لنا وعقول

عقد قوله: عِلَلُ الأفهام أشد من علل الأجسام، وقال أيضًا[٤]:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يُرَاقَ على جوانبه الدَّمُ[٥]

عقد قوله: بالصبر على مضض السياسة تنال شرف الرئاسة، وقال أيضًا[٦]:

والظلم مِنْ شِيَم النفوس فإن تجد ذا عفَّة فَلِعلَّةٍ لا يَظْلِمُ

عقد قوله: والظلم من طبع النفس وإنما يصدها عن ذاك إحدى علتين إما علة دينية، كخوف ميعاد، أو علة سياسية، كخوف السيف، وقال أيضًا[٧]:

ومن يُنْفِقِ الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفَقْرُ

عقد قوله: من أفنى مدته في جمع المال خوف العدم، فقد أسلم نفسه للعدم وطعن

---

(١) الديوان ج ٤ ص ٢١٣ العكبري.

(٢) الديوان ج ٤ البرقوقي.

(٣) الديوان ج ٣ ص ٨٦ شرح العكبري من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة ويعتذر.

(٤) الديوان ج ٣ ص ١٠٩ شرح العكبري من قصيدة في مدح سيف الدولة، مطلعها:

ليالي بعد الظاعنين شكول طوال وليل العاشقين طويل

(٥) الديوان ج ٤ص ٢٥٢ شرح البرقوقي.

(٦) الديوان ج ٤ ص ٢٥٣ وهو من القصيدة السابقة.

(٧) الديوان ج ٢ ص ٢٥٥ من قصيدة يمدح بها علي بن أحمد بن عامر الأنطاكي.

بعض الزنادقة ما بال يد قطعت بخمسمائة دينار وأخرى قطعت بربع دينار.

فأجابه بعضهم لما كانت أمينة كانت ثمينة فلما خانت هانت، عقد معنى الأول المعري[1]:

يد بخمسمئين عسجد فُدِيت ما بألها قطعت في ربع دينار

والمعنى الثاني ابن الزبلاق:

صيانة النفس أغْلَتها، وأرْخَصها خيانة المال فانظر حكمة الباري

وقال شمس الأئمة الكردري:

هناك مظلومة غالت بقيمتها وههنا ظلمت هانَتْ على الباري

والحل:

وهو أن يُنثر نظم، قال أبو بكر ﷺ حين أبي عمر ﷺ عن الاستخلاف، ما حبوناك بها وإنما حبوناها بك، حلّ قول حسان في النبي ﷺ:

ما إن مدحت محمدا بمقالتي لكن مدحت مقالتي بمحمد

وقال بعض المغاربة: لما قبحت فعلاته وحنظلت نخلاته لم يزل سوء الظن يقتاده ويصدق توهمه الذي يعتاده، حل قول أبي الطيب[2]:

إذا ساء فِعْلُ المرء ساءَتْ ظُنُونُه وصدَّق ما يعتاده مِنْ تَوَهُّم

وقال الفخر عيسى: يمشين على تؤدة وسكون وقد حبسن الأبصار وتمنطقن بالعيون، حل قول أبي الطيب[3]:

وخَصْرٍ تَثْبتُ الأبصار فيه كأن عليه من حَدَقٍ نطاقا

وقال صاحب الوشي المرقوم: ينبغي للمرء أن لا يحرص في رزقه بل يكله إلى الله -تعالى- الذي تولى القسمة في خلقه، فالنسر يأكل الجيفة، بعنفه، والنحل يرعى الشهد

---

(١) غير موجود بالديوان.

(٢) الديوان ج ٤ ص ٢١٤ شرح البرقوقي من قصيدة في مدح كافور، وبعده:

وعادى محبيه بقول عداته وأصبح في ليل من الشك مظلم

(٣) الديوان جـ ٢ص ٢٩٦ شرح العكبرى.

برفقه، حلّ قول الشاعر:

يا طالب الرزق السَّني بِقُوَّة هيهـــات أنت بباطل مشغوف

أكل العُقَابُ بقـــوة جَيفَ الفَلا وَرَعَى الذُّبابُ الشهد وهو ضعيف

وقال: لم أبك عصر الشباب الذي هو في الأعمار بمنـــزلة الربيع من الأعوام وما كنت أعرف كنه أمره حتى مضى فترحلت معه الحياة بسلام، حل قول المتنبي[1]:

ليس القباب على الركاب وإنما هُنَّ الحياة ترحَّلت بسلام

وقال: الشيب بعد جدة الشباب إخلاق، وهو على كراهته مكروه الفراق فواهًا لنـــزوله وواها لرحيله، وسحقا له بديلا من الشباب وسحقا لبديله.

حل قول ابن هاني[2]:

الشيب كُرْهٌ وكُرْهُ أن يُفَارقني أَحْبِبْ بشيء على البغضاء مودود

يـــمضي الشباب ويأتي بعده بَدَلٌ والشيب يذهب مفقـــودًا بمفقود

وقال: العيادة سُنَّة مأجورة ومكرمة مأثورة، ومع هذا فنحن المرضى ونحن العواد، وكل وداد لا يدوم على ذلك فليس بوداد، حل قول الشاعر[3]:

إذا مرضتم أتيناكم نعودكم وتذنبون فنأتيكم فنعتذر

وقال: كيف يُظلم ذلك اللحد، وبه من أعمال ساكنيه أنوار، أم كيف يخفيه طوال العهد، وطيب تربه هاد للزوار، حل قول مسلم بن الوليد[4]:

أرادوا ليخفوا قبرها عن مُحِبّها فطيب تُراب القَبْر دَلّ على القَبْرِ

والتلميح:

هو أن يشار في الكلام إلى قصة أو شعر:

فمن الأول قول أبي تمام[5]:

---

(١) الديوان ج ٢ ص ١٢١ البرقوقي من قصيدة في مدح سيف الدولة.

(٢) بشار بن برد والبيت الثاني لمسلم بن الوليد/ أمالي المرتضى ٦٠٧.

(٣) جاء في الصناعتين دون عزو، ومنسوب في خاص الخاص إلى المؤمل بن أميل المحاربي ١١٥.

(٤) ذيل الديوان ص ٣٢٠.

(٥) الديوان ج ٢ ص ٣٢٠ من قصيدة يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري.

فردت علينا الشمس والليل راغم بشمس لهم من جانب الخِدْرِ تطلع

فوالله ما أدري أأحــلام نــائــم ألمتَّ بــنا أم كان في الرَّكْب يوشع

أشار إلى استيقاف يوشع فتى موسى -عليهما السلام- الشمس عند الغروب حين قاتل الجبار وخاف هجوم الليل.

وقال الخبز أرزي:

أستودع الله أحبابا فُجِعْتُ بهم بانوا وما زودوني غير تعذيب

بانوا ولم يقض زيد منهم وطــرًا ولا انقضت حاجة في نفس يعقوب

ومن الثاني قول الحريري: وإني والله لطال ما تلقيت الشتا بكافاته، وأعددت له الأهبَّ قبل موافاته، يريد قول ابن سكرة[1]:

جاء الشتاء وعندي من حوائجه سبع إذا القطر عن حاجاتنا حُبِسا

كن وكيس وكانون وكأس طلا بعد الكباب و.... ناعِمٌ وكِسَــا

وقال الآخر وفيه تلميحان:

يقولون كافات الشتاء كثيرة . وما هي إلا واحد غير مُفْتَرى

إذا كان كافُ الكيس فالكل حاضرٌ لديك وكل الصيد يوجد في الفرى[2]

وروي أن المنصور وعد الهذلي بجائزة ونسى، فحَجَّا معا ومَرَّا في المدينة ببيت عاتكة، فقال يا أمير المؤمنين هذا بيت عاتكة الذي فيه يقول الأحوص[3]:

يا بيت عاتكة الذي أتغزل

فأنكر عليه؛ لأنه تكلم من غير أن يسأل، فلما رجع أمر القصيدة على قلبه فإذا منها:

وأراك تفعل ما تقولُ وبعضهم مَذِقُ اللسان يقول ما لا يفعل

---

(١) هو محمد بن عبد الله الهاشمي، والبيتان في الإيضاح ج ٢ ص ٥٨٩.

(٢) أشار في نهاية البيت الثاني إلى المثل العربي المعروف «كل الصيد في جوف الفرى» وجوف الفرى هو الحمار الوحشي راجع الأمثال للميداني.

(٣) الديوان ص ١٦٦، والبيت:

يا بيت عاتكة الذي أتغزل حذر العدا وبه الفؤاد موكل

فذكر المواعيد وأنجز له واعتذر إليه.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [سورة الإسراء، آية: ٥٥] قال جار الله قوله وآتينا داود زبورًا دلالة على وجه تفضيل محمد -صلوات الله عليه- وأنه خاتم الأنبياء، وأن أمته خير الأمم؛ لأن ذلك مكتوب في الزبور، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾.

وكان أبو العلاء يتعصب لأبي الطيب فحضر يومًا مجلس المرتضى، فجرى ذكره فنقصه المرتضى فقال المعري لو لم يكن له من الشعر إلا قوله[1]:

لك يا منازل في القلوب منازل أقفرت أنت وهن منك أواهِلُ

لكفاه فضلا، فغضب المرتضي وأمر به فسحب وأخرج، وقال لمن بحضرته هل تدرون ما عنى الأعمى بذكر البيت؟ عنى به قوله فيها:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأنيِّ كامل

وروي أن تميميا قال لنميري ما في الجوارح أحبّ إليَّ من البازي، فقال إذا كان يصيد القطا، أشار التميمي إلى قول جرير[2]:

أنا البازي المُطِلُّ على نمير أُتيح من السَّماء لها انصبابا

وأشار النميري إلى قول الطرماح[3]:

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت طرق المكارم ضَلَّتِ

ويشبه أن يكون من هذا القبيل قول بعضهم[4]:

من غاب عنكم نسيتموه وقلبه عندكم رهينة

---

(١) الديوان ج٣ ص ٢٤٩ شرح العكبري من قصيدة يمدح بها القاضي أبا الفضل أحمد بن عبد الله بن الحسين الأنطاكي.

(٢) في الديوان:

أنا البازي المطل على غير أتحت من السماء لها انصبابا

وهو من قصيدة يهجو الراعي النميري: الديوان ج ٢ ت د. نعمان طه.

(٣) أمالي المرتضى ج ١، ٢٨٩ت أبو الفضل إبراهيم.

(٤) البيتان في المضاف والمنسوب دون عزو ٦٨٠.

أظنكُم فـي الوفـــاء ممنَّ صُحْبَتُـه صُــحْـبة السَـفِينة

وما كتبه بديع الزمان إلى الخوارزمي: إنا لقرب دار مولانا الأستاذ: كما طرب النشوان مالت به الخمر، ومن الارتياح للقائه، كما انتفض العصفور بلله القطر، ومن الامتزاج بولائه كما التقت الصهباء والبارد العذب، ومن الابتهاج بمزاره كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب.

وللخوارزمي على هذا المنهاج قوله: أنا في مقاساة حر الشوق كما اعتاد محمومًا بخيير صالب، وفي تذكر عهد الاجتماع، كما اهتز من صرف المدامة شارب، وفي تكلف الصبر عنك كطالب جدوى خلةٍ لا تواصل، وفي القلق لفراقك كطائر جَوٍّ علقته الحبائل.

فصل

في اتفاق الكلامين قصدًا وغير قصد، وهو على خمسة أقسام: النسخ، والسلخ، والمسخ، والاحتذاء والمواردة.

النسخ:

وهو أن يتفقا لفظًا ومعنى بالقصد وهو على ضربين:

أحدهما: أن يتفقا في تمام الكلام ويسمى المصالتة، وأنشد ابن الزبير معاوية على أنه له[١]:

إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته ... على طرف الهجران إن كان يعقل

ويركب حد السيف من أن تضيمه ... إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل

ثم دخل معن بن أوس وأنشد كلمته التي فيها البيتان:

لعمرك ما أدري وإنِّي لأَوْجَل ... على أينًا تعدو المنية أَوَّلُ

قال معاوية: ما هذا يا أبا حبيب؟ قال: هو أخي من الرضاعة وأنا أخوه أحقُّ بشعره.

وثانيهما: أن يختلفا في يسير في اللفظ، ويسمى الانتحال:

قال المتنبي[٢]:

لَبِسْنَ الوَشْيَ لا متجمِّلات ... ولكن كي يَصُنَّ به الجمالا

وقال الصاحب[٣]:

لبسن بُرَودَ الوَشْي لا لتجمُّل ... ولكن لصون الحُسْن بَيْن بُروُد

وقال الحماسي[٤]:

---

(١) قائلها معن بن أوس الهذلي، وقد أنشدها ابن الزبير على أنها له، زهر الآداب ص ٨٧٣.

(٢) الديوان ج ٣ ص ٢٢٢ من قصيدة يمدح فيها بدر بن عمار .

(٣) الصاحب بن عباد: اليتيمة ج٣ ص ٢٧٥.

(٤) البيت لعمر بن أبي ربيعة، والبيت في الديوان:

فلما توافقنا وسلمت أشرقت ... وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا

=

ولما تنازعن الحديث وأسفَرتَ وجوه زهاها الحسنُ أن يتقنعًا

وقال الرستمي[1]:

بدور زهتهنَّ الملاحة أن يُرى لهن نقاب والوجوه سوافر

والسلخ:

وهو أن يؤتى بالمأخوذ مع التغيير في معناه أو لفظه، أما المعنى فالمقبول منه ما يكون الفرع أحسن من الأصل، وهو على وجوه:

أ - ما يزاد فيه معنى كقول القائل:

خلفناهم في كل عين وحاجب بسمر القَناَ والبيض عَيْنًا وحاجبا

وقول ابن نباتة[2]:

خلفنا بأطراف القنا في ظهورهم عيونا لها وقع السُّيوف حواجب

أحسن لما زاد معنى الهزيمة:

وكقول أبي الطيب[3]:

لو قُلْتَ للدنف المَشُوقِ فَدَيْتُهُ مِمّا بـه لأغْرَتْهُ بِفدائِـه

وقال ابن الخياط[4]:

خذا من صَبَا نجد أمانا لقلبه فقد كاد ريَّاه يطير بلبه

أغار إذا آنست فـي الحي أنَّةً حـذارا عليه أن يكـون لحُبهِّ

=

ص ٢٢٨ صادر. ديوان الحماسة جـ٢ ص ٧٧.

(١) من قصيدة يمدح فيها مؤيد الدولة، اليتيمة ج ٣ ص ٣٠٢.

(٢) اليتيمة ج ٢ ص ٣٨٦.

(٣) الديوان ج ١ ص ٦ من قصيدة له مطلعها.

عذل العواذل حول قلب التائه وهوى الأحبة منه في سودائه

وأنشدها حين طلب إليه سيف الدولة إجازة أبيات أبي ذر سهل بن محمد الكاتب، التي يقول فيها:

يا لائمي كف الملام عن الذي أضناه طول سقامه وشقائه

(٤) هو عبد الله بن محمد بن سالم بن يونس، شاعر ظريف ماجن خليع هجاء من مخضرمي الدولتين: الأموية والعباسية، وكان منقطعا لآل الزبير، الأغاني ١٨-٩٤.

أرق منه وإن كان ذاك أربى في المعنى.

ب-ما يكون الفرع أبلغ كقول المتنبي في قصر الليل[١]:

يود أن سواد الليل دام له وزيد فيه سواد القلب والبصر

وقال ابن الظهير الحنفي:

فأنالني كُلَّ المُنَى بزيارة كانت مُخَالَسَةً كخطفة طائر

فلو استطعت إذن خلعت على الدُّجى ليطول ليلتنا سواد الناظر

أبلغ لقوله: خلعت.

وبعكسه فعل ابن نباتة السعدي، حين اقتفى أثر أبي الطيب بقوله:

كفكف قسيك يا فراق فإنه لم يبق في قلبي لسهمك موقع[٢]

في قوله:

رمَانِي الدَّهْرُ بالأرزاء حَتَّى فُؤادي فَي غِشاءٍ مِنْ نِبَالِ

فصرت إذا أصابتني سهام تكسَّرت النِّصال على النِّصال

وقد جعل فؤاده مظروفًا والأول جعله ظرفًا.

ج- أن يراعى فيه من معنى البديع شيء، كقول أبي تمام[٣]:

كانت مُسَاءَلة الركبان تُخْبِرُني عن أحمد بن سعيد أطيب الخبر

حتى التقينا فلا والله ما سمعت أُذُني بأحسن مِمَّا قد رأى بصري

---

(١) لم نعثر عليه في الديوان.

(٢) اليتيمة ج٢ ٣٨٣ وقبله قوله:

يأبى مقامي في مكان واحد دهر بتفريق الأحبة مولع

(٣) لم نعثر على البيتين في الديوان، وقد أشار أبو البقاء العكبري إلى بيت آخر لأبي تمام يبدو أن المتنبي احتذى معناه، وهو قوله:

لا شيء أحسن من ثنائي سائرا ونداك في أفق البلاد يسايره

ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري ج٢ ص ١٥٦. وبيت المتنبي من قصيدته التي مطلعها:

أطاعن خيلا عن فوارسها الدهر وحيدًا، وما قولي كذا ومعي الصبر

وهي في مدح علي بن أحمد بن عامر الأنطاكي. الديوان ج ٢ ص ١٤٨ وما بعدها.

وفي الديوان: وأستكبر الأخبار.

وقول أبي الطيب:

وأستكبر الأخبار قبل لقائه فلما التقينا صَغَّر الخبرَ الخُبْرُ

أبلغ وأوجز مع ما فيه من الطباق والجناس.

وكقول أبي تمام يرثي ولدين[1]:

لهفي على تلك الشواهد فيهما لو أُمْهِلت حتى تكون شمائلا

نجمان شاء الله ألا يطلعا إلا ارتداد الطَّرف حتى يأفلا

وقول أبي الطيب في مثله[2]:

بمولودهم صمت اللسان كغيره ولكنَّ في أعطافه منطق الفضل

بدا وله وعد السحابة بالرِّوَى وصَدَّ وفينا غُلَّة البلد المَحْلِ

أجود سبكًا مع ما فيه من طباق الصمت للمنطق ومن مراعاة النظير بين السحابة والروى، وبين الغلة والمحل ومع الزيادة عليه بقوله غلة البلد المحل؛ لأنه بين قدر حاجتهم إلى وجوده، وكقول القاضي الأرجاني[3]:

لم يبكني إلا حديث فراقهم لما أسَرَّ به إليَّ مُوَدِّعي

هو ذلك الدر الذي أودعتم في مسمع ألقيته من مدمعي

وقول جار الله[4]:

وقائلة ما هذه الدرر التي تساقطها عيناك سمطين سمطين

فقلت هي الدرر التي قد حشا بها أبو مضر أذني تساقط من عيني

أحسن لمناسبة الدر السمط والمراجعة في السؤال والجواب.

وكقول السيد الرضي:

---

(١) الديوان ج ٤، ١١٤ والبيت الأول متأخر عن الثاني.

(٢) البيتان من قصيدته في رثاء أبي الهيجاء عبد الله بن سيف الدولة. ومطلعها:

نبا منك فوق الرمل ما بك في الرمل وهذا الذي يسنى كذلك الذي يبلى

والبيت الأول رقم ٨ في القصيدة والثاني رقم ٢٠ الديوان، ج ٣ ص ٤٣ وما بعدها.

(٣) الإيضاح ج٢ ص ٥٦٣ وفيه (في مسمعي) بدلا من مسمع.

(٤) الإيضاح جـ٢ ص٥٦٤ وأبو مضر هو محمد بن جرير الضبي أحد شيوخ جار الله.

بتنا ضجيعين في ثَوْبَيْ هُدىً وتُقىً يضمنا الشوق من فرع إلى قَدمَ
وبات بارق ذاك الثّغْر يُوضَحُ لي مواقع اللَّثم في داجٍ من الظُّلَمِ

وقول الغزي:

حتى إذا طاح عنها المرط من دهش وانحل بالضَّم نظم العقد والظُّلم
تبسَّمت فأضاء الليل فالتقطت حَبَّات منتثر في ضوء منتظم

أصنع وللالتئام أوقع وإن ذاك أرق.

وتقول الخنساء[١]:

وقائلة والنعش قد فات خطوها لتدركه: يا لهف نفسي على صخر
ألا ثكلت أم الذين مشوا به إلى القبر ماذا يحملون إلى القبر؟

وقول محمد بن المناذر[٢]:

إن عبد الحميد لما تولّى هَدَّ رُكْناً ما كان بالمهدود
ما درى نعشه ولا حاملوه ما على النعش من عَفَافٍ وجود

أحسن لما فيه من الكناية على طريقة قولهم: الكرم بين برديه، وكقول بعضهم:

وكانت بالعراق لنا ليال سرقناهن من ريب الزمان
جعلناهُنَّ تاريخ اللّيالى وعنوان المسرَّة والأمان

وقول المطوعي:

ومرت في جوين لنا ليال عددناهُنَّ من عيش الجِنَانِ
رضعنا في حجور الأمن فيها بأفواه الرضا ثَدْيَ الأمان

أصنع؛ لاجتماع أربع استعارات مع رعاية التناسب.

د-أن يكون أبين معنى وأجود سبكا، كقول نصر بن يسار[٣] في واقعة أبي مسلم:

أرى خلل الرّماد وميض جمر فيوشك أن يكون لها ضرام

---

(١) الديوان ٥٥.

(٢) شاعر كثير الأخبار والنوادر، اتصل بالبرامكة ومدحهم مات سنة ١٩٨هـ.

(٣) الطراز ج١ ص ٣٩٤.

فإن النَّار بالعودين تُصْلي وإن الحرب أوّلها كلام

فقلت من التأسف ليت شعري أأيقاظ أمية أم نيام

وقول بعض الفضلاء قبل واقعة بغداد بسنتين:

أرى نارا تشب بكل أرض لها في كل ناحية شعاع

وقد غفلت بنو العَبَّاس عنها ونامت فهي آمنة رتاع

كما غفلت أمَّية ثم هَبَّت لتدفع حين ليس لها دفاع

أظهر حيث جعل الوميض نارًا مشبوبًا، والتردد في النوم نومًا، وبالغ فيه بتتميم أمية للغفلة ثم بتتميم رتاع للآمنة فجمع بين الإفراط في الفتنة والتفريط في الغفلة.

وكقول أبي تمام[1]:

وكذاك لم تفرط كآبة عاطل حتى يجاورها الزمان بحالي

وقول البحتري[2]:

وقد زادها إفراط حسن جوارها لأخلاق أصفار من المجد خيب

وحسن دراري الكواكب أن ترى طوالع في داج من الليل غيهب

وكقول الخنساء[3]:

فما بلغت كف امرئ متناول من المجد إلا والذي نلت أطول

وما بلغ المهدون في القول مدحة ولا صدقوا إلا الذي فيك أفضل

وقول أبي نواس[4]:

إذا نحن أثنينا عليك بصالح فأنت كما نثني وفوق الذي نثني

وإن جرت الألفاظ منا بمدحة لغيرك إنسانا فأنت الذي نعني

هـ-أن ينقل المعنى المأخوذ إلى غير محله، قال بشار:

---

(١) الديوان ج٣ ص١٣٢ في مدح المعتصم، ويذكر فتح الخرمية.

(٢) الديوان ج١ ص١٩٢.

(٣) الديوان ص ١١٢.

(٤) الديوان ٤١٥ من قصيدة في مدح الأمين.

وإذا أقلّ لي البخيل عذرته إن القليل من البخيل كثير

وقال المتنبي(١):

وقَنِعْتُ باللقُيا وأوّل نظرة إن القليل من الحبيب كثير

قال أبو نواس(٢):

تَستَّرتُ عن دهري بِظلّ جناحــه فعيني ترى دهري وليس يراني

فإن تسأل الأيام ما اسمي ما درت وأين مكاني ما عرفن مكانــي

نقله الإفريقي المتيم منه إلى معنى الخمر(٣):

وفتـــية أدبــاء مــا علمتهـــم شبهّتهم بنجوم الليل إذ نجموا

فرّوا إلى الرّاح من خطب يُلمُّ بهم فما درت نُوَبُ الأيَّام أين هم

وقال البحتري في القتلى(٤):

سُلِبُوا وأشرقت الدّماء عليهم مُحمرة فكأنَّهم لم يُسْلبوا

ونقله أبو الطيب إلى السيف(٥):

يبس النجيع عليه وهو مجرد من غمده فكأنَّما هو مغمد

و-أن ينقل إلى نقيضه، قال أبو الشيص(٦):

أجد الملامة في هواك لذيذة حبا لذكرك فليلمني اللوم

---

(١) الديوان ج ٢ ص ٢٣٧من قصيدة يرثي فيها محمد بن إسحاق التنوخي (البرقوقي).

(٢) الديوان ٤٦٨.

(٣) هو أبو الحسن محمد بن أحمد الإفريقي المتيم صاحب كتاب أشعار الندماء، وكتاب الانتصار للمسيئ وله ديوان شعر، وهو معاصر للثعالبي ج ٤ ص ١٥٧ يتيمة الدهر، معجم الأدباء ٤: ٢٤٤، تاريخ الإسلام ١٤٥.

(٤) الديوان ج١ ص ٧٦ الصيرفي من قصيدة يمدح بها إسحاق بن إبراهيم المصعبي.

(٥) من قصيدة يمدح شجاع بن محمد الطائي المنبجي مطلعها:

اليوم عهدكم فأين الموعد هيهات ليس اليوم موعدكم غد.

الديوان بشرح أبي البقاء العكبري ج١ ص ٣٢٧ وما بعدها.

(٦) شرح ديوان المتنبي لأبي البقاء العكبري ص ٤ وأبو الشيص هو محمد بن عبد الله بن علي الخزاعي شاعر مطبوع انقطع إلى أمير الرقة عقبة بن جعفر قتل سنة ١٩٦هـ.

ونقله أبو الطيب(١):

أأُحبُّه وأحب فيه ملامة إن الملامة فيه من أعدائه

وألقى أبو دلف المعجلي على فضل الشاعرة قول أبي نواس(٢):

قالوا عشقت صغيرة فأجبتهم أشهى المطي إلى ما لم يركب

كم بين حبة لـؤلـؤ مثقوبـة لبست وحبة لؤلؤ لم تثقـب

فأجابت فضل بقول مسلم بن الوليد(٣):

إن المَـطية لا يَلذُّ ركوبها حتى تذللَّ بالزِّمام وتُرْكَبَا

والحب ليس بنافع أربابه حتى يُفَصَّل في النظام ويُثْقَبا

وأما اللفظ فهو أن يعمد إلى كل لفظ فيوضع مكانه ما يرادفه، وهذا مذموم، كقول الحطيئة(٤):

دع المكارم لا ترحل لُبغْيَتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

وقول الآخر(٥):

ذر المآثر لا تذهب لمطلبها واجلس فإنَّك أنت الآكل اللاَّبس

وإذا غير بعض التغيير، هان الخطب، كقول الشارستاني:

لقد طفت في تلك المعاهد كلِّها وسَيرَّتُ طرفي بين تلك المعالم

فلـم أر إلا واضعا كفَّ حائر على ذقن أو قارعا سِنَّ نادم

وقول الآخر:

لقد سرت في تلك المنازل برهة لأنجو فيها من نيوب النوائب

---

(١) انظر السابق.

(٢) لم نقف عليهما في ديوانه ولفضل الشاعرة أخبار في الأغاني ولها فصل خاص في رسائل سعيد بن حميد.

(٣) ذيل الديوان: ت. سامي الدهان ٣٠٥ وهو المعروف بصريع الغواني وهو شاعر غزل يكثر من البديع توفي سنة ٢٠٨هـ.

(٤) الديوان ص ١٠٨.

(٥) جاء في دلائل الإعجاز دون عزو ص ٤٢٩.

فلم أر فيهـــا نازلا غير خائف ولم أر فيها قافلا غير خائب

والمسخ:

وهو قلب الصورة الحسنة إلى القبيحة، وجميع الفروع التي تقصر عن الأصول منه، كقول أبي تمام(١):

فتى لا يَرَى أن الفريضة مقتلٌ لكن يرى أن العيوب مقاتل

قال أبو الطيب(٢):

يرى أن ما بان منك لضارب بأقتل مما بان منك لعائب

فإنه وإن لم يشوِّه المعنى فقد شوه الصورة.

والاحتذاء:

وهو أن يقتفي المتكلم الآخر في أسلوب من أساليب فَنَّيْ البلاغة والفصاحة وهو محمود بل مقصود.

والموارِدة:

وهي أن يتفق متكلمان على معنى واحد من غير أخذ، ويسمى وقوع الحافر على الحافر وهو نوعان:

أحدهما: ما يجتمع فيه اللفظ والمعنى برمته، كما أنشد ابن ميادة لنفسه(٣):

مفيد ومتلاف إذا ما أتيته تَهلَّل واهتزَّ اهتزاز المهند

فقيل له إن هذا للحطيئة، فقال الآن علمت أني شاعر.

وقول امرئ القيس (٤):

وقوفا بها صحبي علي مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل

---

(١) الديوان ج ٣ ص ١٢٦.

(٢) الديوان ج١ ص٢٨٥ البرقوقي من قصيدة يمدح فيها أبا القاسم طاهر بن الحسين العلوي، وانظر العكبري ج١ ص١٥٨.

(٣) هو الرماح بن أبرد والبيت في الإيضاح ج ٢ ص ٥٧٤.

(٤) شرح القصائد العشر الطوال ٢٦.

وقول طرفة: وتجلد.

وثانيهما: ما ينفرد فيه المعنى.

قال الثعالبي: اتفق أن قلت:

إذا زنت عيني بها فبالدُّمُوع تغتسل

وظننت أني لم أسبق حتى سمعت قول أبي الفرح بن هندو(١):

يقولون لي ما بال عينك مذ رأت محاسن هذا الريم أدمعها هُطْـلُ

فقلت زنت عيني بطلعة وجههـا فكان لها من صوب أدْمُعِها غُسْلُ

فصحّ عندي توارد الخواطر.

وقال الإمام النورشتي -رحمه الله: كان قد استبهم عليَّ برهة وجه قوله صلوات الله عليه: بنت لبون أنثى، حتى ألهمني الله -تعالى- وذلك أن البنت في قولهم بنت الفكرة، وبنت لبون، والابن في قولهم ابن عرس وابن آوى على المجاز، ولذلك لا يقال ابنتا لبون وابنا آوى، ثم وجدت في بعض الكتب لعلماء المغرب قد سبقني به.

تذييل:

قال ابن الرشيق عرض على شيخي يعلى الأريسي وكان متفننا قبل ملازمتي إياه رقعة فيها من شعره:

أتاه شمس حواها جسم لؤلؤة تعيب من لطف فيها ولم تغب

صفراء مثل نضار السَّبك لابسة درعًا مكللةً دُرًا من الحبب

لم يترك الدَّهر فيها غير رائحة تَضَوعَّت، وسنا ينساحُ كاللهب

إذا النَّديم تلقاهـا ليشربهـا صاغت له الراح أطرافا من الذهب

قلت الأول متنافر متحول ناقص الصنعة، فإن اللؤلؤة مع الياقوتة أنسب، كما قال أبو تمام(٢):

أو دُرَّةٌ بيضاء بكر أطبقت حبلا على ياقوتة حمراء

---

(١) الحسين بن محمد بن هندو من أصحاب الصاحب. انظر يتيمة الدهر ج ٣ ص ٣٩٥.

(٢) الديوان ج ١ ص ٣٢ تحقيق عزام.

وفي ذكر البكر مع الياقوتة معنى بكر، ولو قلت أتاه شمس حواها النهار، كقول ابن المعتز:

وراح من الشمس مخلوقة بدت لك في قدح من نهار

لذهبت إلى شيء عجيب، وأما قولك: تغيب من لطف فيها ولم تغب فمن قول البحتري[1]:

يخفي الزجاجة لونها فكأنها في الكف قائمة بغير إناء

والبيت الثالث من قول ابن المعتز:

أبقى الجديدان من موجودها عدما لونا ورائحة من غير تجسيم

والبيت الرابع من قول مسلم بن الوليد[2]:

أغارت على كَفِّ المدُير للونها فصاغت له منها أنامل من زند

وفيه عيب التوكُّؤ وهو ذكرك الراح وأنت مستغن عنه فهلاّ تقول:

صاغت ليمناه أطرافا من الذهب

ثم أنشدته لنفسي:

مُعَتَّقةٌ يعلو الحباب جنوبها فتحسبه فيها نثير جُمَانِ

رأت من لجين راحة لمديرها فجادت له من عسجد ببنان

فتعجب واستقر به وأدناني وصحبني معه.

خاتمة:

في حسن ملاءمة الكلام

ينبغي للمتكلم أن يتأنق فيما يورده من كلامه في أربعة مواضع حتى يكون جيد السبك عذب اللفظ بديع المعنى:

أولها: المطلع وفي حسنه شرطان:

أحدهما: أن يضمن معنى ما سبق الكلام لأجله ليكون الابتداء دالا على الانتهاء

---

(١) الديوان ج ١ ص ٧.

(٢) غير موجود بالديوان.

ويسمى براعة الاستهلال.

وإذا تأملت فواتح السور كالتحميدات والنداء، سيما حروف التهجي، وجدتها من البلاغة بمكان؛ فإنها توقظ السامعين للإصغاء إلى ما يرد بعدها؛ لأنهم إذا سمعوها من مثله -صلوات الله عليه- علموا أنها والمتلو بعدها من جهة الوحي أو أن يتنبهوا على أن المتلو عليهم وقد عجزوا عنه من جنس ما ينظمون منه كلامهم، ومن البراعة الحسنة في النسيب قول امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنــزل ....

فإنه وقف واستوقف وبكى واستبكى، وذكر الحبيب والمنــزل في نصف بيت مع عذوبة اللفظ، وقال ابن المعتز قول النابغة[1]:

كِلِيني لِهَمٍّ يا أميمة ناصب ... وليل أُقَاسيه بطيء الكواكب

مقدم عليه؛ لأنه وإن بالغ في المشطور الأول لكن قصر في الثاني حيث أتى بمعان قليلة في ألفاظ كثيرة غريبة، فالنابغة راعى التناسب.

وقال الآخر:

زَمُّوا الجِمَال فَقُلْ للعاذل الجاني ... لا عاصم اليوم من مدرار أجفاني

وقول أبي العلاء[2]:

معانٌ من أحبتنا معانُ ... تجيب الصاهلات به القيانُ

وفي المديح قول أبزون العمَّاني:

على منبر العلياء جدك يخطب ... وللبلدة العذراء سَيْفُك يخطب

وفي التهنئة بمولود قول أبي محمد الخازن[3]:

بشرى فقد أنجز الإقبال ما وعدا ... وكوكب المجد في أفق العلا صعدا

وفي التحريض على الفتح قول أبي تمام [1] في المعتصم وفتحه عمورية، حيث شاع

---

(١) الديوان ص ٤.

(٢) سقط الزند ص٦٤.

(٣) أبو محمد عبد الله بن أحمد الخازن. من الذين اختصهم الصاحب بن عباد بصحبته وكان يتولى خزانة كتبه، له ترجمة في يتيمة الدهر، ولم يرد هذا البيت فيها، انظر ج٣ ص٣٢١.

من أهل النجامة أنها لا تفتح.

السيف أصدق أنباء من الكتب   في حَدِّه الحدُّ بين الجدِّ واللَّعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في   متوهنَّ جلاء الشَّك والرِّيب
والعلم في شهب الأرماح لامعة   بين الخميسين لا في السبعة الشُّهُب
تَـخرُّصـا وأحاديثا مُـلَفَّقـة   ليست بنبع إذا عُدَّت ولا غـرب

وقوله فيه عند ظفره ببابك الخرمي(٢):

الحقُّ أبلج والسُّيوف عواري   فحذار من أسد العرين حذار

وفي تهنئة البناء قول الأشجع(٣):

قصر عليه تحية وسلام   خلعت عليه جمالها الأيام

وفي الحكمة قول المتنبي(٤):

الرأيُ قبل شجاعة الشُّجعان   هـو أولٌ وهي المحلُّ الثَّاني
فإذا هـما اجتمعا لنفس حُرَّة   بلغت من العلياء كل مكان

وفي المرثية قول أبي الفرج في فخر الدولة(٥):

هي الدُّنيا تقول بملء فيها   حذار حذار من بطشي وفتكي
ولا يغرركم حسن ابتسـامـي   فقولي مضحك والفعل مبكي

والشرط الثاني: أن يجنب في المديح مما يتطير به. ولما أنشد ذو الرمة هشامًا وافتتح:

ما بال عينك منها الماء ينسكب   ....

قال: بل عينيك..

وأبو مقاتل الضرير الداعي العلوي

=

(١) الديوان ج١ ص ٤٠.
(٢) القصيدة يمدح فيها المعتصم ويذكر أمر الأفشين. الديوان ج٢ ص١٩٨ وما بعدها.
(٣) الأشجع السلمي، انظر الإيضاح ج٢ ص٥٩٤.
(٤) الديوان ج٤ ص٣٠٧ شرح البرقوقي وهي مدح سيف الدولة عند منصرمه من بلدة الروم سنة ٣٤٥هـ. وانظر ج ٤ ص ١٧٤ بشرح العكبري.
(٥) أبو الفرج الساوي، اليتيمة ج٣ ص ٣٩٦، ٣٩٧ والإيضاح ج ٢ ص ٥٩٥.

موعد أحبابك الفرقة ....

قال: بل أحبابك، ولك المثل السوء.

والموصلي إلى المعتصم حين بنى قصره وجلس فيه(١):

يا دار غَيَّركِ البلىَ ومَحَاكِ   يا لَيْتَ شعري ما الذي أبْلاَكِ

فتطير وقام وانصرفوا و لم يعودوا إليه حتى خربت.

ولكون التفاؤل مندوبًا كان ﷺ يتفاءل.

ولما بلغ ابن المعتز قراءة سورة (النازعات) قال مؤدبه: إن سألك أمير المؤمنين في أي سورة أنت قل له: أنا في السورة التي تلي عم.

فقال من علمك قال: مؤدبي، فأمر له بجائزة.

وسأل الرشيد سعيد بن سلم: أنت من؟ قال: أنا سعيد أسعدك الله، قال: ابن من؟ قال: ابن سلمة سلمك الله، قال أبو من؟ قال أبو عمرو عمرك الله، قال: وبارك الله فيك، وأكرمه.

ولأمر ما تصدر أولى الزهراوين بقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[سورة البقرة، آية:٢] بدل هدى للضالين الصائرين إلى الهدى بعد الضلال.

وثانيهما المخلص: وحسنه أن يخرج من معنى إلى معنى برابطة مناسبة.

قال ابن بابك(٢):

لقد نشر النَّيرُوزُ وشيا على الرُّبَى   من النَّور لم يظفر به كَفٌّ راقم

كأن ابن عباد سقى المزن نشـره   فجاد برشَّاش من الوبل ساجم

وقال أبو الطيب وقد تخلص أولا إلى قوم الممدوح ثم إليه(٣):

ومقانـب بمقانـب غادرهـا   أقـوات وحش كُنَّ من أقواهـا

أقبلـتهـا غُـرر الجـياد كأنما   أيـدي بني عمران في جبهاها

سقيت مناقبها التي سقت الوَرى   بيدي أبي أيوب خير بناهـا

---

(١) كتاب الصناعتين ٤٥٢.

(٢) انظر اليتيمة ج٣ ص٣٧٧ وما بعدها.

(٣) الديوان ج ١ ص٢٢٥- ٢٣٦ من قصيدة يمدح فيها أبا أيوب أحمد بن عمران، انظر شرح الديوان، العكبري.

ومن التخلصات الفائقة التي تسكر العقول وتحير الأوهام ما في الأعراف من ذكر الأنبياء والقرون الماضية والأمم السالفة ثم ذكر موسى -عليه السلام- وحكاية دعائه لنفسه ولأمته بقوله: «**واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة**» وجوابه -تعالى- عنه ثم يوصيه -تعالى- بمناقب سيدنا إمام المتقين وقائد الغر المحجلين بعد تخلصه لأمته بقوله تعالى: ﴿**قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ**﴾ [سورة الأعراف، آية: ١٥٦] من حالهم وصفتهم كيت وكيت وهم الذين يتبعون الرسول النبي الأمي وأخذ في وصف مكارمه وعد فضائله فتدبروا.

واحذه حذو المتنبي فإنه قد أربى عليه لأشعاره بالأسلوب الحكيم والإطناب بوصف الأمة فإنه مطلوب هنا مع رعاية حسن النظم، وعدّ جار الله قوله تعالى: ﴿**لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ**﴾ إلى قوله: ﴿**كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ**﴾ [سورة القيامة، آية: ١٦] من التخلص وقال اتصال لا تحرك بذكر القيامة من جهة هذا التخلص منه إلى التوبيخ بحب العاجلة وتحريره أنه -تعالى- لما ساق حديث القيامة وكان حديثا متضمنا لاهتمام منكري البعث بعاجل الأمر دون الآجل منه عنَّ لجنابه المقدس حديث آخر لنبيهﷺ يناسبه وهو عادته من العجلة وأراد أن يردعه بقوله: كلا بل تحبون العاجلة على وجه لا يوحشه تأديبا له خاصة، ولأمته عامة، وتحقيقًا لقولها -رضي الله عنها- وكان خلقه القرآن، وسط [1] بين الكلامين حديث مجلته عند نـــزول القرآن ليكون كالتمهيد لهذا الردع الفظيع والإنكار الهائل.

ومن الباب الاقتضاب:

وهو الخروج إلى كلام لا علاقة بينه وبين ما خرج منه، وهذا مذهب العرب، والبحتري كثيرا يسلك هذا المسلك، قال:

أقول لركب معتفين تَدَرَّعُوا ... على عجل قطعا من الليل غيهبا

رِدُوا نائل الفتح بن خاقان إنه ... أعَمَّ فدى فيكم وأقرب مطلبـــا

وإنما يحسن الاقتضاب إذا فصل بمثل أما بعد كقولهم بعد حمد الله وصلاة نبيه أما بعد، ويسمى فصل الخطاب، أي بين المبدأ والمنتهى.

---

(١) من قصيدة في مدح الفتح بن خاقان، ويذكر منازلته الأسد، الديوان ج ١ ص ١٩٦: الصيرفي.

ومن الفصل الذي هو أحسن من الوصل لفظة «هذا» في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [سورة ص، آية: ٤٥] الآيات، فإنه تعالى كلما أراد أن يعقب ذكر الأنبياء بابا من الكلام كررها، وفي أبيات السقط[1]:

فوارس حرب يصبح المسك مازجا ... به الركض نقعا في أنوفهم الشُّمِّ

فهذا، وإن كان الشريف أبوهــم ... أمير المعاني فارس النثر والنَّظــم

ثالثها: المطلب: وحسنه أن يخرج إلى الغرض بعد تقدم الوسيلة، نحو قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ومما اجتمع فيه حسن المخلص والمطلب قوله –تعالى- حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[سورة الشعراء، آية: ٧٧-٨٣].

ومنه ما يروى أن أبا نواس سئل في المنام ما فعل الله بك قال غفر لي بأبيات تحت وسادتي، فوجد هناك بطاقة فيها:

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم[2]

إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فبمن يلوذ ويستجير المجرم

أدعوك رب كما أمرت تضرُّعا ... فإن رددت يدي فمن ذا يرحم

مــالــي إليك وسيلة إلا الرَّجا ... وجــميل عفوك ثم أنيِّ مسلــم

وقول الآخر[3]:

لسان الحال أفصح من لساني ... وصَمْتي عن كلامي تُرْجماني

وأنت لمن رماه الدهر عــون ... فكن عوني على محن الزمان

(١) من قصيدة يرثي بها إبراهيم العلوي ويخاطب صديقا، له سقط الزند ص ٢٢.

(٢) الديوان ٦١٨ت أحمد عبد المجيد الغزالي.

(٣) قائلها أبو المعلى ماجد بن الصلت، اليتيمة ج ٤ ص ٤١٣.

وقول الآخر(١):

أهزك لا أني عرفتك ناسيا لأمري ولا أني أردت التقاضيا
ولكن رأيت السيف من بعد سلّه إلى الهزِّ محتاجًا وإن كان ماضيا

وقول أمية بن أبي الصلت(٢):

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوما كفاه من تعرّضه الثّناء

ورابعها: المقطع وحسنه أن يختم الكلام بما يعي السامع، والنفس تشويقا، قال أبو الطيب(٣):

قد شرَّف الله أرضا أنت ساكنها وشرَّف الناس إذْ سوَّاك إنسانا

وأحسن المقاطع ما آذن بانتهاء الكلام، قال الغزي:

بقيت بَقاءَ الدَّهْر يا كهف أهله وهذا دعاء للبرية شامل

وقال أبو الطيب(٤):

فلا حَطَّتْ لك الهيجاء سَرْجاً ولا ذاقت لك الدنيا فِراقا

وجميع خواتيم السور في نهاية من الكمال؛ لأنها تبين أدعية ووصايا ومواعظ وتحميد ووعد وتعظيم وتبجيل.

تم القسم الأول بحمد الله تعالى.

---

(١) جاءت بديوان المعاني دون عزو وببعض خلاف والبيت الأول:

هززتك لا أني ظننتك ناسيا لوعد ولا أني أردت التقاضيا

ديوان المعاني ج١ ص٢٢١.

(٢) محاضرات الأدباء ٢: ٥٤٨.

(٣) الديوان ج ٤ ص ٣٦١ البرقوقي من قصيدة يمدح بها أبا سهيل سعيد بن عبد الله بن الحسن الأنطاكي.

(٤) خاتمة قصيدة يمدح بها سيف الدولة، وكان قد أمر له بفرس وجارية ومطلعها:

أيدري الربع أيّ دم أراقا وأي قلوب هذا الركب شاقا

الديوان ج ٢ ص ٢٩٤ وما بعدها بشرح أبي البقاء العكبري.

الفَن الثَّاني

الفصَاحة

اعلم أن للناس في معنى الفصاحة أقوالاً، و لم أجد من ذلك ما يعول عليه سوى ما أودعه الإمام صاحب المثل السائر في كتابه[١]، وقد بسط فيه إلى أن بلغ شطر الكتاب، وأنا أورد خلاصة ذلك مع زيادات مفيدة وحسن تأليف قال الفاضل[٢] والذي استفدته من معرفة الذوق أكثر مما استفدته من ذوق المعرفة.

والذي عندي أن الفصاحة في اللغة للظهور والبيان، يقال أفصح الصبح إذا ظهر، قال تعالى، حكاية عن موسى -عليه السلام: ﴿**وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا**﴾ [سورة القصص، آية: ٣٤] أي: أبين قولاً، وعن اللعين [٣] فيه عليه السلام: ﴿**أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ**﴾ [سورة الزخرف، آية: ٥٢] للكنة لسانه.

وفي الصناعة هي كون اللفظ بَيِّناً حسنا في حالتي إفراده وتركيبه، ويقال أيضًا: هي صفة راسخة يقتدر بها المتكلم على التعبير عن المقصود بلفظ بيِّنٍ حسن في حالتي الإفراد والتركيب.

نعني بقولنا: «صفة راسخة»: ثبوتها في المتكلم، و«بيقتدر» شمول حالتي النطق وعدمه، و«ببينّ»: اللفظ الذي على الألسنة أدور، وبحسن في "حالة الإفراد" عذوبة اللفظ وسلاسته، "وفي حالة التركيب" ملاءمة التأليف وتمكين الوصف.

وقيل في التنـــزيل ما لم يتضح، وأجيب بأن الغموض من جهة التركيب لا ينافي البيان، كما في قوله عليه الصلاة والسلام[٤]: «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله**» فإن المفردات معلومة لكن المعنى، من حيث إن الشرط والجزاء، شيء واحد، مفتقر إلى التأويل، فيقال هي الهجرة الكاملة المعروفة التي تستأهل أن تسمى هجرة وأن غيرها ليست بهجرة، وقول البحتري:

---

(١) ضياء الدين بن الأثير.

(٢) ابن الأثير، انظر المثل السائر ج ٢، ص ٤.

(٣) اللعين هو فرعون موسى.

(٤) انظر ص ٣٥٠.

إذا سار سهبا عاد ظُهْرًا عَدُوَّهُ   وكان الصَّدِيق بُكْرةً ذلك السَّهْبُ[1]

فإن الألفاظ مفهومة والغموض من جانب التركيب، وذلك أن هذا المنهزم يطلب النجاء يحب ما بين يديه ويكره ما وراءه فإذا خلف سهبا وراءه صار عنده كالعدو فيؤثر بعده، وقبل الوصول إليه كان صديقًا يحب قربه.

وإن البلاغة هي الوصول والانتهاء، يقال: بلغت المكان إذا انتهيت إليه ومبلغ الشيء منتهاه، وفي الصناعة: بلوغ المتكلم في تأدية المقصود الغاية من رعاية حسن اللفظ، وتوفية المعنى بحسب اقتضاء المقام، فالفصيح يبحث عن معرفة الألفاظ المفردة، ثم عن معرفة كل لفظة مع صاحبتها، والبليغ يبحث عنهما وعن تطبيق الكلام لما يقتضي المقام، فإذًا الفصاحة تختص باللفظ، والبلاغة تعم اللفظ والمعنى، ويقال للفظ المفرد فصيح لا بليغ، فعلى هذا كل بليغ فصيح ولا ينعكس، وقد ضرب الفاضل مثلا، وذلك أن الكلام كالإنسان والفصاحة في التركيب كالحسن في الجسم وفي المفردات كالحسن في كل عضو.

والبلاغة كالروح فيه، فإذا حسنت الأعضاء وتناسبت التراكيب وكملت الروح بلغ الغاية في الجمال وفيه بابان.

---

(١) الديوان ج١ ص١٢٦- ت. الصيرفي.

الباب الأوّل

في أوصاف اللفظة المفردة

وهي ستة:

الأولى: ما يكون تركيبها من الحروف اللذيذة العذبة؛ لأنها أصوات لها مخارج تشبه المزامير ولكل ثقبة منها صوت يخصها، نقل الإمام عن الخليل أن الزلاقة في النطق إنما هي بطرق أسلة اللسان، وهي مستدقة وحروفها «رتل»، والملحق بها الشفهية «فبم»، ولسهولتها كثرت في الأبنية، وشرط فيها عدا الثلاثي أن لا تنفك عن شيء منها، وقال الخليل: العين والقاف لا يدخلان في بناء إلا حسناه؛ لأنهما أطلق الحروف والعين أنسعها وألذّها سماعًا والقاف أمتنها وأصحها جرسًا.

وقال الفاضل يجب على المتكلم أن يجتنب من الحروف ما يضيق به مجال التقفية، نحو: ثخذ وسط، سيما نحو ضظغ فإن الواضع لم يضع عليها ألفاظ عذبة. وقال الشيخ: إن للحروف في أنفسها خواص مختلفة فالفصم لكسر الشيء من غير أن يبين، والقصم لكسره حتى يبين، ولهذا قيل في قول أبي العلاء يصف غديرًا:

أَجَدَّ به غواني الجنِّ لِعْباً ... فأعْجَلَها الصباح وفيه جان[1]

قصيم نصفه في الماء بادٍ ... ونصفٌ في السَّماء به تُزانُ

إن القصيم بالقاف أولى؛ إذ المراد أن الجان- وهو السوار- شق نصفين: نصف يلوح في الماء، ونصف تزان به السماء.

وكذا الثلم للخلل في الجدر والثلب في العرض، والزفير والزئير لصوتي الحمار والأسد.

ويجتنب أيضًا في التأليف عما قربت مخارجها سيما حروف الحلق فإنها متناهية في الثقل، سئل أعرابي عن ناقته، فقال: تركتها ترعى الهعخع.

وقال أبو تمام:

كريم متى أمدحه أمدحه والورى ... معي وإذا ما لمته لمته وحدي[2]

---

(١) سقط الزند ص ٦٨.

(٢) الديوان ج ٢ ص ١١٦.

وقال امرؤ القيس[1]:

غدائره مستشزرات إلى العلا تضلُّ المداري في مُثَنًّى ومُرْسَلِ

فإن في توسيط الشين وهو من المهموسة الرخوة بين التاء وإنها من المهموسة الشديدة وبين الزاء وإنها من حروف الصفير المجهورة من التنافر ما لا يخفى، فلو قيل مستشرفات لزال الثقل.

قال ابن سنان: اللفظ الفصيح هو الذي تباعدت فيه المخارج وعورض ببعض حروف الشجرية وهي شبح فإن مخارجها بين وسط اللسان والحنك، فإذا تركب منها شيء مثل: جيش وشجر لم يثقل، ثم نوقض بمثل ملع فإنها متباعدة المخارج مع أنه غير فصيح، ولو عكس وقيل علم صارت حسنة، قيل ذلك؛ لأن الصعود من الحلق إلى الشفة أيسر من الحدور منها إليه، ورُدَّ بنحو: بلغ وغلب.

الثانية: أن يجتنب في التركيب عن الزائد على الحركتين المتواليتين، وعن الحركة الثقيلة على بعض الحروف، كالضمة على جُزع سيما إذا ضم معه ضم الزاي ولو فتح أو فتحا أو كسر حسن.

قال الشيخ: إن للحركات أيضا خواص ومن ثمة قيل في نحو: حيدى والنـــزوان اضطراب، وفي نحو شرف وكرم؛ لأنها أفعال الطبائع.

وقد اشترط بعضهم أن يحترز عن أسباب خفيفة متوالية؛ فإنها مما ينقص من سلاسة الكلمة وجريانها كقولهم: القتل أنفى للقتل: فإنه ليس فيه كلمة تجمع حرفين متحركين معًا إلا في موضع.

والثالثة: أن تكون متوسطة بين قلة الحروف وكثرتها، قال الإمام: اللفظ المركب من ثلاثة أحرف، هي المتوسطة لاشتمالها على المبدأ والمنتهى والوسط، وسبب حسنه أن الصوت تابع للحركة، والحركة لا بد لها من هذه الأمور، والثنائيات قاصرة والرباعيات مفرطة، لهذا عيب أبو الطيب:

إن الكرام بلا كرام مِنهُمُ مثل القلوب بلا سُوَيْدَاوَاتِها[2]

---

(١) شرح القصائد العشر الطوال، والديوان ١٧ بتحقيق أبي الفضل إبراهيم.

(٢) الديوان ص ٣٥٢من قصيدة يمدح فيها أبا أيوب أحمد بن عمران.

وليس منه إذا أريد بزيادة الحروف زيادة المعنى.

قال الفاضل(١): اللفظ إذا نقل من وزن إلى وزن آخر أكثر منه تضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً؛ لأن إبانة الألفاظ لإبانة المعاني كما في أن اخشوشن زيادة ليس في خشن، ومن ثم عدل من قدر إلى اقتدر في قوله تعالى: ﴿**فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ**﴾ [سورة القمر، آية: ٤٢] لدلالة الأمر على التفخيم وشدة الأخذ، أو على بسطة القدرة وعليه قول أبي نواس:

فعفوت عنيِّ عفو مقتدر ... حلَّت له نقم فألفاها(٢)

أي: عفو قادر متمكن القدرة لا يردّه شيء عن إمضاء قدرته، وقوله تعالى: ﴿**فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ**﴾ [سورة الشعراء، آية: ٩٤] كرر الكب دلالة على الشدة.

قال صاحب الكشاف: الزيادة في البناء تدل على الزيادة في المعنى، ومن ثم دلّ الرحمن على جلائل النعم والرحيم على دقائقها، وأورد لفظ التصغير، وأجيب عنه أن التعظيم في نحو قول لبيد:

وكل أناس سوف يدخل بيتهم ... دُوَيْهِيَةٌ تَصفَرُّ منها الأناملُ(٣)

والحنو في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم -عليه السلام-: ﴿**يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ**﴾ [سورة الصافات، آية: ٣٧] والتحقير في قوله ﷺ : «**يا أبا عمير ما فعل النغير**».

وقول أبي الطيب:

وكان ابنا عدوٍّ كاثراه ... له ياءي حروف أنيسيان(٤)

معناه زيادة أولاد عدوك كزيادة ياءي التصغير في أنهما زيادة نقص تحطُّ قدره وتسقط وضعه، كذلك عدو هذا الممدوح له ابنان تكاثر بهما وهما يكثران عدوه وينقصان من قدره ويضعان منه لسقوطهما في أنهما إذا طرحتا لا تغيران الكلمة بل يزول التصغير

---

(١) هو ابن الأثير، المثل السائر ١: ٣٨٠.

(٢) الديوان: ٦٨٤ دار صادر بيروت.

(٣) الديوان ص ٢٥٦ بتحقيق د. إحسان عباس.

(٤) الديوان ج ٤ ص ٢٦١ قصيدته في شعب بوان.

بسبب حذفهما لا أن التصغير لا يزيد في المعنى وقال الفاضل: وههنا نكتة وهي أن المعنى إنما يزيد إذا كان هناك نقل كما في قتل وقتّل، وأما إذا لم يكن نقلا، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [سورة النساء، آية: ١٦٤] لم يزد، إذ ليس في كلَّمَ نقل فدلَّ على حصول الكلام معه لا التكثير فيه.

والرابعة: أن لا تكون وحشية غير مألوفة؛ لأنها تخالف الظهور والبيان، وروي عن عيسى النحوي أنه سقط عن دابته فاجتمع عليه الناس فقال:

ما لكم تكأكأتم عليّ كما تكأكأتم على ذي جنة افرنقعوا عني، أي: اجتمعتم تنحّوا.

وإن شئت فجرب قولك في لفظة المدامة والسيف والأسد لفظة الاسفنط والخنشليل والفدوكس.

والخامسة: أن لا تكون مبتذلة، والابتذال نوعان:

أحدهما: ما غيرته العامة من أصل الوضع، كلفظ الصرم للقطع جعلته للمحل المخصوص بإبدال الصاد سينا، ومن ثم قبح قول أبي الطيب:

وَرِقَّةُ وجه لو ختمت بنظرة ... على وجنتيه ما انمحى أثر الخَتْمِ[1]

أذاق الغواني حسنه ما أذقنني ... وَعفَّ فجازاهن عنيّ على الصُّرْمِ

ولو استعملت بنحو صرم يصرم أو استعمله البدوي كأبي صخر الهذلي:

قد كان صَرْمٌ في المَمات لنا ... فعَجِلْتَ قَبْلَ المَوْت بالصَّرْمِ[2]

لم يستقبح.

وثانيهما: ما تكون سخيفة في أصل الوضع كاللقالق في شعر أبي الطيب:

وملمومــةٍ سيفيَّةٍ رَبَعيَّةٍ ... تصيح الحصا فيها صياحَ اللَّقالِقِ

ولفظ الآجر في قول النابغة:

أَدْمَيْة في مرمر مرفوعةٍ ... بُنيت بآجُرٍّ يُشادُ بقَرْمَدِ

وهذا عدل منه في التنــزيل إلى قوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ [سورة القصص، آية: ٣٨] ومن القرمد للغرابة.

---

(١) الديوان ج ٤ ص ١٧٤ البرقوقي من قصيدة يمدح بها الحسين بن إسحاق التنوخي.

(٢) شرح أشعار الهذليين للسكري تحقيق عبد الستار فراج ص ٩٧٣.

السادسة: أن لا تكون مشتركة بين معنيين أحدهما مكروه وجيء بها مطلقة كما لو قيل: لقيت فلانا فعزرته لاحتمالها أنك ضربته أو أكرمته، فلو قيد كما في قوله: ﴿**فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ**﴾ [سورة الأعراف، آية: ١٥٧] وقوله صلوات الله عليه: «**لا يلدغ المؤمن من جُحْرٍ مرتين**»[1] لزالت الكراهية.

وممن أطلق أبو تمام حيث قال:

أعطيتني دية القتيل وليس لي ... عَقْلٌ ولا حَقٌّ عليك قَدِيمُ[2]

فلو قيل: وليس عليك عقل لزال اللبس.

تتميم:

واعلم أن من الألفاظ ما لو غُيِّرَ انقلب قبحه حسنا فإن لفظة ودع جاءت بشعة في قول أبي العتاهية:

أثروا فلم يُدْخِلوا قبورهَمْ ... شيئا من الثَّروة التي جمعـوا

وكان ما قدَّموا لأنفسهم ... أعظم نفعاً من الذي وَدَعُوا

حيث استعملها ماضيا ثم انقلبت حسنة في قول أبي الطيب:

تشقُّكُمْ بقناهـا كُلُّ سَلْهَبـةٍ ... والضَّرب يأخُذُ مِنكُم فوْق[3] ما يَدَعُ

حيث جاءت مضارعا، وأحسن منه استعمال التنـزيل ﴿**وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ**﴾[4] على صيغة الأمر، وفي ألفاظه النبوية ﷺ: «**دعوا الحبشة ما ودعوكم، واتركوا الترك ما تركوكم**» لما في كل من الفقرتين من رد العجز على الصدر مما جبر منه، وقولهم يحتمل أن قال صلوات الله عليه: ما ودعوكم لا افتقار إليه، وأن اللب لا تجيء حسنة إلا مجموعة أو مضافة أو مضافًا إليها، قال تعالى: ﴿**لِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ**﴾ وقال صلوات الله عليه: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن**».

---

(١) البخاري في كتاب الأدب ٨٣، ومسلم في الزهد ٦٣.

(٢) الديوان ج ٣ ص ٢٩٢.

(٣) الديوان ص ٢٦٨.

(٤) الديوان ج٢ ص ٣٤٠.

وقال جرير:

إن العيونَ التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا[١]

يَصْرَعْن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركانا

ولفظ الأرض حسنها أن تجيء مفردة، وفي التنــزيل حيث ذكرت السماء مجموعة ذكرت مفردة لما أريد الجمع قيل: ومن الأرض مثلهن.

---

(١) البخاري باب الحيض ٦، والزكاة ٤٤.

البَاب الثَاني

في أوصَاف التَراكيب

وهي خمسة:

الصفة الأولى: ما تكون مصبوبة في قالب الصفة البديعية مما يختص بحسن اللفظ وهي أنواع:

الأول الجناس: وهو تشابه الكلمتين في اللفظ وهو على أقسام:

أحدها التجنيس التام: وهو اتفاق اللفظتين في الحروف والهيئة والترتيب، وهو إما بين اسمين، كقوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ**﴾ [سورة الروم، آية: ٥٥] وقوله صلوات الله عليه: «**حتى نازعت الصحابة جريرًا دعوا جريرًا والجرير**» أي دعوا زمامه وقول علي ﷺ: صولة الباطل ساعة وجولة الحق إلى الساعة.

قال المطراني[(١)]:

تزهو علينا بقوس حاجِبِها	زَهْوَ تَميمٍ بِقَوْس حَاجِبِها[(٢)]

ومثله لجار الله:

وكُلّ وفاء كان في قوس حاجب	وأنت جمعت العُذْر في قوس حاجِبِ

وقال الآخر:

وكم من سيوف أُغْمِدت في جُفُونِها	إذا أُشْهِرَتْ أَسْيافُها من جُفُونِها

وقال الآخر:

حَدَقُ الآجال آجالُ	والهوى للمرء قَتَّالُ[(٣)]

أو بين فعل واسم قال:

سَمَّيته يحيى لِيَحْيى فلم يكن	إلى رَدٍّ أمر الله فيه سبيل[(٤)]

---

(١) أبو محمد المطراني: اليتيمة ٤: ١٢١.

(٢) هو حاجب بن زرارة التميمي.

(٣) البيت لأبي سعيد عيسى بن خالد المخزومي- الإيضاح ج ٢ ص ٥٣٦.

(٤) البيت لمحمد بن عبد الله بن كناسة الأسدي يرثي به ابنه وبعد هذا البيت:

=

وثانيها الناقص: وهو أن يختلفا في الهيئة دون الصورة، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ**﴾[سورة الصافات، الآيتان: ٧٢، ٧٣] وقال صلوات الله عليه: «**اللهم كما حسنت خَلْقِي فَحَسِّن خُلُقِي**»(١).

قال الشاعر:

قعدت تريد الرِّزق يأتيك وادعًا ... ولا الطَّرف مكدود ولا الطَّرف ساهـرُ

فهل يقطع السيف الطُّلا وهو مُغْمَدٌ ... وهل يصرعُ الليثُ الطَّلا وهو خادرُ

وقال الصاحب عميد الدين:

وطور ابن سينا زمانا قد قرفت به ... وما دَرَوْا أنيَّ ذو طَوْر سَيْناءَ

فـاضـت عـلـيَّ لُدَيْنَّيا زواخره ... من كوثر المصطفى طُوبيٍّ لألاء

وثالثها الزائد: وهو أن يزاد حرف في الأول، قال تعالى: ﴿**وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ* إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ**﴾ [سورة القيامة، الآيتان: ٢٩، ٣٠] أو في الثاني، كقولك: وجدي جهدي، أو في الثالث ويسمى مذيلا، قال أبو تمام:

يَمُدُّون مِنْ أَيْدٍ عَواصٍ عَواصِم ... تَصُولَ بأسيافٍ قَواضٍ قَواضِب(٢)

وقد يزاد أكثر من حرف، قال:

فيالك من حزم وعزم طواهما ... جديد البلى تحت الصَّفَا والصَّفَائح(٣)

ورابعها المضارع: وهو أن يختلفا بحرف واحد مع تقارب المخرج، إما في الأول فكقولك: ليل دامس وطريق طامس، أو في الوسط، فكقوله تعالى:

﴿**وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ**﴾ [سورة الأنعام، آية: ٢٦] وقولهم: البرايا أهداف البلايا، أو في الآخر فكقوله صلوات الله عليه: «**الخيل معقول في نواصيها الخير**»(٤).

=

تيممت فيه الفأل حين رزقته ... ولم أدر الفأل فيه يقيل

(١) رواه أحمد في المسند ج١: ٦، ٦٨، ١٥٥.

(٢) الديوان ج١ ص٢٠٦.

(٣) نهاية الأرب ج٧ ص٩٦.

(٤) رواه ابن ماجة في الجهاد ١٤.

وخامسها اللاحق: وهو أن يختلفا لا مع تقارب المخرج أما أولا فكقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ وقولهم: رُبَّ وَضِيٍّ غَيْرُ رَضِيٍّ، أو وسطا، فكقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [سورة العاديات، آية: ٧، ٨] أو آخرا كقولهم المكارم بالمكاره، والتواضع شرك الشرف.

وقال:

نظرت الكثيب الأيمن الفرد نظرة ... فردَّت إليَّ الطرَّفَ يدمى ويدمع

وسادسها المركب: وهو أن يتم تركيب كلمتين، وهو إما أن لا يختلفا خطا، كقول أبي الفتح البستي:

إذا ملك لم يكن ذاهبة ... فدعه فَدَوْلَتَهُ ذاهبة[1]

وقولهم: إن علت دولة الأوغاد فصنع الله رائح أو غادٍ، أو أن يختلفا فيه، قال أبو العلاء في الدرعيات:

مسامير مجد غير منهدم الذُّرَى ... مسامير درع غير طائشة العَزْم[2]

قوله: مير مجد مستعار من ميرة الطعام.

وقال الصاحب قوام الدين القمي[3]:

مات الكرام ومَروُّا وانقضوا ومضوا ... ومات في إثرهم تـــلك الكرامات

وخَلَّفونـــي في قـــوم ذوي سفه ... لو أبصروا طيف ضيف في الكرى ماتوا

وسابعها المزدوج: ويسمى مردودًا وهو أن يقع في أثناء القرائن لفظان متجانسان قال تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ من سَبَإٍ بِنَبَإٍ﴾ [سورة النمل، آية: ٢٢] فيه إدماج معنى تتميم المكافحة الذي يعطيه أحطت، وقال صلوات الله عليه: «**المؤمنون هيّنون ليّنون**»

وقال البحتري:

من كل ساجِي الطرف أغيَد أجْيِد ... ومُهَفْهَفِ الكشحين أحوى أحور[4]

---

(١) الإيضاح ج ١ ص ٥٣٧.

(٢) سقط الزند ص ٣٢٨.

(٣) أنوار الربيع١: ١٠٥.

(٤) الديوان ج٢ ص ٤١١ من قصيدة يمدح فيها المتوكل.

وقال الآخر يرثي الصاحب:

مضى الصاحب الكافي ولم يبق بعده كريم يُرَوِّيِّ الأرض فيض غمامه

فقدناه لما تَمَّ واعتم بالعُلا كذاك خسوف البدر عند تمامه

وثامنها الخطي: وهو أن يؤتى بكلمتين متشابهتين خطًا لا لفظا، قال تعالى: ﴿**وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾ [سورة الكهف، آية: ١٨] وقال عليه السلام: «**عليكم بالأبكار فإنهم أشد حبا وأقل خبًا**»[١] وقال علي ﷺ: قصر من ثيابك فإنه أتقى وأبقى وأنقى، وقال أبو علي الدقاق: معرفة رسمية كقطرة وسمية لا عليلا تشفي ولا غليلا تسقي، قوله رسمية ووسمية من اللاحق، وقيل لفاضل: استنصح ثقة تصحيفه، قال: أتيت بتصحيفه.

وتاسعها المشوش: وهو كل تجنيس يتجاذبه طرفان من الصفة، كقولهم:

فلان مليح البلاغة أنيق البراعة، ولو كانت عينا الكلمتين متحدتين لكان تجنيس تصحيف، أو لامهما لكان مضارعًا.

وعاشرها التجنيس بالإشارة: كقولهم: حلقت لحية موسى باسمه، وهارون إذا ما قلبا.

وحادي عشرها الاشتقاقي: وهو أن يؤتى بألفاظ تجمعها حروفها الأصلية، في معنى وهو ضربان:

أحدهما: أن يجمعها ترتيب، وذلك بأن يؤتى بفرعين فصاعدًا فترد إلى الأصل بوساطة ترتيب حروفها الأصلية كما إذا قلت: سلم يسلم وهو سالم مسلم إلى غير ذلك فإنها تجمعها في معنى السلامة، وهو المسمى الاشتقاقي الصغير، مثاله من التجنيس قوله تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ**﴾[سورة الروم، آية: ٣٠] وقال صلوات الله عليه[٢]: «**الظلم ظلمات يوم القيامة**» وسئل الشافعي -رحمه الله- عن النبيذ قال: أجمع أهل الحرمين على تحريمه، ودخل ثعلب على أحمد بن حنبل ومجلسه غاص بأهله فجلس إلى جانبه، وقال: أخاف أن أكون ضيقت، على أنه لا يضيق مجلس لمتحابين ولا تسع الدنيا

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب النكاح ج١ ص ٥٩٨.

(٢) رواه البخاري في المظالم ٨، والترمذي في البر ٨٣، ٣٥.

متباغضين، قال أحمد: الصديق لا يحاسب والعدو لا يحتسب له.

وثانيها: أن تجمعها من غير ترتيب وذلك بأن يؤخذ أصل ويعقد عليه وعلى تقاليبه معنى واحد وإن تباعد شيء ردّ بالتأول، كما إذا قلت: قرم، فإنه في تقاليبه الستة يدل على القوة والشدة، فالقرم: شدة شهوة اللحم، وتقمر الرجل إذا غلب من يقامره، والرقم الداهية، وعيش مرمق أي: ضيق، والمقر: شبه الصبر لشدته على الدابق[1]، ومرق السهم إذا نفذ من الرمية وهو المسمى بالاشتقاق الكبير، ومثاله من التجنيس قوله صلوات الله عليه: «**اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا**»[2] وقول أبي العيناء لصاعد: نحن في دولتك محرومون وفي عزلتك مرحومون.

ومن أراد أن يلحق بهذا الباب التجنيس المضارع لجامع قرب المخرج فيجعله من الاشتقاق الأكبر، وإن شاء أضاف اللاحق لجامع النوعية فله ذلك. وأما قوله صلوات الله عليه: «**أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها وعصية عصت الله**»[3] فليس من الاشتقاقي؛ لأن أسلم لم يسم من المسالمة، ولا غفار من المغفرة، ولا عصية تصغير عصا، فإنها أسماء قبائل مرتجلة بخلافه في نحو: هاشم فإنه سمي به لما هشم الثريد في عام محل.

وثاني عشرها القلبي: وهو أربعة أنواع:

أ-قلب الكل، كقولك كفه بحر، وخبابه رحب.

وقوله:

قد جاذبتها الريح تجذب عقربا ... من فوق خَدٍّ مثل قلب العَقْرَب[4]

وطفقت ألثم ثغرها فتمَّنعَت ... وتحجَّبت عني بقلب العقرب

وقول الآخر:

كيف السُّرُورُ بإقبال أواخره ... إذا تأمَّلْته مقلوب إقْبَالِ

وقول ابن سرايا في معن بن زائدة:

---

(١) الدابق: الذي يصيد الطائر بالدايوق وهو كل شيء لزج.

(٢) رواه ابن ماجه: باب الدعاء ١١، وأبو داود: باب الأدب ١٠١.

(٣) رواه الترمذي: باب المناقب ٧٣.

(٤) في الطراز غير منسوبين.

ما فاه معن بمنع في تلفظه وكيف يضمر لا من قلبه نعم

ب- قلب البعض، قال صلوات الله عليه: «**يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا**»(١).

وقولهم: الدنيا حية لَيِّنٌ مَشْيُها قاتل سمها، وقولهم: رحم الله امرءا أمسك ما بين فكيه وأطلق ما بين كفَّيه.

جـ- قلب المجنح: وهو أن يقع أحد المتجانسين جناس القلب في أول البيت والآخر في آخره، قال:

لاح أنوارُ النَّدى من كفه في كل حال

د-قلب المستوي: وهو كل كلام إذا قلب كان إياه، قال عماد الدين الكاتب للقاضي الأرجاني:

مودته تدوم لكل هول وهل كل مودَّتهُ تدوم(٢)

وفي التنـــزيل ﴿**وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ**﴾.

تكميل:

وههنا قلب لا بأس أن نذكره مستطردًا، وهو إما في التراكيب كقولهم: عرضت الناقة على الحوض، قال الشيخ هو شعبة من الإخراج لا على مقتضى الظاهر وهي مما يورث الكلام ملاحة، ولا يشجع عليه إلا كمال البلاغة، ورده بعضهم والحق أنه إذا تضمن لطيفة قبل، كما في قولهم عرضت الناقة على الحوض إذا أريد به معنى قول أبي العلاء:

إذا اشتاقت الخيل المناهل أعرضت عن الماء فاشتاقت إليها المناهل(٣)

وقول أبي تمام في القلم:

لعاب الأفاعي القاتلات لعابه وأرى الجنىَ اشتارته أيد عَوَاسِلُ(٤)

---

(١) الترمذي كتاب فضائل القرآن ج ٥ ص ١٧٧ حديث ٢٩١٤.

(٢) الإيضاح ج ٢ ص ٥٥٣.

(٣) سقط الزند ص ١٩٥.

(٤) الديوان ج ٣ ص ١٢٣.

أي: لعابه لعاب الأفعى فعكس التشبيه، وقول خداش:

وتلحق خيل لا هوادة بينها وتشقى الرِّماح بالضَّياطرة الحمر(١)

فإنه جعل شقاء الرماح استعارة عن كسرها بطعنهم بها، أو جعل نفس طعنهم بها شقاء لها تحقيرًا لشأنهم، كما يقال: شقي الخير بحسم فلان.

وإذا لم يتضمن، يرد قول القطامي:

كما طينت بالغدق السباعا(٢)

وقول مساور:

وَرأَيْن شيخًا قد تحنى صلبه يمشي فيقعس أو يُكِبُّ فيعثر(٣)

أما قوله تعالى: ﴿**وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا**﴾ [سورة الأعراف، آية: ٤] فأصلها أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا.

أو في المعاني: كقولهم قاتله الله ما أشجعه، وقال جميل:

رمى الله في عيني بثينة بالقذى وفي الُغّر من أنيابها بالَقوادح(٤)

أراد به ما أحسن عينيها وأنيابها، والسبب أنه لما تناهتا في الحسن بحيث:

جَلَّتْ عن الوصف حتى لا يطالبها وهم فتخلفها في الوصف أسماء

دعا عليها تنبيها به على العجز عن وصفها فأفاد التعجب، وقال صلوات الله عليه: «**عليك بذات الدين تربت يداك**»(٥) قال أبو عبيدة لم يتعمد به الدعاء بالفقر، وقال ابن الأنباري: لله درك إذا استعملت ما أمرتك.

النوع الثاني: العكس والتبديل، وهو أن يقدم في الكلام جزء ثم يؤخر وهو على وجوه:

أ - إما أن يقع بين طرفي جملة واحدة: عادات السادات سادات العادات، وهو

(١) البيان والتبيين ج ٤ ص ١٣٩.

(٢) شروح التلخيص ج١ ص ٤٨٨.

(٣) مساور بن هند بن قيس بن زهير مخضرم، الحماسة ٢: ١٨٦.

(٤) الديوان ص ٥٣ تحقيق حسين نصار.

(٥) سنن الترمذي كتاب النكاح الحديث رقم ١٠٨٦ص ٢٩٦ج ٣.

بمنــزلة العين من الإنسان والإنسان من العين.

ب- ما يقع بين متعلقي جملتين، قال تعالى: ﴿تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾[سورة آل عمران، آية: ٢٧] وقال الحماسي:

فردَّ شُعُورهن السّودَ بيضا ورَدَّ وجوههن البيض سودا(١)

وقال أبو هلال العسكري يصف الربيع:

لبس الماء والهواء صفاء واكتسى الروض بهجة وبهاء(٢)

وتخال السمـــاء بالليل أرضا وترى الأرض بالنهــار سماء

ج- ما يقع بين جملتين ومتعلقهما، قال الحسن: إنَ منْ خَوَّفَكَ حتى تلقى الأمن خير ممن أمنك حتى تلقى الخوف وأنشد أبو تمام:

فهنّ عوادي يوسف وصواحبه

فقيل له: لَمِ تقول ما لا يفهم؟

فقال: لم لا تفهم ما يقال؟

وقال الأضبط:

ويجمـــعُ المال غيرُ آكله ويأكل المال غيرُ من جَمَعَه(٣)

ويقطع الثوب غير لابسه ويلبس الثوب غير من قطعه

فلو روعي فيه المطابقة كان أحسن.

قال ابن نباتة:

ألا فاْخشَ ما يُرْجى وَجُدك هابط ولا تَخْشى ما يُخْشيِ وجدُّك رافع

فــلا مانع إلا مع النَّحس ضائــر ولا ضائر إلا مع السَّعد نافع(٤)

وقال المطوعي وقد راعى الائتلاف في البيت الأخير من قوله:

---

(١) العمدة ج٢ ص ٦ وبعده:

رمى الحدثان نسوة آل حرب بمقدار سمدن له سمودًا

(٢) من شعر أبي هلال العسكري- جمع وتحقيق الدكتور محسن فياض ص ٥٥، ٥٦ .

(٣) هو الأضبط بن قريع السعدي التميمي، زهر الآداب ص ٥٦٠.

(٤) اليتيمة ج٢ ص ٣٩٤.

ألست ترى أطباق ورد وحولها　　من النَّرْجَسِ الغض الطَّريِّ قُدُودُ[١]
فتلك خدودَ ما عليهن أعْيُـنٌ　　وهـذي عيـونٌ مـا لهنّ خدود

والنوع الثالث: رد العجز على الصدر، وهو في النثر أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بهما في أول الفقرة والآخر في آخرها، كقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [سورة الأحزاب، آية: ٣٧] وقولهم الحيلة ترك الحيلة، وقال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾ [سورة الشعراء، آية: ١٦٨] وفي الشعر أن يكون أحدهما في عجز البيت والآخر في صدر المصراع الأول أو في حشوه أو في عجزه أو في صدر الثاني:

أ - إما أن يتفقا صورة ومعنى، قال:

تمنّت سُلَيْمَى أن أموت صبابة　　وأهْونُ شيء عندنا ما تَمَنَّت[٢]

أو صورة، قال:

ذوائب سود كالعناقيد أُرْسِلت　　فمن أجْلِها منيّ النفُّوس ذوائب[٣]

أو معنى:

وَهَتْ عزماتك لما كبرت　　وما كان من شأها أن تَهِي[٤]

ب- إما أن يتفقا صورة ومعنى قال أبو تمام:

سقى الرمل جون مُستهلٌ رَبَابةٌ　　وما ذاك إلا حُبُّ من حَلّ بالرَّمْل[٥]

أو صورة، قال الغزي:

لم يبق غيرك إنسانا يلاذ به　　فلا برحت لعين الدهر إنسانًا[٦]

---

(١) المطوعي هو أبو حفص عمر بن علي اتصل بخدمة الأمير أبي الفضل الكيالي، اليتيمة ج٤ ص ٤٣٤.
(٢) في نهاية الأرب بدون عزو ٧: ١٠٩.
(٣) البيت لأبي الحسن نصر المرغياني- هامش الإيضاح ج٢ ص ٥٤٥.
(٤) البيت في أنوار الربيع بدون عزو ١: ١٢٠.
(٥) غير موجود بالديوان.
(٦) حسن التوسل إلى صناعة الترسل للحلبي ص ١٨٤-وهو أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى بن عثمان ابن محمد الكلبي الأشهبي ولد بغزة سنة ٤٤١ وتوفي سنة ٥٢٤ ودفن ببلخ ترجمته في وفيات =

أو معنى، قال أبو فراس:

وما أن شبت من كبر، ولكن لَقِيتُ من الأَحِبَّة ما أشابا[(١)]

ج- إما أن يتفقا صورة ومعنى، قال أبو تمام:

ومن كان بالبيض الكواعب مغرما فما زلت بالبيض القواضب مغرما

أو صورة، قال الحريري:

فمشغوف بآيات المثاني ومفتون بِرَبَّات المثَاني

أو معنى قال:

فَدَعِ الوعيد فما وعيدُك ضائري أطنين أجنحة الذباب يضير

د-إما أن يتفقا صورة ومعنى، قال الحماسي:

لعمري لقد كان الثُّريَّا مكانه ثراه فأضحى اليوم مثواه في الثَّرى

أو صورة، قال القاضي الأرجاني:

أمَّلْتُهم ثم تأمَّلْتُهم فَلاح لي أن ليس فيهم فَلاَحْ[(٢)]

أو معنى، قال أبو تمام:

وقد كانت البيض المآثير في الوغى بواتر وهي الآن من بعده بُتْرُ[(٣)]

والنوع الرابع التصريع: وهو في البيت بمنزلة السجع في النثر، مأخوذ من مصراع البيت، قال الفاضل: إن التصريع والترصيع والتجنيس والترديد إنما يحسن قليله دون كثيره لما فيه من إمارات الكلفة، وهو على ثماني مراتب:

أ - الكامل: وهو أن يكون المصراع مستقلا في فهم المعنى، قال أبو الطيب:

إذا كان مدح فالنسيِّبُ المقُدَّمُ أكلُّ فصيح قال شعرًا مُتيَّم[(٤)]

=

الأعيان ١: ٤١-٤٥.

(١) الديوان ص٥٠.

(٢) الإيضاح ج ٢ ص ٥٤٦.

(٣) الديوان ج٤ ص ٨٣ التبريزي.

(٤) الديوان ج ٤ص ٦٩.

ب- أن يكون مستقلا، ولكن له رابطة بالثاني قال أبو تمام:

ألم يأن أن تُرْوى الظِّماءُ الخوائم وأن يَنْظِمَ الشَّمل المشتَّت نَاظِمُ[١]

ج- أن يكون غير مستقل وهو الناقص قال أبو الطيب:

مغاني الشِّعب طيبا في المغاني بمنــزلة الربيع من الزَّمان[٢]

د- أن يكون معلقا على صفة في أول الثاني، قال امرؤ القيس:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح فيك بأمثل[٣]

هـــ- أن يكون لكل منهما في التقديـــم معنى، وهو في المرتبة الثانية في الحسن، قال ابن الحجاج البغدادي:

من شروط الصَّبُوح في المهرجان خفة الشَّرب مع خلو المكان

و- أن يكون لفظ العجز حقيقة وهو مذموم، قال عبيد بن الأبرص:

وكل ذي غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب[٤]

ز- أن يكون مجازا قال أبو تمام:

فتى كان شِرْباً للعفاة ومرتعا فأصبح للهندية البيض مرتعا[٥]

ح- أن يتخالف لفظا العجز، لكن يتوافقا بالموازنة، وهي أقبح الكل، قال أبو نواس:

أقلني قد ندمتُ على الذُّنُوب وبالإقْرار عُذْتُ عن الجُحُودِ[٦]

والنوع الخامس الترصيع: وهو أن تتفق ألفاظ القرينتين على الوزن مأخوذ من ترصيع العقد وذلك بأن تكون في إحدى خانبي العقد من الجواهر مثل ما في الجانب الآخر. قال الشاعر:

---

(١) الديوان ج ٣ ص ١٧٦.

(٢) الديوان ج ٤ص ٣٨٣ البرقوقي.

(٣) شرح القصائد العشر ص ٦٧.

(٤) الديوان ص ٢٦.

(٥) الديوان ص ٤، ص ١٠٠.

(٦) الديوان ص ٤٥٣.

إذا دَنت المنازل زاد شوقي ولا سيما إذا بدت الخِيامُ
فلمح العين دون الحــيِّ شهر ورَجْعُ الطَّرْفِ دون السَّيْر عام

والحسن منه أن يتفقا في الحرف الأخير أيضا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾[سورة الغاشية، آية: ٢٥، ٢٦] وإذا روعي فيه الطباق كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[سورة الانفطار، آية:١٤، ١٥] أو الجناس، كقولهم: إذا قلت الأنصار كلت الأبصار، وقول اليوسفي:

سقى البارقُ العلويُّ عذبا من الحيا مَحلّتنــا بين العُــذَيب وبارق
مَحَــلّــةُ إينــاس ومغنــى أوانس ومركز رايات ومرعى أيانق
فيا يــومهــا كم من مُنافٍ منافق ويا ليلها كم من مُوافٍ مُوافقِ

والنوع السادس في السجع: وهو تواطؤ الفاصلتين على الحرف الأخير أو الوزن، ولا يقال في التنــزيل أسجاع، وإنما هي فواصل لقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾.

وأقسامه ثلاثة:

أ – **المطرف**: وهو التوافق على الروي كقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [سورة نوح، الآيتان: ١٣، ١٤] وقولهم من حسن حاله استحسن محاله.

ب– **المتوازي**: وهو التوافق على الروي والوزن، كقوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ [سورة الغاشية، الآيتان: ١٣، ١٤]، وقوله صلوات الله عليه: «**اللهم أعط منفقا خلفا وممسكا تلفا**»[(١)] وقد يخرج الكلم عن أوضاعها للازدواج، كقوله عليه السلام: «**أعيذه من الهامة والسامة وكل عين لامة**»[(٢)] وقوله صلوات الله عليه: «**ارجعن مأزورات غير مأجورات**»[(٣)] وأصله ملمة من ألم فهو ملم، ومأزورات من الوزر.

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري في الزكاة ٢٧، ومسلم في الزكاة ٥٧.

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث مادة عوذ.

(٣) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث مادة رجع.

ولك أن تعد قوله صلوات الله عليه[1]: «**دعوا الحبشة ما ودعوكم واتركوا الترك ما تركوكم**» من هذا، وأصله ما وادعوكم كما قيل.

ج- **المتوازن**: وهو التوافق في الوزن دون الروي قال تعالى: ﴿**وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ**﴾ [سورة الغاشية، الآيتان: ١٥، ١٦] وقال تعالى: ﴿**وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ [سورة الصافات، الآيتان: ١١٧، ١١٨] وهذا القسم يعم النثر والنظم، قال البحتري:

وقف مسعدًا فِيهنَّ إن كنت عازرًا وسِرْ مُبْعدًا عنهن إن كُنْتَ عاذِلاً[2]

تذييل:

وشرائط حسن السجع وجوه:

أ - أن تكون كل واحدة من الفقرتين مؤلفة من ألفاظ قليلة، وهو أشرف السجع للاعتدال، كقوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ**﴾[سورة الضحى، الآيتان ٩، ١٠] وقوله تعالى: ﴿**وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا**﴾ [سورة العاديات، الآيات ١-٣] وقوله -صلوات الله عليه وسلم: «**والاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا**»[3].

ثم ما طالت الثانية ثم الثالثة، كقوله تعالى: ﴿**وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾ الآية، لا عكسه؛ لأن السمع إذا استوفى أمده من الأولى، ثم إذا جاءت الثانية دونها ينبو عنه وكان كالشيء المبتور.

ب- أن يتخلف قرينتاه في المعنى لا كقول ابن عباد في مهزومين: طاروا واقين بظهورهم صدورهم، وبأصلابهم نحورهم وقوله: مكان ضنك على الفارس والراجل، ضيق على الرامح والنابل، وقول الصابي: يسافر رأيه وهو دان لم ينـــزح، ويسير تدبيره وهو ثاو لم يبرح.

---

(١) رواه أبو داود في ملاحم ٨.

(٢) الديوان ج ٣ ص ١٥٩٩ الصيرفي من قصيدة يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف.

(٣) رواه الترمذي باب القيامة ٢٤ ص ٦٣٧ ج ٤ الحديث ٢٤٥٨.

ج- أن يكون ساكن الأعجاز ليتراوح وأن لا يُفَوَّت في مثل قوله: ما أبعد ما فات، وما أقرب ما هو آت، وإذا كانوا يغيرون الأوضاع كقولهم: إني لآتيه بالغدايا والعشايا أي: بالغدوات؛ فلأن يغيروا هذا أولى وقد تجيء الأشعار مسجوعة، قالت الخنساء:

حامي الحقيقة محمود الخليقة مهـــــديُّ الطريقـــة نَقَّاع وضرَّار
جــوَّاب قــاصية جـــزَّاز ناصية عقّـــاد ألوية للخيل جَرَّارُ[1]

وقال بعضهم: السجع يجري في الكلام مجرى الخال في الوجه فإذا كثر فيه يذهب ببهجته ويقل بهاؤه، كما أن كثرة الخيلان تذهب بنضارة الوجه وملوحته.

وقال الفاضل ولا أرى لهذا وجهًا: فإن جل فواصل التنـــزيل بل كلها لا تخرج من أنواع السجع المذكورة، فإن قيل قد ورد النهي عنه فإن النبي ﷺ لما سمع: أدى لمن لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل ومثل ذلك مطل قال: أسجعًا كسجع الكهان؟ عَنَى قَوْلَ الكاهن في قصة هند بنت عتبة لما امتحن ثمرة في كمرة، ثم قال: حبة بر في إحليل مهر، وكقول سطيح عن المسيح، جاء سطيح وهو موف على الصريح لرؤيا المؤيدان وارتجاس الإيوان... إلخ، وأجيب بأن النهي وارد على إنكار الرجل حكمه -صلوات الله عليه- بالألفاظ المسجوعة؛ لأنه إنما أنكره لما أمره في الجنين بِغُرَّة، فأبى، أي أتتبع سجعًا كسجع الكهان وأترك حكم الرحمان أو أتنكر وأنت متكلف فيه.

والنوع السابع لزوم ما لا يلزم: ويسمى الإعنات، وهو أن يلتزم في الأعجاز قبل الروي ما ليس بلازم، وهو موافقة الحروف فيه، قال تعالى: **﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ﴾** [سورة الأعراف، الآيتان: ٢٠١، ٢٠٢] قال أبو العلاء:

لا تطلبن بألة لك حاجة قَلَمُ الليغ بغير جد مغزل[2]
سكن السَّماكان السماء كلاهما هـــذا له رمـــح وهـــذا أعزل

---

(١) الديوان ص ٥١.

(٢) غير موجودين بالديوان.

وقال أيضا:

ضحكنا وكان الضِّحك منّا سفاهة وحُقَّ لسكان البسيطة أن يبكوا

يُحطِّمُنَــا ريب الزّمان كــأننا زُجاج ولكن لا يُعَادُ له سَبْكُ(١)

قال إسحق الموصلي أنشدت الأصمعي على أنه لشاعر قديــم:

هل إلى نظرة إليك سبيل فَيُروَّى الصَّدى ويُشْفَى الغليل

إن ما قلَّ منك يكثــر عندي وكثيــر مــن الخــليل قليــلُ

فقال: هذا والله الديباج الخسرواني، فقلت: هو ابن ليلته فقال: لا جرم أثر التوليد فيه، فقلت: أثر الحسد فيك، قال الصولي: كان يظن إسحق أنه سبق إلى هذا حتى أنشد الأعرابي:

قِفِي ودِّعينا يا مليح بنظرة فقــد حان مــنا يا مليح رَحِيلُ

أليس قليلا نظرة إن نظــرتهــــا إليك وكل ليس منك قليـــلُ(٢)

فحلف أنه ما كان سمعه.

الصفة الثانية المعاظلة: وهي تعقيد الكلام وتراكبه، وهي لفظية ومعنوية.

واللفظية على خمسة أقسام:

أ-أن ترد حروف متراكبة منها ما قبح، كقول أبي الطيب:

وتسعدني في غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد(٣)

وقول الآخر:

العلم والفضل والآداب قاطبة منه إليه لديه فيه عنه به

ومنها ما لم يقبح، كما في قول أبي تمام:

دار أُجلُّ الهوى عن أن أُلِمَّ بها في الرَّكب إلا وعيني من منائحها(٤)

---

(١) اللزوميات ج٢ ص ٢١٦.

(٢) البيت الأول ليس موجودًا في مختارات أبي تمام، والبيت الثاني ليزيد بن الصمة القشيري ابن الطثرية- حماسة أبي تمام ج٢ ص ١٢٥.

(٣) الديوان ص ٣٩٣.

(٤) الديوان ج١ ص ٣٤٧.

وثانيها: أن ترد ألفاظ متكررة الحروف.

حكي أن الثعالبي قيل له: ثلاثة من رؤساء الشعراء شلشل أحدهم وسلسل الثاني وقلقل الثالث.

أما الأول فالأعشى، حيث قال:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شَاد مشل شَلُولُ شُلْشُلُ شَوِلُ(١)

ثم مسلم بن الوليد، حيث قال:

سُلت وَسَلَّت ثم سَلِيلهَا فأتى سَلَيَل سَلِيلهُا مسلولا(٢)

ثم الثالث المتنبي:

فَقَلْقَلْتُ بالْهمِّ الذي قلقل الحَشَى قلاقل عيش كلُّهُنَّ قلاقل(٣)

فبلبل أنت فقلت: أخشى أن أكون رابع الشعراء.

عنى به قول من قال: الشعراء فاعلمن أربعة:

شاعر يجري ولا يجرى معه..

وشاعر ينشد وسط المجمعة..

وشاعر من حقه ألا تسمعه.

وشاعر من حقه أن تصفعه..

فما مضى أيام أن قلت:

وإذا البلابل أفصحت بلغاتها فانف البلابل باحتساء بلابل

وأما قوله تعالى: ﴿**وعلى أمم ممن معك**﴾[سورة هود، آية: ٤٨] فلما أن في كلا مخرجي الميم والنون وهما طرفا اللسان والشفة، وما في صفتهما من الزلاقة والغنة، وتوسطهما بين الضعف والقوة ما يجبر مما حصل من ثقل التكرار بخلافه في الأبيات؛ لأن الشين والسين في طرف التفريط من الضعف لما فيهما من الهمس والرخاوة والقاف والباء في طرف الإفراط من القوة لما فيهما من القلقلة والضغط.

---

(١) شرح القصائد العشر الطوال ص ٤٢٨.

(٢) الديوان ص ٥٧.

(٣) العرف الطيب ص ٢٩ الديوان ج ٣ ص ١٧٥ العكبري.

واعلم أن سبب المعاضلة هو الثقل، وهو إنما يحصل من التكرار. وإذا كانوا مستثقلين المكرر في كلمة ومدغمين نحو: استعد واستتب، أو كلمتين في نحو «أتحاجوني»، حتى إنهم بدلوا أحدهما بحرف آخر، نحو: أمليت في أمللت، فما ظنك بالتكرار في كل كلمة.

ج–أن ترد أفعال شتى متتابعة: كقول القاضي الأرجاني عن لسان شمعة:

بالنَّار فرَّقت الحوادث بيننا وبها نذرت أعود أَقْتُلُ رُوحي

وقول المتنبي:

أقَل أنِل اقْطع احْم عَلْ سَلِ أعِد زِدْ هِشَّ بَشَّ تَفضَّل أدْن سر صل[1]

وقوله تعالى: ﴿**فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ**﴾ [سورة التوبة، آية: ٥] ليس منه لما في توسيط الواو وتعليق كل بمفعوله مع زيادات في الابتداء والانتهاء ما يخرج عن التركيب.

د–أن ترد صفات مترادفة: قال المتنبي:

دانٍ بعيدٌ محبُ مبغض بهجٌ أغرُّ حُلو مُمِر ليِّن شَرِسُ[2]

المعنوية: وهو أن تقدم في الكلام ما حقه التأخير لفظا ومعنى، قال الفرزدق:

وليست خُراسان التي كان خالدٌ بها أسد إذ كان سَيْفًا أمِيرها[3]

يمدح خالد القسري ويهجو أسدًا وقد وليها بعد خالد، يريد وليست خراسان بالبلدة التي كان خالد بها سيفا إذا كان أسدًا أميرها، فعلى هذا ففي كان الثانية ضمير الشأن، والجملة بعدها خبر لها يفسر الإسم، وقد قدم بعض ما إذ مضافة إليه عليها وهو أسد، وأقحم خبر كان الأولى في الجملة الثانية، وأيضا أن أسدًا أحد جزءي الجملة المفسرة للضمير، ولا يجوز تقديم المفسِّر على المفسَّر، وقال أيضا:

وما مِثْلهُ في الناس إلا مُمَلكًا أبو أُمِّه حي أبوهُ يقُاربه

يريد وما مثله في الناس حي يقاربه إلا مملك أبو أمه أبوه والممدوح[4] خال هشام

---

(١) الديوان ج٣ ص٢١٢.

(٢) العرف الطيب ص٢٠.

(٣) غير موجود بالديوان.

(٤) الديوان ص ١٠٨ نشر الصاوي.

ابن عبد الملك.

والمعنى: وما مثل الممدوح أحد يشبه في الفضائل إلا هشامًا، ففصل بين (أبو أمه) وهو مبتدأ وبين خبره وهو (أبوه) بقوله: حي، وهو أجنبي وكذا فصل بين (حي) و(يقاربه) وهو نعت له بـ (أبوه) وهو أجنبي، وقدم المستثنى على المستثنى منه:

ومن صفة التراكيب المتنافرة: وهي أن يذكر لفظ في التركيب ويكون غيره مما هو في معناه أولى بالذكر، قال أبو الطيب:

فلا يبرم الأمر الذي هو حالل ... ولا يحلل الأمر الذي هو مبرم(١)

فلفظ (حالل) و(يحلل) نافرتان لفك الإدغام في الثلاثي فلو عوض عنهما (ناقص) و(ينقص) لجاءتا قارتين في مكانهما لفظا ومعنى، قال تأبط شرًا:

يظل بموماة ويمسي بغيرها ... جحيشا ويعروري ظهور المهالك(٢)

فإن جحيشًا نافرة وكان له مندوحة عنه، بقوله فريدًا:

ومن قطع همزة الوصل قال:

إذا جاوز الاثنين سِرٌّ فإنه ... بِبَثٍّ وتكثير الوُشاة قَمِين(٣)

وعكسه قال أبو تمام:

قراني اللهى والوُدَّ حتى كأنَّما ... أفاد الغنى من نائلي وفوائدي

فأصبح يلقاني الزّمان من أجله ... بإعظام مولود ورأفة والد(٤)

وقد تجيء ألفاظ متعددة نافرة كما في المصراع الثاني من قول أبي الطيب:

لا خلق أكرم منك إلا عارف ... بك راء نفسك لم يقل لك هاكها(٥)

تذييل:

واعلم أن من الألفاظ المتنافرة ما لو نقل من مكانه إلى آخر قرتّ وحسنت فلفظه

(١) الديوان ج٤ ص٢٠٦.

(٢) حماسة أبي تمام ج١ ص ٢٢.

(٣) البيت لجميل، الديوان ص ٢٠٤ بتحقيق حسين نصار ط ٢ سنة ١٩٦٧.

(٤) الديوان ج ٢ ص ٧٣.

(٥) الديوان ج ١ص ٢٣٢ بشرح أبي البقاء العكبري.

(لي) في قول المتنبي:

فلا تقول لشيء ليت ذلك لي ....

جاءت نافرة، وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ**﴾ [سورة ص، آية: ٢٣] جاءت قارة حيث قدمت على متعلقها، وأما قوله تعالى: ﴿**وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ**﴾ [سورة الأنعام، آية: ٢] فلاستحباب تعظيم شأن الساعة.

وكذا لفظ القمل في قول الشاعر:

من عزة احتجزت كليب عنده زربًا كأنهم لديه القُمَّلُ

جاءت مبترة، وفي قوله تعالى: ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ**﴾ [سورة الأعراف، آية: ١٣٣] متمكنة فإن لفظي الطوفان والجراد أحسن الألفاظ وأشد منهما حسنًا الدم، فابتدأ بالحسن وانتهى بالأحسن جبرانا لما حصل من الثقل في لفظتي القمل والضفادع، فانظر إلى هذا السر الدقيق في التنــزيل لتغوص منه في بحر عميق، وإن شئت فتأمل في قوله تعالى: ﴿**رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا**﴾ [سورة آل عمران، آية: ٣٥] وقوله تعالى: ﴿**مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ**﴾ [سورة الأحزاب، آية: ٤] كيف خص كل موضع بما خص، واللفظان متوافقان وزنا ومعنى، فلو غير لما حسن هذا الحسن ومنه ما روينا عن البخاري أن البراء حين دعا بقوله: اللهم: آمنت بكتابك الذي أنــزلت، قال ورسولك الذي أرسلت، قال صلوات الله عليه: لا ونبيك الذي أرسلت، ثم انظر إلى قول الحماسي:

لا عار فالموت إذا حُمَّ الأجل والموت أحلى عندنا من العسل(١)

وقول أبي الطيب:

إذا شئت حفَّت بي إلى كُلِّ سائح رجال كأن الموت في فمها شهد(٢)

والعسل والشهد كلاهما حسنان، والأول أحسن تركيبا ووروده في التنــزيل قوله: ﴿**وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى**﴾[سورة محمد، آية: ١٥] ومع هذا لفظه الشهد في شعر المتنبي أحسن من قول الحماسي هذا، وإن الذوق السليم والطبع المستقيم هما الحاكم

(١) المثل السائر ج ١ ص ٢١٢.

(٢) الديوان ج١ ص ٣٧٤ العكبري.

الفيصل والدليل الخرِّيت[١]:

ومن أوصاف التركيب السهل الممتنع: وهو أن يكون مسبوكا سبكا سهلا وعرا قريبا بعيدا، قال البحتري:

فاللفظ يَقْرُبُ فهمه في بُعْده   منّا ويبعد نيله في قربه[٢]

يطمعك ويروغ عنك مزاولته ولا يتهيأ ذلك إلا لمن أيده الله بأن ملّكه رقاب الكَلِم يستعبد كرائمها ويستولد عقائمها، وفي مثل ذلك فليتنافس وعن مقامه فليتقاعس، قال أبو الطيب:

أنت الوحيد إذا ركبت طريقة   ومن الرديف وقد ركبت غضنفرا[٣]

وكتاب الله هو العلم المشار إليه، والمنار الذي يهتدى به، ألا ترى إلى أم القرآن كيف كانت ألفاظها من أسهل الألفاظ، وأقربها إلى الفهم مع أنها جزل المعاني رفيع المباني اشتملت على خلاصة الكتب السماوية وتضمنت زبدة المعارف الإلهية، لا ينقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم.

ومن أوصاف التركيب المطابقة: وهي أن يراعى مقصد الكلام، فمن مقام يقتضي ألفاظا جزلة متينة وأخرى رقيقة رشيقة، فالجزلة تستعمل في وصف الحرب وقوارع التهديد والوعيد، والرقيقة في وصف الأشواق والمودات والاستعطاف.

مثال الأول قوله تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ**﴾ [سورة الزمر، آية: ٦٨، ٦٩] إلى آخر السورة، وقول سموءل من شعراء الحماسة:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه   فكل رداء يرتديه جميل[٤]

---

(١) الخريت: الدليل الحاذق بالدلالة.

(٢) الديوان ج ١ص ١٦٥.

(٣) الديوان ج ٢ ص ٢٧٣ من قصيدة يمدح فيها ابن العميد.

(٤) الديوان ص ٩٠.

إلى آخر الأبيات، فإذا تؤمل في جزالة هذه الأبيات، متانة تلك الآيات كانت زبرًا من الحديد ومع هذا سهلة عذبة.

ومثال الثاني قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [سورة البقرة، آية: ١٨٦]. انظر إلى هذه العبارات الرقيقة والكلمات الرشيقة، كادت تسيل من سلاستها.

وقول العباس بن الأحنف.

وإني ليرضيني قليل نوالكم ... وإن كنت لا أرضى لكم بقليل[١]

بِحُرمة ما قد كان بيني وبينكم ... من الوُدِّ إلا عُدتُمُ بجميل

خاتمة:

واعلم أن الكلام متى وقع في فَنَّي البلاغة والفصاحة موقعه استهشَّ الأنفس وآنق الأسماع ونشَّط الأذهان، وربما نقل السامع من خلقه الطبيعي حتى إنه ليسمح به البخيل ويشجع به الجبان ويحلم به الطائش، ومن ثم قال صلوات الله عليه: **«إن من البيان لسحرا»**[٢].

ولما أنشد أبو العتاهية بين يدي المهتدي والأشجع السلمي وبشار حاضران:

ألا ما لسيدتي ماها ... تُدِلُّ فأجمل بإدلالها[٣]

ألا إن جارية للإمام ... قد أكر الحسن سرباها

لقد أتعب الله قلبي بها ... وأتعب في اللومِّ عُذّالها

فلما بلغ قوله:

كأنَّ بعيني من أثرها ... قطرت من الأرض عثالها

قال بشار، وكان أعمى: يا أشجع هل جروا برجله؟ فقال: لا.

فلما وصل إلى المدح قال، ومن جملته:

---

(١) غير موجودين بالديوان.

(٢) رواه مسلم في باب الجمعة ٤٧.

(٣) يوجد البيت الأول فقط في الديوان ص ٣٧٥.

أتتـه الخـلافة منقادة إليـه تُجَـرِّر أذْيـاَلهـا
فلم تك تصلح إلا له ولـم يَكُ يَصْلُـح إلاَّ لها
فلـو رامها أحد غـيره لـزلـزلت الأرض زِلزالها

قال: يا أشجع انظر إلى أمير المؤمنين هل طار من أعواده؟ قال: لا بل زحف حتى صار إلى طرف السرير.

وحضر أبو دلف بين يدي المأمون، فقال: يا أبا دلف أنت الذي يقول فيه الشاعر:

إنـما الـدنيا أبو دلف بيـن باديه ومحتضره(١)
فـإذا ولـى أبـو دلف ولـت الـدنيـا على أثره

قال: لست ذاك، ولكني الذي يقول فيه علي بن جبلة:

أبا دلف يا أكذب الناس كلهم سواي فإني في مديحك أكذب(٢)

فرضي عنه وتعجب من ذكائه.

واستنشد أبو دلف أبا تمام القصيدة التي رثى بها محمد بن حميد فأنشده، فلما بلغ قوله:

تُـوفِّيـت الآمال بعـد محمد وأصبح في شُغْل عن الَّسفرَ السُّفْرُ(٣)
وما كان إلا مال من قَلَّ ماله وذخرا لمن أمسى وليس له ذُخرُ
تَرَدَّى ثياب الموت حمرا فما أتى له اللَّيلُ إلا وهي من سندس خضر
كـأن بني نبهان يـوم وفـاته نجوم سماء خَـرَّ من بينهـا البـدر

بكى وقال: وددت أنها فيَّ، فقال أبو تمام بل يطيل الله عمر الأمير، فقال لم يمت من قيل فيه هذا.

فانظر إلى هذه الكريمة التي تُرَغِّب في الذكر الجميل، فيختار الحِمام وتصبوا إلى

---

(١) قائلهما علي بن جبلة المعروف بالعكوك، ديوان المعاني ج ١ ص ٥٠، خاص الخاص للثعالبي ص ١١٨.

(٢) معجم الشعراء: ابن المعتز ص ١٧١.

(٣) الديوان ج ٤ ص ٨١.

ابتناء المجد، فتهجر في تحصيل الراحة والمنام.

ولما سمع أبو تمام البحتري ينشد شيئا من شعره قال: إن عمري لن يطول وقد نشأ في طيء مثلك، وتمثل ببيت أوس بن حجر:

إذا مُقْرم منَّا ذرا حَدُّ نابه تبينَّ منّا حَدُّ آخر مقرم

فقال: بل أمد الله عمرك، فقال: أما علمت أن خالد بن صفوان رأى شبيبا يتكلم فقال قد نعيت إلى نفسي لأنا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب إلا مات من قبله، فما عاش بعده سنة والله أعلم بحقيقة الأمور.

وإذ قد وقفت على البلاغة وأنواعها وجمعت الفصاحة بأقطارها فلنذكر الآن حديثا صادرا عن صدر النبّوة ومنبع الرسالة ليكون كالإجمال لهذا التفصيل وكالفهرس لهذه الفنون وعونًا للمتصدي على وضع كلٍّ في مقامه وتمرنا له إذا انتصب لاهتمامه؛ فنقول وبالله التوفيق.

وقال معاذ ﷺ: قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال: «**لقد سألتني عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى: تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل شعار الصالحين**»، **ثم تلا ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ ﴿تَعْلَمُونَ﴾** ثم قال ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله قال: «**رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا رسول الله قال: كفّ عليك هذا وأشار إلى لسانه، قلت: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخيرهم إلا حصائد ألسنتهم**».

هذا رواية جامع الأصول عن الترمذي.

والنظر فيه من أربع جهات: من جهة المعنى، ومن جهة البيان، ومن جهة البديع ومن جهة الفصاحة.

أما من جهة المعاني: ففيه أبحاث.

أ - في أحوال الإسناد، أخرج قوله: تعبد الله إلى آخره مخرج الابتدائية حيث كان معاذ خالي الذهن غير عالم به وإن كان طالبا، وقوله: لقد سألتني عن عظيم وإنه ليسير مخرج الإنكارية؛ لما رأى فيه من شائبة الإنكار من التهاون في السؤال، وأما قوله: وإنا لمؤاخذون فلمجرد تأكيد العجب الذي نعطيه همزة التقدير.

ب- في إثبات المبتدأ هو في قوله: الصوم جنة؛ لأن لا غنى عنه.

ج- في تركه هو في قوله: تعبد الله، إذ التقرير هو أن تعبد الله في وجه للتعويل على الذهن.

د- في الصفات، قوله: يدخلني صفة لعمل إما مخصصة أي مطلوبي عمل هذه صفته أو مادحة أي عمل محمود، أو كاشفة فإن العمل إذا لم يكن بهذه الحيثية كأنه لا عمل.

هـ- في الإضافة قوله: يا نبي الله ويا رسول الله إضافة تشريف كما في بيت الله، وقوله: صلاة الرجل إضافة لقوة أمر الصلاة، وفي رأس الأمر إضافة مجازية.

و- في العلم قوله: ثكلتك أمك يا معاذ، تنبيه وقرع عصا، ولفظة الله في قوله ليسير على من يسر الله مشعر بعظمته؛ لأن المقام مقام تعظيم أي الألوهية مقتضية لأن يكون تيسير الطاعات منه، وفيه لمحة من قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

ز- في اسم الإشارة قوله: ذلك إشارة إلى المذكور وهو قريب لتعظيمه، وقوله: هذا لمزيد التعيين والاهتمام، أو للتحقير كقولهم المرء بأصغريه.

ح- في المضمر قوله لا تشرك به، وهو إما عائد إلى الله -تعالى- أو على ما دل عليه تعبد الله، لكن الثاني أولى؛ فإنه إذا لم يشرك في العبادة فإن لا شرك في الإلهية أحرى، وإقامة المظهر مقام المضمر في قوله: تعبد الله مشعر باستحقاقه لها أو بتعظيم الأمر.

ط- في التعريف، اللام في الخير للجنس ويجوز أن تكون للعهد الخارجي التقديري، أي: أبواب المذكورات وهي الخير كله، وفي رأس الأمر مثلها وأعم لتناولها النوافل أيضا، والإشارة في ذلك أعم منهما، وفي الصلاة والزكاة والصوم والصدقة بدل من المضاف إليه أي: صلاة الفرض وزكاته وصوم التطوع وضدقته، وليس الثاني بالأول لئلا تضيع فائدة التكميل كما سيجيء؛ لأنه عطف عليه صلاة الرجل في جوف الليل، وفي عموده الصلاة للحقيقة الشرعية، وفي قوله: الماء والنار للحقيقة، وفي الرجل كذا أو للعهد الذهني، وفي

البيت مثلها في النجم والصعق وفي الناس للاستغراق، وكذا في الصالحين والأول أشمل.

ي- في المنكر: قوله بعمل الكثير دالٌّ على الإفراد نوعا، وقوله: شيئا على الإفراد شخصا أي لا تشرك به ما يسمى شيئا، وقوله: عظيم ويسير دالٌّ على التعظيم والتقليل، وجنة تحتمل النوع والتفخيم.

ك-في المؤكد قوله: تأكيد لذلك لئلا يظن بالحكم خلاف الشمول والإحاطة.

ل-في خواص الحمل: المسند إليه، أعني في قوله: الصوم جنة إلى آخره معارف لاعتداد فوائدها والمسانيد مختلفة؛ فالاسم يدل على الثبوت أي: الصوم جنة دائما، والفعل على التقوى للحكم، أي: حصول الإطفاء محقق والمعرف على التخصيص أي: هذا هو الشعار لا غير، والأولى في التحقيق دون الثانية وفي الدوام كالأولى، وقوله: وإنا لمؤاخذون مبني على التقوى لا التخصيص.

م- في التقديم والتأخير: قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ قدّم فيه المفعول ليفيد أنهم أسخياء، أو يكون كقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ على مذهب المعتزلة، أو لمراعاة الفواصل، وقدم المجرور على المنصوب في قوله: كف عليك هذا للاهتمام.

ن-في التجدد والثبوت: قوله تعبد الله، والأفعال المسوقة كلها المطلوب منها التجدد بحسب كل مما يخصه، ففي التوحيد المطلوب الاستمرار الدائم مدة حياة المكلف، وفي الصلاة دونه ثم الزكاة والصوم دونها وقدم الأشقّ وأَخَّر ما وجب في العمر مرة، وقوله الصوم جنة والصدقة وصلاة الرجل المطلوب الدوام والثبوت، والأمر في النوافل عليه إلا ما خص في أزمان الكراهية، وكذا رأس الأمر إلى آخره.

س-في إثبات المفعول قوله: لا تشرك به شيئا، القياس فيه أن لا يجاء به ليكون على طريقة تنزيل المعتدي منزلة اللازم ليؤذن به أن حقيقة الشرك منهيٌّ عنها، لكن الحاصل رعاية القرآن.

ع-في البناء قوله تباعدني، أخرج على زنة فاعلت للمبالغة في البعد على أسلوب يخادعون، وقوله: إنا لمؤاخذون بني للمفعول لتعظيم الأخذ أو أنه معلوم لا لبس، أو أن ينسب إلى الغضب، أو الفرض أنهم مؤاخذون لا أن الآخذ من هو، أو للاختصار.

ف- في القصر قوله: هل يكبّ الناس على وجوههم، قصر فيه المفعول على الفاعل قصر قلب أو إفراد؛ لدلالته على مزيد الإنكار على تعجبه وكذا تعريف الخبر في رأس

الأمر أن جعل تعريف عهد كأن حصر المسند للمسند إليه، وإن جعل جنسا كان عكسه، وعلى هذا مثاله.

ص-في الجارّة (من) في من جوف الليل ابتدائية أي: يكون ابتداء قيامه للصلاة من جوف الليل ليكون من القائمين؛ لأن من قام فيه قام سائر الأوقات ويجوز أن تكون تضمينية بمعنى أخذ الرجل صلاته من جوف الليل شعار الصالحين أي: الليل أحقُّ بأن يؤخذ منه الصلاة كما يأخذ الدائن حقه من غريمه أي: هو مكانها ومنبعها، ودلَّت على في قوله: كفَّ عليك على الاستعلاء دلالة قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ عليه.

ق-في الإجراء على خلاف الظاهر: قوله: صلاة الرجل في جوف الليل شعار الصالحين؛ فإن الظاهر أن يقال شعار صلاحه؛ فعدل إلى العموم للمبالغة وأنه يدخل فيه دخولاً أولياً.

ر-في الوصل قوله تعبد الله عام عطف عليه تقيم الصلاة إلى آخره على طريقة ملائكته وجبريل تشريفًا لها، قولها: ﴿ثُمَّ قَالَ﴾ مرارا للترتيب في الوجود لا في المرتبة، قوله وتقيم الصلاة: المعطوفات كلها منظور فيها الجهة الجامعة الخيالية بحسب مؤداه في عرف الشرع، وفي رأس الأمر ومعطوفاته بحسب العرف العام، وفي قوله يدخلني الجنة ويباعدني من النار هي التضاد وشبهه.

ش-في الفصل، قوله: تعبد الله، فصله لكونه بيانا للجملة الأولى ويجوز أن يكون استئنافا، وكذا قوله قال معاذ، قال رسول الله ﷺ فصل بناء على السؤال الذي يستصحبه مقام المقاولة من نحو ماذا قال معاذ، وماذا قال رسول الله ﷺ وكذا فصل في قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ عما قبله بيانا أو استئنافا.

ك-في الإيجاز، إما إيجاز حذف كما في قوله: يدخلني في رواية الجزم فإنه إما جواب الأمر على تقدير الشرط والجزاء، أي: تخبرني بعمل يدخلني الجنة بمعنى أن الخبر يكون وسيلة إلى العمل، والعمل إلى الإدخال، وإما جزاء الشرط محذوف أي: إن عملته يدخلني، والجملة صفة عمل، وفي قوله: عظيم؛ لأنه صفة موصوف محذوف، وقوله: وإنا لمؤاخذون، وقوله: وهل يكب الناس فإن الواو للعطف ولا بد من تقديم معطوف عليه أي أتعزم على قولك: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون، وهل غير ما قلت: وهل يكب الناس، أو إيجاز تقدير كما في قوله: سألتني عن عظيم أي: المسئول عنه عظيم بالغ في العظمة منتهاه

في الفخامة، أو إيجاز جامع، هو قوله: كف عليك هذا؛ فإنه من الجوامع التي لا مطمح دونها؛ لأنه إذا نظر إلى الشريعة كان أحد شطري الإسلام، قال صلوات الله عليه[1]: «**المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه**» بل هو أمتن، قال صلوات الله عليه: «**من قال لا إله إلا الله دخل الجنة**» أو إلى الطريقة كان انتهاء درجة السالكين لقول علي ﷺ: من عرف الله كلَّ لسانه، بل هو قصارى مقامات العارفين لقوله ﷺ: من عرف الله طال لسانه، أو إلى الحكمة كان هو المنجي لقوله -صلوات الله عليه وسلم: «**من صمت نجا**».

ش-في الإطناب هو أن مطلوب معاذ في قوله: أخبرني بعمل لما كان من الوسائل السنية مهد صلوات الله عليه للجواب مقدمة ونبهّ فيها على فخامة المسئول، بأن أكدها تأكيدًا بليغا وعظمها غاية التعظيم، وكذا كلما قصد أن يجيب عن سؤال جعل له تمهيدًا وتوطئة ليمكنه في الذهن ويوطنه فيه، وأن زيادة لفظتي تُقيمُ وتؤتي لزيادة الاهتمام بشأنها على طريقة قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ**﴾ [سورة المؤمنون، آية: ٤] وأن لفظة البيت أيضا للبعث والحث وكذا ذكر على وجوههم أو مناخيرهم على الكب للتصوير والتخييل للتهويل، والرواية الأخيرة أدل على المذلة كما يقال: رغم أنفه، وكذا الزيادة في الجواب، حيث قال: جنة وتطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وكذا شعار الصالحين فإن الظاهر كان يكفي أن يقال: الصوم والصدقة وقيام الليل، وكذا إعادة ألفاظ رأس الأمر وعموده وذروة سنامه، ومنه الحديث بطوله؛ لأن المقام مقام إرشاد وأي مقام أدعى منه للإطناب وأنه هو المرشد المبلغ والبشير النذير حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم.

خ-في الإنشاء: قوله: أخبرني ظاهره أمر ولكنه استدعاء، وقوله: كف عليك أمر تنــزيه، والعدول عن الإنشائي في قوله تعبد الله، لفائدتين:

إحداهما: أن المأمور كأنه مسارع الامتثال وهو يخبر عنه إظهارا للحرص بوقوعه.

وثانيتهما: أن لا ينسب إلى عدم الامتثال لأمره إن قصر المأمور أو لئلا يكون

---

(١) الحديث رواه البخاري ١/٥٠، ٥١، في الإيمان باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، وفي الرقاق باب الانتهاء عن المعاصي، ومسلم رقم ٤٠ في الإيمان باب تفاضل الإسلام، والترمذي رقم (٢٦٢٩) في الإيمان باب ١٢ النسائي ٨/١٠٥، ٢٠٦، وأحمد ٣/١٥٤ من حديث جابر.

المأمور مسخوطا عليه إن لم يتمثل.

وعن الخبري في قوله: هل يكب الناس لمزيد الإنكار.

وتأدب معاذ في النداء بيا للدلالة على بعد منـــزلته عنه، ولكون المتلو بعد النداء معنيا بشأنه يؤدي بيا ليتفطن له، والاستفهام في وإنا لمؤاخذون ولّد التعجب، وفي هل التفريع، وأما قوله: ألا؛ فهي مركبة من همزة الاستفهام ولا النافية؛ ليفيد تحقيق ما بعدها، وقوله: ثكلتك أمك دعاء على صيغة الإخبار ومعناه التعجب على أسلوب قاتله الله ما أشجعه.

وأما النظر من جهة البيان ففيه أبحاث:

أ – في التشبيه: قوله: الصوم جُنَّة من التشبيه المضمر الأداة والمحذوف الوجه للمبالغة، شَّبه الصوم وهو معقول بالجنة، وهو محسوس والجامع منع إصابة المكروه.

وقوله: الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار من التشبيه الواقع على التمثيل، شبهت الحالة المتوهمة للصدقة الموجبة لإذهاب الخطيئة بحالة الماء المطفئ للنار، وقوله: رأس الأمر الإسلام من تشبيه المعقول بالموهوم أي: الإسلام كالرأس لذلك الأمر، فعكس التشبيه مبالغة.

ب– في المجاز المرسل المقيد: أطلق الخطيئة وأُريد نار جهنم إطلاقا لاسم السبب على المسبب، وعكسه قوله: تقيم الصلاة؛ لأن الإقامة مجاز عن تعديل أركانها أو عن التجلّد والتشمّر، فإن اعتدال الأركان والتجلد والتشمر سبب إقامتها.

ج– في الاستعارة: قوله: يدخلني أسند إلى العمل وهو في الحقيقة لله –تعالى– وكذا إسناد الكب إلى الحصائد، والشيخ[1] ذهب إلى أنه من الاستعارة المكنية شبه العمل لكونه سببا للمطلوب بالفاعل الحقيقي تشبيها بليغا وأدخله في جنسه ثم خيل أنه هو لا غير، وأطلق اسم العمل على اسم الفاعل الحقيقي، لا على مسماه، وجعل نسبة الإدخال قرينة.

وقوله: أبواب الخير، من المصرحة التخييلية شبه الخير بدار فيها من كل ما تتمناه النفس ثم بولغ، حيث أدخل الخير من جنس الدار، فتوهم له ما يلازم الدار وهو الباب،

(١) أبو يعقوب السكاكي.

ثم شبَّه المخترع بالباب الحقيقي ثم أطلق اسم المحقق على المتوهم وجعل إضافة الباب إليه قرينة.

وقوله: تطفئ الخطيئة من التبعية؛ لأن الأصل فيه أن يقال إذهاب الصدقة الخطيئة كإطفاء الماء النار، ثم استعير الإطفاء للذهاب، ثم سرى معنى الإطفاء إلى تطفئ.

وقوله: حصائد ألسنتهم محتمل أن يكون استعارة مصرحة تحقيقية؛ لكون ما يسمع من الإنسان هو المشبه المتروك وهو محقق، وأن تكون تخييلية، وذلك بأن يشبه اللسان بالمنجل ثم يبالغ فيه فيتوهم للسان ما يلازم المنجل، ويحتمل أن يكون تطفئ الخطيئة من الاستعارة التمثيلية بأن تشبه حالة الصدقة وكونها بحيث تذهب الخطيئة وتمحوها بحالة الماء وكونه يطفئ النار الشاعلة، ثم استعمل هنا ما كان مستعملا هناك.

د- في الترشيح والتجريد: قوله شعار الصالحين إن جعل الشعار بمعنى الثوب الذي على الجسم كان ترشيحا لاستعارة جوف الليل؛ لأنه ملائم للمستعار منه، وإن جعل بمعنى العلاقة كان تجريدا.

هـ- في القرائن: نسبة تطفئ إلى الصدقة نسبة التبعية إلى فاعلها، وإلى الخطيئة إلى مفعولها.

و-في توالي الاستعارات: قوله: رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد، استعارات متعاقبة على طريقة مراعاة النظير، كقول امرئ القيس:

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

فجعل الدين كالبازل[1] واستوفى له معظم أركانه من الرأس والظهر وذروة السنام.

ز- في اعتبار طرفي الاستعارة والجامع وهو أربعة:

أحدها: استعارة محسوس لمحسوس بوجه حسّي في قوله: حصائد ألسنتهم فالمستعار منه ما يقطع من الحشيش اليابس والرطب، والمستعار له ما يسمع من الكلام السقط والنخب، والجامع خلط النفيس مع الخَسِيس من غير تمييز.

وثانيها: استعارة محسوس لمعقول في قوله: أبواب الخير؛ فإن المستعار منه الدار،

(١) البازل: البعير طلع نابه.

والمستعار له الخير، والجامع كون الشيء مرغوبا فيه.

وثالثها: استعارة محسوس لموهوم إذا جعلت الاستعارة في الباب.

ورابعها: استعارة معقول لمعقول وهو استعارة الإطفاء للذهاب.

ج- في الكناية: قوله: صلاة الرجل في جوف الليل شعار الصالحين من التي المطلوب تخصيص الصفة بالموصوف، مثل قولهم: الكرم بين برديه والمجد بين ثوبيه، وقوله: تتجَافَى جنوبهم عن المضاجع كناية عن صلاة التهجد، كقول الشنفري:

تبيت بمنجاة من اللوم بيتها   إذا ما بيوت بالملامة حلّت

أما النظر من جهة البديع، ففيه أبحاث:

أ-في التفسير الخفي: قوله: تعبد إلى آخره كالبيان؛ لقوله: سألتني عن عظيم وإنه ليسير، وقوله: الصوم جنة تفسير لقوله أبواب الخير وعلى هذا: كفَّ عليك هذا.

ب-في الخطاب العام، قوله: تعبد الله خطاب لمعاذ، وكذا كفَّ عليك، ولكنه غير مختص به، بل كل من تتأتى منه العبادة والكف مما يدخل فيه، والدال على الأسلوب التعميم في قوله: الصوم جنة إلى آخره.

ج-في الاستطراد: وهو أنه صلوات الله عليه لما فرغ من جواب معاذ وكان كلاما في شأن الدين وهو الإيمان والإسلام استطرد أمر النوافل تكميلاً للفرائض؛ فقال: ألا أدلك على أبواب الخير، ثم بعده أمر الجهاد فضم معه المذكور على أسلوب آخر، فلما أتم الإرشاد ومهد الاعتقاد جاء بفذ لكة في ضمن كلام جامع تتميما له فقال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله.

د-نسبة قوله الصوم جنة: إلى قوله: يعملون مع الكلام السابق نسبة التكميل، كما مرّ آنفاً.

هـ-نسبة ألا أخبرك برأس الأمر وعموده: مع ما سبق من التكميل والمكمل نسبة التذييل.

و-نسبة كف عليك هذا: مع الكل نسبة التتميم والإيغال.

ز-في الترقي: قدم أولا الصلاة على الزكاة وعلى الصوم وعكس ثانياً؛ لأن الأول سيق لأمر الدين فقدم ما هو الأهم فالأهم، فالتدلي أولى والثاني لتكميله والترقي أحرى.

ج–**في الائتلاف:** قوله: رأس الأمر وعموده وذروة سنامه كما سبق، وقوله: ألا أدلك على أبواب الخير؛ فإن الدلالة مناسبة بالباب كما أن الرسالة موافقة بالإخبار عن المغيبات في البواقي، ومنه قوله: آخراً بأن الله؛ لأن التنبيه على حكمة المؤاخذة من أسرار النبوة، كما أن الإعلام بالتكاليف من أمر الرسالة.

ط–**في المطابقة قوله:** سألتني عن عظيم وإنه ليسير، المطابقة بين العظيم واليسير معنوية؛ إذ اللفظية إما حقير أو عسير، وكذا قوله: يدخلني ويباعدني والحقيقة هي النار والجنة.

ي–**في التكرير:** وإعادة الصلاة مرارا لتعليق كل مرة بها غير ما علق أولا، وكذا تكرير معاذ كل مرة يا رسول الله للاستلذاذ بذكره صلوات الله عليه، وفي «بلى» تكرير تقديري ولفظي.

ك–**في التغليب:** قوله: صلاة الرجل فإن حكم النساء كذلك.

ل–**في القلب:** وهو عكس التشبيه في قوله: رأس الأمر الإسلام.

م–**في الاقتباس:** قوله: ﴿**تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ**﴾ [سورة السجدة، آية: ١٦].

ن–**في سبك المعنى:** قوله: صلاة الرجل شعار الصالحين، مسبوك من قوله: ﴿**سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ**﴾ [سورة الفتح، آية: ٤٨]، وقوله: تعبد الله ولا تشرك به إلى آخره من قوله: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ [سورة البينة، الآية: ٥] إلى قوله: ﴿**وذلك دين القيمة**﴾.

س–**في الجمع مع التقسيم:** قوله: رأس الأمر إلى آخره، جمع أولا ثم قسم ثانيا.

ع–**في رعاية حسن المطلع والمقطع:** قوله: ﴿**تعبد الله**﴾ براعة الاستهلال؛ لأنه دال على مضمون الكلام دلالة إجمالية، وقوله: ﴿**كفَّ عليك هذا**﴾ من أحسن المقاطع، لدلالة الخاتمة.

أما النظر من جهة الفصاحة:

فنشير إليه مجملا حذرًا من السآمة، وهو كما ترى كل كلمات الحديث سلسة على الأسلوب عذبة على العذبات، سليمة عن التنافر والتعاضل، معراة عن الغرابة والتعقيد، جارية كالماء في السلاسة، خالصة كالنسيم في الرقة، ألفاظها تابعة معانيها، معانيها سابقة ألفاظها، وكل ما صدر عنه –صلوات الله عليه– صدر على هذا النهج،

لكن لا يهجم على مكامنه إلا خيال الشهم، ولا يفوز بمجانسه إلا من دق فهمه حتى جل عن ذمة الوهم، سبحان من أيده بأعلى مراتب البلاغة، وخصه بأشرف درجات الفصاحة، ومن تأمل في هذا الكلام المرتجل علم أنه -صلوات الله عليه- أوتي كنوز الحكمة، ومنح فصل الخطاب، قال:

هذا الذي اضطُرَّ المعنى البليغُ له وأصبحت طوعه جوامع الكلم

هذا هو المنذر الأميّ أفصحُ مَنْ بالضِّاد ينطق وهي حُجَّةُ الخِصَمَ

عليه مــن صلوات الله أَطْيَبُهــا تبقــى بقَــاءَ نَعِيم غَيْرَ مُنْصــرِم

ختم الكتاب ختام مسك، كما ختم بختام خاتم النبيين صلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين والحمد لله رب العالمين.

فهرس الموضوعات